اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

العربية



العدد السادس عشر - خريف 2006

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها:كالتوثيق..
- أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت – الجزائر العاصمة

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 25/24 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 1112 – 3575

الإيداع القانوني: 02 20/7

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

أ.د.مختار نويوات

كثر الجدال في اللغة العربيّة الفصحى. فمنهم من يزعم أنها بقيت متحجّرة أو كالمتحجّرة طَوالَ خمسة عشر قرنا. وآية ذلك أنّنا ما زلنا نفهم معظم شعر امرئ القيس وجرير والبحتريّ والمتنبّي وأبي العلاء المعرّيّ. ولا يفوتنا إلاّ القليل من القرآن والحديث ونثر الجاحظ وابن العميد والشريف الرّضيّ. بينما يعجز الفرنسيّون أو الإنجليز عن فهم كتّاب القرن السادس عشر وشعرائه أمثال رابليه وشكسبير.

والحقيقة أنّ العربيّة تطوّرت كثيرا، كما تطوّرت اللغات الغربيّة، لكنّها سلكت اتّجاهين: اتّجاها رعاها فيها الدّين، وبخاصّة القرآن الذي يُتلى آناء الليل وأطراف النهار ويفسّر باستمرار، وبلغته نهضت العلوم والفنون على اختلاف ميادينها وازدهرت الآداب وشُرِّعت القوانين والأحكام وبرزت الصّحافة وغيرها ممّا يُقرَأ يوميّا، وعليها أُسِّس التعليم وكلُّ ما كان لغة رسميّة. هذه اللغة حافظت على معياريّتها عبْر القرون. ونرى أنّها ستحافظ عليها ما آزرها القرآن والشريعة الإسلاميّة.

لكنّ هذه اللغة وفي هذا الاتّجاه تطوّرت تطوّرا مدهشا بالرّغم من محافظتها على معياريّتها. فقدت الكثير من مفرداتها وصيغها الصرفيّة لا سيّما في ميادين الجموع والأوزان الصرفيّة والدلالة. فقد يحدث أن تجد في "لسان العرب" ثلاثة وعشرين جمعا للكلمة الواحدة نتيجة لتعدّد اللهجات،

وصيغا عديدة للّفظ الثلاثيّ الواحد اسما كان أم فعلا أم حرفا. ودلالات لا تكادُ تحصى. وخير مثال لذلك المادّة "ضرب" : خصّص لها ابن منظور في اللسان أحد عشر عمودا. بل خُذ أيّ مادة من موادّ المعاجم المبسّطة تجدْ نفسك لا تعرف إلاّ النزر من دلالاتها.

خفّت اللغة إذنْ وسلستْ على يد الكتّاب والشعراء وعلماء البلاغة والنقّاد الذين عملوا جاهدين على تنقية اللغة من كلّ ما يمجّه "الذّوْق السليم". وهذا من أهمّ سمات تطوّر الفصحى في ظلّ القرآن.

وكان العرب منذ العصور الجاهليّة السحيقة، وبفضل الرحلات التجاريّة وغير التجاريّة التي وصلتهم بفارس والرّوم والحبشة واليهود والنّصارى اقتبسوا الكثير من مختلف اللغات وعرّبوها وتبنّوها ولهجتْ بها ألسنتهم، وعدّوها من لسانهم. وأثَرُ ذلك في معاجمهم. ومن هذه الألفاظ ما ورد في القرآن الكريم كـ "الأبِّ، وإبليس، وأساطير، وإستبرق، وإفك، واللاّت (من الأشوريّة)،والإنجيل، والتّنُّور، والتوراة، والجبّار، والأجداث، والجَنّة، وجهنّم، والحجّ، والخمر، والرَّحمن، والرّحيق، والزّيتون،والأسباط، والأساوير، والصّيام، والصّلاة، والزّكاة، والأصنام، وغير ذلك ممّا صار عربيّا بكثرة الاستعمال وتقادم العهود. ورد في القرآن كما ورد غيره ممّا لم يعهده العرب وهو عربيّ خالص تغيّرت دلالته بالتوسّع وأنواع المجاز والاستعارة وضروب الكناية وما إلى ذلك ممّا يدركه المختصّون في علوم القرآن.

وفُتِحت الشّام والعراق ومصر والمغرب بدلالته القديمة وبخاصّة الأندلس، كما فتحت فارس والسِّند، وتكونت الحضارة العربيّة الإسلاميّة ثمّ ازدهرت وامتزجت الشعوب واللغات والثّقافات وتلاقحت. وكان بعضها لبعض ظهيرا

في النهوض بالحضارة الجديدة وإثرائها وجعلها تراثا عالميّا اعترف به القاصي والدّاني.

وجاء عصر الاقتباس من الحضارات القديمة يونانيّها وفارسيّها وهنديّها. فَتُرْجِمَ من اليونانيَة على سبيل المثال لا الحصر ما يربو على 105 كتب في الفلسفة والأدب والمنطق والطبّ. منها 8 لأفلاطون و19 لأرسطو و 10 لأبقراط و48 لجالينوس وبضعة وعشرون في الرياضيّات والنجوم لإقليدس وأرخميدس وبطليموس وأضرابهم. ونقلوا من الفارسيّة نحو 20 كتابا في التاريخ والأدب، و30 من السنسكريتيّة ومعظمها في الرّياضيّات والطبّ والنجوم والأدب و20 أو يزيد من السريانيّة أو النبطيّة أغلبها في السحر والطّلّسمات ما عدا كتاب الفلاحة النبطيّة في الزراعة. ومن الكتب ما نُقِل عن اللاتينيّة والعبريّة (راجع في كلّ هذا فهرست ابن النديم).

وَسِعتِ العربيّة هذه الثقافات ونقلتها بجرأة وأمانة وأسّست عليها حضارة متميِّزة. وبما أنّ اللغات تختلف في التصوّر والتعبير عن الأشياء وفقا لأصحابها ولمعتقداتهم وتجاربهم وتاريخهم وللأرض التي يتقلّبون فيها وجدت الفصحى بعض الصعوبات في التعامل مع بعض المفاهيم التي لم تخطر ببال العرب لقلّة زادهم في مثل هذه المعارف. فركبوا الصّعْب وطوّعوا لغتهم للغات الرّافدة واخترعوا ما لم تكن تقبله الأجيال السابقة. أدخلوا أداة التعريف على الضّمير فقالوا "الأنا" واخترعوا ما ندعوه بالمصدر الصّناعيّ فاستنتجوا "الأنانيَّة" (والعرب تسمّيها الأَثَرَة) والهُوِيَّة ومنها "بطاقة الهويّة" في عصرنا هذا، والإنسانيّة ومثل ذلك ممّا نراه طبيعيّا ولا يفهمه الأصمعيّ وعمرو بن العلاء. بل أدخلوا أداة التعريف على الجملة فقالوا "اللاّأدريّة" من "لا أدري" و"اللاّشعورُ"

من "لا شعورَ"، وأثروا اللغة الفصحى بآلاف الكلمات والدّلالات التي لا عهد للقدماء بها.

رافقتْ هذه الحركةَ حركةٌ أخرى لا تقلّ عنها أهمّيّة وبُعْدَ أثر، حركةُ التّدوين وتأسيس العلوم الإسلاميّة وغير الإسلاميّة. فظهرت العلوم اللغويّة والنحويّة وعلم الكلام والفقه والأصول ومصطلح الحديث والبلاغة والعروض والفلسفة والرياضيّات والفلك وما إلى ذلك ممّا لا يكاد يفهم منه القدماء شيئا. فلو بُعِثَ أحد الصحابة رضي الله عنهم وسمع الخليل يتحدّث عن الأسباب والأوتاد والزحافات والعلل والعروض والضّرْب وأنواع الخَرْم والحذو والتوجيه والردْف والتأسيس، وسيبويه يبسط للمستمعين إليه الإعراب والبناء والمتمكِّن والأمكن والرّفع والنصب والجرّ والجزم والنائب عن الفاعل والتنازع واشتغال العامل عن المعمول، لو سمعهما يصولان ويجولان في هذين المضمارين وقيل له إنّ لغتهما لغتُهُ لأيقن أنّ بهما مَسًّا من الجنّ ولَتَبَرَّأَ من هذه اللغة. **أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّرإلاّ قليلا ؟**

وما يفهم الخليل وسيبويه من الألسنيّة والوظيفيّة والبنويّة والتوزيعيَة والإسقاط في اللسانيّات والطبّ والفلسفة؟ بل ما يفهمون من "السّوسيو–ثقافيّ"، و"السّوسيو–نَصِّيّ"، و"السّوسيو–لسانيّ" وغيرها ممّا يشبه الولد الذي تدعوه أمّه الفرنسية Maurice ويدعوه أبوه المسلم صالحا، الولد الذي "تنازع العُرْبُ فيه والفرنسيس" على حدّ قول الأمين العمودي في سينيّته الشهيرة، الولد الذي " نصْفُه صالح والنّصف موريس" على حدّ قوله أيضا؟

وتطوّرت العربية خارج القرآن والشريعة الإسلامية تطوّرا حرّا أفقدها معياريّتها وانسلخت من الإعراب وضاع منها المثنّى وكثير من الصّيَغ الصرفيّة والدلالات وتقلّص معجمها وعَسُرَتْ كتابتها وتعدّدت لهجاتُها فلا تكاد تنتقل من مكان إلى مكان لا يبعد عن الأوّل إلاّ بمقدار عشرين ميلا حتّى تعرف أهله بطريقة أدائهم لما كان لغة فصحى وبألفاظهم وأسلوبهم الخاصّ بهم. هذا بقطع النظر عن لغات الأقطار العربيَة ولهجاتها.

أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّرْ إلاّ قليلا؟ فإن كان يُقصدُ بالتطوُّر التطوّر العلميَ فالعربيّة تطوّرت بفضل الساهرين عليها تطوّرا ملحوظا في الأعصر العبّاسيّة وفي القرنين التاسع عشر والعشرين. وما علينا إلاّ أن نتابع جهودهم وألاَ نترك غيرنا يقولون لنا وجها لوجه : ومتى تطوّر العرب حتّى تتطوّرَ لغتهم؟ سؤال لا يتحمّله غيور على شرفه ولا يريد أن يجابَهَ به من يظنّون أنّ داءهم لغتُهم مع أنّهم داؤها والوازرون وِزْرَها؟

اللغة العربية

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية.

هيئة التحرير

تصفيف ورقن: أمال زواني

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.

المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها:كالتوثيق..
- أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة : المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت – الجزائر العاصمة

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

الهاتف: 24/25 07 23 21 (00213)

الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) : 1112 – 3575

الإيداع القانوني: 02 7/20

محتويات العدد

كلمة رئيس التحرير

أ.د.مختار نويوات

كثر الجدال في اللغة العربيّة الفصحى. فمنهم من يزعم أنها بقيت متحجّرة أو كالمتحجّرة طَوالَ خمسة عشر قرنا. وآية ذلك أنّنا ما زلنا نفهم معظم شعر امرئ القيس وجرير والبحتريّ والمتنبّي وأبي العلاء المعرّيّ. ولا يفوتنا إلاّ القليل من القرآن والحديث ونثر الجاحظ وابن العميد والشريف الرّضيّ. بينما يعجز الفرنسيّون أو الإنجليز عن فهم كتّاب القرن السادس عشر وشعرائه أمثال رابليه وشكسبير.

والحقيقة أنّ العربيّة تطوّرت كثيرا، كما تطوّرت اللغات الغربيّة، لكنّها سلكت اتّجاهين: اتّجاها رعاها فيها الدّين، وبخاصّة القرآن الذي يُتلى آناء الليل وأطراف النهار ويفسّر باستمرار، وبلغته نهضت العلوم والفنون على اختلاف ميادينها وازدهرت الآداب وشُرِّعت القوانين والأحكام وبرزت الصّحافة وغيرها ممّا يُقرَأ يوميّا، وعليها أُسِّس التعليم وكلُّ ما كان لغة رسميّة. هذه اللغة حافظت على معياريّتها عبْر القرون. ونرى أنّها ستحافظ عليها ما آزرها القرآن والشريعة الإسلاميّة.

لكنّ هذه اللغة وفي هذا الاتّجاه تطوّرت تطوّرا مدهشا بالرّغم من محافظتها على معياريّتها. فقدت الكثير من مفرداتها وصيغها الصرفيّة

لا سيّما في ميادين الجموع والأوزان الصرفيّة والدلالة. فقد يحدث أن تجد في "لسان العرب" ثلاثة وعشرين جمعا للكلمة الواحدة نتيجة لتعدّد اللهجات، وصيغا عديدة للّفظ الثلاثيّ الواحد اسما كان أم فعلا أم حرفا. ودلالات لا تكادُ تحصى. وخير مثال لذلك المادّة "ضرب" : خصّص لها ابن منظور في اللسان أحد عشر عمودا. بل خُذ أيّ مادة من موادّ المعاجم المبسّطة تجدْ نفسك لا تعرف إلاّ النزر من دلالاتها.

خفّت اللغة إذنْ وسلستْ على يد الكتّاب والشعراء وعلماء البلاغة والنقّاد الذين عملوا جاهدين على تنقية اللغة من كلّ ما يمجّه "الذّوْق السليم". وهذا من أهمّ سمات تطوّر الفصحى في ظلّ القرآن.

وكان العرب منذ العصور الجاهليّة السحيقة، وبفضل الرحلات التجاريّة وغير التجاريّة التي وصلتهم بفارس والرّوم والحبشة واليهود والنّصارى اقتبسوا الكثير من مختلف اللغات وعرّبوها وتبنّوها ولهجتْ بها ألسنتهم، وعدّوها من لسانهم. وأثَرُ ذلك في معاجمهم. ومن هذه الألفاظ ما ورد في القرآن الكريم كـ "الأبِّ، وإبليس، وأساطير، وإستبرق، وإفك، واللاّت (من الأشوريّة)،والإنجيل، والتّنُّور، والتوراة، والجبّار، والأجداث، والجَنّة، وجهنّم، والحجّ، والخمر، والرَّحمن، والرّحيق، والزّيتون،والأسباط، والأساوير، والصّيام، والصّلاة، والزّكاة، والأصنام، وغير ذلك ممّا صار عربيّا بكثرة الاستعمال وتقادم العهود. ورد في القرآن كما ورد غيره ممّا لم يعهده العرب وهو عربيّ خالص تغيّرت دلالته بالتوسّع وأنواع المجاز والاستعارة وضروب الكناية وما إلى ذلك ممّا يدركه المختصّون في علوم القرآن.

وفُتِحت الشّام والعراق ومصر والمغرب بدلالته القديمة وبخاصّة الأندلس، كما فتحت فارس والسِّند، وتكونت الحضارة العربيّة الإسلاميّة ثمّ ازدهرت وامتزجت الشعوب واللغات والثّقافات وتلاقحت. وكان بعضها لبعض ظهيرا في النهوض بالحضارة الجديدة وإثرائها وجعلها تراثا عالميّا اعترف به القاصي والدّاني.

وجاء عصر الاقتباس من الحضارات القديمة يونانيّها وفارسيّها وهنديّها. فَتُرْجِمَ من اليونانيَة على سبيل المثال لا الحصر ما يربو على 105 كتب في الفلسفة والأدب والمنطق والطبّ. منها 8 لأفلاطون و19 لأرسطو و 10 لأبقراط و48 لجالينوس وبضعة وعشرون في الرياضيّات والنجوم لإقليدس وأرخميدس وبطليموس وأضرابهم. ونقلوا من الفارسيّة نحو 20 كتابا في التاريخ والأدب، و30 من السنسكريتيّة ومعظمها في الرّياضيّات والطبّ والنجوم والأدب و20 أو يزيد من السريانيّة أو النبطيّة أغلبها في السحر والطّلّسمات ما عدا كتاب الفلاحة النبطيّة في الزراعة. ومن الكتب ما نُقِل عن اللاتينيّة والعبريّة (راجع في كلّ هذا فهرست ابن النديم).

وَسِعتِ العربيّة هذه الثقافات ونقلتها بجرأة وأمانة وأسّست عليها حضارة متميِّزة. وبما أنّ اللغات تختلف في التصوّر والتعبير عن الأشياء وفقا لأصحابها ولمعتقداتهم وتجاربهم وتاريخهم وللأرض التي يتقلّبون فيها وجدت الفصحى بعض الصعوبات في التعامل مع بعض المفاهيم التي لم تخطر ببال العرب لقلّة زادهم في مثل هذه المعارف. فركبوا الصّعْب وطوّعوا لغتهم للغات الرّافدة واخترعوا ما لم تكن تقبله الأجيال السابقة. أدخلوا أداة التعريف على

الضّمير فقالوا "الأنا" واخترعوا ما ندعوه بالمصدر الصّناعيّ فاستنتجوا "الأنانيَّة" (والعرب تسمّيها الأثَرَةَ) والهُوِيَّة ومنها "بطاقة الهويّة" في عصرنا هذا، والإنسانيّة ومثل ذلك ممّا نراه طبيعيًا ولا يفهمه الأصمعيّ وعمرو بن العلاء. بل أدخلوا أداة التعريف على الجملة فقالوا "اللاّأدريّة" من "لا أدري" و"اللاّشعورُ" من "لا شعورَ"، وأثروا اللغة الفصحى بآلاف الكلمات والدّلالات التي لا عهد للقدماء بها.

رافقتْ هذه الحركةَ حركةٌ أخرى لا تقلّ عنها أهمّيّة وبُعْدَ أثر، حركةُ التّدوين وتأسيس العلوم الإسلاميّة وغير الإسلاميّة. فظهرت العلوم اللغويّة والنحويّة وعلم الكلام والفقه والأصول ومصطلح الحديث والبلاغة والعروض والفلسفة والرياضيّات والفلك وما إلى ذلك ممّا لا يكاد يفهم منه القدماء شيئا. فلو بُعِثَ أحد الصحابة رضي الله عنهم وسمع الخليل يتحدّث عن الأسباب والأوتاد والزحافات والعلل والعروض والضّرْب وأنواع الخَرْم والحذو والتوجيه والردْف والتأسيس، وسيبويه يبسط للمستمعين إليه الإعراب والبناء والمتمكّن والأمكن والرّفع والنصب والجرّ والجزم والنائب عن الفاعل والتنازع واشتغال العامل عن المعمول، لو سمعهما يصولان ويجولان في هذين المضمارين وقيل له إنّ لغتهما لغتُهُ لأيقن أنّ بهما مَسًّا من الجنّ ولَتَبَرَّأ من هذه اللغة. **أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّرإلاّ قليلا ؟**

وما يفهم الخليل وسيبويه من الألسنيّة والوظيفيّة والبنويّة والتوزيعيَة والإسقاط في اللسانيّات والطبّ والفلسفة؟ بل ما يفهمون من "السّوسيو–ثقافيّ"، و"السّوسيو–نَصِّيّ"، و"السّوسيو–لسانيّ" وغيرها ممّا يشبه الولد الذي تدعوه

أمّه الفرنسية Maurice ويدعوه أبوه المسلم صالحا، الولد الذي "تنازع العُرْبُ فيه والفرنسيس" على حدّ قول الأمين العمودي في سينيّته الشهيرة، الولد الذي " نصْفُه صالح والنّصف موريس" على حدّ قوله أيضا؟

وتطوّرت العربية خارج القرآن والشريعة الإسلامية تطوّرا حرّا أفقدها معياريّتها وانسلخت من الإعراب وضاع منها المثنّى وكثير من الصّيَغ الصرفيّة والدلالات وتقلّص معجمها وعَسُرَتْ كتابتها وتعدّدت لهجاتُها فلا تكاد تنتقل من مكان إلى مكان لا يبعد عن الأوّل إلاّ بمقدار عشرين ميلا حتّى تعرف أهله بطريقة أدائهم لما كان لغة فصحى وبألفاظهم وأسلوبهم الخاصّ بهم. هذا بقطع النظر عن لغات الأقطار العربيَة ولهجاتها.

أيقال بعد هذا إنّ العربيّة لم تتطوّرْ إلاّ قليلا؟ فإن كان يُقصدُ بالتطوُّر التطوّر العلميَ فالعربيّة تطوّرت بفضل الساهرين عليها تطوّرا ملحوظا في الأعصر العبّاسيّة وفي القرنين التاسع عشر والعشرين. وما علينا إلاّ أن نتابع جهودهم وألاَ نترك غيرنا يقولون لنا وجها لوجه : ومتى تطوّر العرب حتّى تتطوّرَ لغتهم؟ سؤال لا يتحمّله غيور على شرفه ولا يريد أن يجابَهَ به من يظنّون أنّ داءهم لغتُهم مع أنّهم داؤها والوازرون وِزْرَها؟

من أْعتقال العقل وغفلة الساسة
إلى تعثر النهضة وتأجيل التحديث

أ. د. محمد العربي ولد خليفة
(جامعي)

1. تقدّم وتأخّر: وجهان للمقارنة
2. وباء الشعوذة والإسرائيليات
3. إسلام البرهان حاضن العلم والعرفان
4. حرّية الفكر والإنسان وجواسيس السلطان
5. أعراض الانحطاط أو مرض العصر وعلاجه بالداروينية الاجتماعية
6. هل كان العلماء المسلمون مجرّد حرّاس لمكتبات الأوّلين
7. القوميون وأنصار الخلافة: من الغفلة إلى الخيبة
8. الإجهاض السافر للنهضة: الحالتان المصرية والجزائرية
9. الإجهاض الثالث وحرب المغفلين في الخليج
10. خطوة أخرى خاسرة إلى الوراء
11. 11 سبتمبر: بيرل هاربر أمريكا في منطقة هشّة
12. جزائر التسعينيات: مخبر وفرجة
13. الحمل الكاذب والمجموع الصفري

14. الخيبة السابعة

15. المعضلة وشفرة الحل

لماذا تأخّر العرب والمسلمون وتقدّم غيرهم؟ لسنا أول من طرح هذا السؤال، ولن نكون بالتأكيد –والحال على ما هو عليه– آخر من يبحث عن جواب، قد يضاف إلى قائمة طويلة تجمعت فيها خلال القرنيْن الماضيين مقاربات التوصيف والتشخيص والغضب والرثاء، واقتراح وصفات العلاج والشفاء، وشروط النهضة وإعادة التأسيس والبناء.

1. تقدم وتأخر: وجهان للمقارنة

من الواضح أن كلمة تأخر تتضمن في مجمل تلك التوصيفات والوصفات وجهين من المقارنة، **أولهما** مقارنة مع حقبة حضارية زاهرة انطلقت من دولة المدينة بقيادة رسولنا الأعظم محمد (ρ) وتحت لواء القرآن وتواصلت في تصاعد لحوالي خمسة قرون، في تلك الحقبة الزاهرة أدركت نسبة كبيرة من النخب المفكرة والعالمة، ومن أهل الذكر، أن معجزة الإسلام هي القرآن وبيانه وحثه على فهم الكون ونظامه، وليس الخوارق التي تلغي قانون السببيّة، أو تبطل دوران العلة مع المعلول في مصطلح علماء أصول الفقه.

والوجه الثاني مقارنة مع واقع الحال عندنا، بالنظر إلى حال غيرنا الذي نخصص له الجزء الأخير من هذه السطور بهدف تقديم وجهة نظر تنأى عن الرثاء والبكاء، وخطابات تبرئة الذمّة وقصائد استنهاض الهمة، وتتلمس الإجابة عن السؤال التالي: كيف تقدموا ولماذا تأخرنا؟ كما تبدو في سياسة

الفكر وفكر السياسة، وما حدث بين الفكر والسياسة من تآلف وقطيعة، وفق فرضية تتبعنا مدى صدقيتها في مواضع أخرى، ومؤداها أن التقدم والتأخر، النهضة والتخلف، لا تحدث في التوّ وبالصدفة، بل هي أشبه بمرض السيدا الذي يُفقد الجسم مناعته تدريجيا، مع فارق أنه من الصّعب معرفة تاريخ الإصابة بالتحديد وموضعها وسببها الأول.

لا يرجع عقد مثل تلك المقارنات إلى إرهاصات ما يسمى بالنهضة في عهد محمد علي حاكم مصر، أو محاولات الأمير عبد القادر التي أجهضها الاحتلال الاستيطاني في المهد، بل ترجع إلى زمن أبعد من ذلك، سبق الاحتضار الطويل للخلافة العثمانية، عندما تحولت دار الإسلام من مجال حضاري مفتوح على أقاليمه مشرقا ومغربا، وعلى ثقافات عصره، عندما تحّول عالم المسلمين والعرب إلى إمارات وسلطنات، وقبائل متصارعة، ولا تتورع عن التحالف مع قوى أخرى مما كان يسمى "دار الكفر" لتسوية الخلافات بين الأسر الحاكمة، وداخل تلك الأسر نفسها. لقد استمر الصراع حول الإمامة والسياسة منذ مؤتمر سقيفة بني ساعدة وإلى يوم الناس هذا، إما بصورة كامنة، وإما انفجارية، وإما في صورة انشطارات مذهبية وسياسية دموية.

لم يكن خافيا على نخب تتناقص عدديا ويقل تأثيرها اجتماعيا وثقافيا وسياسيا، وتتعرض للعزل والإقصاء والاتهام بالردّة والتآمر، لم يكن خافيا على تلك النخب أن العالم العربي والإسلامي من أقصاه إلى أدناه يدخل في غيبوبة مهلكة، وفي غفلة تامة عما يحدث في عالم القرن الخامس عشر. فقد خسر ذلك العالم الكثير من تراثه على يد جحافل التتار والمغول القادمة من الشرق،

وأنهكته حروب عالمية شنها تكتل دولي تحت راية المسيح المظلوم، شاركت فيها جيوش من معظم بلدان القارة الأوروبية.

ويمكن أن نتساءل اليوم هل وضعت تلك الحروب أوزارها؟ وهل جرى حوار حضارات بدون ذاكرة مثقلة بماضي يتحكم في العلاقات الصراعية مع شعوب المنطقة؟ ومتى يكف ذلك التكتل عن التحكم في مستقبلها؟.

لم يكن بالإمكان وقف ذلك الانحدار المتسارع والتدهور الحضاري المتواصل، لقد غرقت شعوب المنطقة وقياداتها الضعيفة في أوحال الركود والفتن والانحطاط العقلي والروحي، وصدرت أوامر بالقبض على العقل وغلق باب الاجتهاد ودفن مفاتيحه تحت ركام من الحشو والاجترار.

رافق الغفلة والاستغفال تلويث واسع النطاق للروحانية الإسلامية الراقية، بالشعوذة وأوهام السحّر التي تلغي قوانين الطبيعة وسنن الكون بما يشبه العودة إلى الوثنية والتنّكر الصريح لما جاء في آي الذكر الحكيم: ﴿**وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم معرضون**﴾ (يونس 105). ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ (الحجّ 46)، لقد جرّد القرآن الكريم الأجرام السماوية والبشر والشجر والحجر من أي تأثير سحري وسلطة خفية على العقل والروح، ولكن التخلف أعاد لها ما ليس لها من نفوذ وسلطان.

2. وباء الشعوذة والإسرائيليات

استشرى ذلك التأخر وساعد عليه، تسرّب طوفان هائل من الإسرائيليات المُنحّطة التي تزعم تفسير وتفصيل ما جاء مجملا في القرآن والسنّة والتطاول على ما هو في حكم الغيب الذي لم يدعيه أبدا المصطفى (ρ) وهو يتلقى الوحي من العلي القدير ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضررا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يومنون**﴾ (الأعراف 188)، ﴿**ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنيّ ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذن لمن الظالمين**﴾ (هود آية 31).

انتشرت الخرافات التلمودية المنسوبة زورا وبهتانا إلى روايات منحولة عن خاتم الأنبياء وصحبه، وتمكنت فلول كهان إسرائيل المهزومين أمام الرسالة المحمدية من الانتقام بأثر رجعي، وأوهموا الكثير من العامة والخاصة بأنه لا حياة قبل الموت وأن المستقبل يبدأ من القبر وأن ما قبله لا جدوى منه، على النقيض تماما من صريح كتاب الله ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى**﴾ (سورة النجم 39-40) فلا يمكن مساءلة الإنسان ومجازاته بالثواب والعقاب في الآخرة إذا لم يُقيّم سعيه بمدى تقواه وأفعاله في الحياة الدنيا.

تبنّى أغبياء في طول العالم العربي والإسلامي النظرة الخرافية والدجل وروجوا الاستكانة واليأس في أوساط الفقراء والمهمشين، وحتى بين الطبقات الموسرة وممثليها من الأمراء والحاشية التي تقبلت ما هو ضد العقل السليم

وضد الشرع الصريح، إما عن جهل مطبق، وإما لغرض التنويم والتخدير كما فعل زبانية الأُحتلال الكولونيالي في الجزائر (نهاية القرن 19 حتى منتصف العشرين) عن طريق عدد من الزوايا وبعض الأعيان الذين تمّ استدراجهم وتسخيرهم لخدمة الطغيان الفرنسي والمساعدة على تأبيده، مقابل مزيد من الإذلال والتدمير لشعبهم وانتهاك حرماتهم ومقومات هويتهم التي فرّطوا فيها بالفتاوى الشيطانية لصالح عدّو يعتبرهم مجرّد كلاب مدجنّة ومدربة على الركوع والخنوع.

بالإضافة إلى ذلك الركام المتعفن من الشعوذة والإسرائيليات سحبت التيارات الغنوصية (La gnose) (فلسفة آخر العهد الهليني) وبقايا أديان فارس القديمة من العقل صلاحياته، وسعت تيارات مثل الباطنية والحلولية والتوحد بالخالق لتخريب عقيدة الإسلام المبنية على التوحيد والتنزيه والتساوي بين أداء فرائض العبادة، وواجبات العمل والجهد والاجتهاد الذي يميّز الإنسان عن سائر أنواع الحيوان، فتعالت الدعوات لاعتزال الدنيا والبحث عن وسطاء بين الله وعباده لديهم قدرات خارقة وطلاسم لا يفهمها أحد، بل ليس من حقه أن يسأل عن معناها ومبناها، فذلك كفر ومروق لا يغتفر.

3. إسلام البرهان حاضن العلم والعرفان

تُسمى تلك التيارات التخريبية التي هوت بالأمة العربية والإسلامية إلى الحضيض بالباطنية والدهرية ويوصف أتباعها بالزندقة والمروق، أحيانا بالمعنى الديني، وأحيانا أخرى بالمعنى السياسي، حتى نهاية العهد العباسي الثاني في القرن الثالث الهجري.

لقد تأسس الإيمان في الإسلام على البرهان وكان ذلك هو الدافع لانتشار حلقات البحث في علوم "الأوائل" وظهور مدارس عكفت على تمحيص آراء طاليس وهيروقلطيس وأناكساغوراس وفيثاغورس وأرسطو الذي حظي أرغانونه (منطق) وطبيعياته بعناية كبيرة واحتل في الأدبيات الفلسفية الإسلامية مرتبة المعلم الأول، كما حمل أفلاطون (أفلاطون الإلهي في الفلسفة الإسلامية) لقب "الشيخ" وكما ازدهر التشريع للدين (الفقه وأصوله) والبحث في إعجاز القرآن، فقد تحقق تقدم كبير في تقنين اللغة والبيان، وتمّ اكتشاف قوانين لفنّ الشعر (علم العروض) وفقه اللغة وأسرار البلاغة والمعجمية، وبدأ التيار التجريبي خطواته الجسورة باستقراء الجزئيات للوصول إلى الكليات أي وضع القوانين بالملاحظة والاستقراء واختبار الظواهر المشاهدة في الطبيعة وفصلها عما وراء الطبيعة (الميتافيزقا)، التي اعتبروها مدخلا للدهرية التي لا تعترف بالخلق: لا شيء يفنى ولا شيء يوجد من عدم (EX-Nihilo Nihil).

صدر في تلك الفترة كثير من المؤلفات التي تحمل عنوان "مفتاح" و"الأصول" وتعني البحث الأساسي أو التنظيري، وقد أجمل أبو يعقوب الورجلاني (من ورقلة الجزائرية 1174 م) تلك المنهجية في التعبير الرائع التالي: تتمثل المعرفة في: "حسّ مطبوع وعقل مجموع وشرع مسموع" وأظهر العلماء تواضعا كبيرًا فهم يرون أن في كل مسألة (من غير قواعد عقيدة التوحيد) أكثر من قول، أي أنه من المحتمل أن يكون في القضية الواحدة عدّة آراء تزيد من المعرفة بها ولا تنقصها، وأن ما توصل إليه العقل البشري ليس كل الحقيقة، وإنما هو جزء منها، وهذا ما

تعنيه أيضا جملة "والله أعلم" التي تبدأ بها وتنتهي إليها كتابات الفلاسفة والعلماء المسلمين، وقد أعطى البعض لهذه الجملة خطأ معنى العجز وإحالة كل شيء على علاّم الغيوب.

تتضح مقولة الورجلاني السابقة على ضوء المقارنة التي يعقدها الفخر الرازي بين ثلاثة من أعلام علوم القرآن وعلوم البيان وعلوم البرهان هم الإمام الشافعي، والخليل بن أحمد الفراهيدي وأرسطو، يقول الرازي: "وأعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطاليس إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل إلى علم العروض..." لقد وضع أولئك المؤسسون الثلاثة وتلاميذهم قواعد المنظومة المعرفية وأنجزوا بمقياس زمانهم الأساس التجريبي للمعرفة (حسّ مطبوع) واستنتاج القوانين (عقل مجموع) والمرجعيّة التنظيمية والأخلاقية (شرع مسموع)، أو الدستور الذي يحتكم إليه الجميع.

4. حرّية الفكر والإنسان وجواسيس السلطان

قدّم أبوحيان التوحيدي في مؤلفه "الإمتاع والمؤانسة" محاضر جلسات عن المناظرات وحلقات الدرس الشبيهة بمخابر البحث والمجالس العلمية الشبيهة بالأكاديميات الحديثة اشترك فيها فلاسفة وعلماء في المنطق والرياضيات وعلوم الدين وتراجمة من لغات العصر (اليونانية والسوريانية والفارسية...) وفقه اللغة والألسنية وممثلي مذاهب دينية على حافة الإسلام أو على النقيض منه مثل الصابئة والباطنية والدّهرية يتبادلون الرأي ويقارعون الحجة بالحجة، في عواصم يمكن اعتبارها بلغة عصرنا هذا متعددة الأعراق والثقافات (Multicultural Societies)، أشبه "بالخلطة" الأمريكية

(Multing pot) في مجتمع متعدد الألسن والأصول الثقافية بدون تمييز عنصري.

نجد في تسجيلات التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة ما يشبه محاضر جلسات الندوات التي تعقد اليوم، لا يتسع المقام هنا للحديث عن محتواها السوسيولوجي و المعرفي لما كان عليه مجتمع بغداد القرن الرابع الهجري ونكتفي بالملاحظات الأربع التالية:

1. أن هناك علاقة بين التقدم وازدهار المنظومة المعرفية والإبداع وبين قوة الدولة وتحقق الأمن والاستقرار الذي يسمح بالتراكم العلمي، ولا يحدث ذلك دون قدر من أكسجين الحرية التي لا تخيف مراكز السلطة سياسية كانت أم دينية، أو هما معا مجتمعتين، كما حدث ذلك أثناء خلافة المأمون، وقبله عند الخليفة خالد بن يزيد (توفى سنة 85 هـ) الرجل الفذّ والشغوف بالعلم حتّى أنّه فضله على أُبّهة السلطة وصولجان الحكم.

2. لم تشكل الديانتان النصرانية واليهودية أي تهديد حقيقي للدولة والمجتمع الإسلامي في عنفوان قوته أثناء القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وقد كان للنخب المنتمية للطائفتين المذكورتين آنفا، حظوة ومكانة في الدّواوين المدنية والعسكرية، ومقام محترم في مجامع العلم والترجمة بوجه خاص، ويظهر ذلك بوضوح في حلقة الدرس والمناظرة بين أبي بشر متّى بن يونس النصراني والصرافي النحوي واللغوي الشهير بحيث يظهر أبو بشر محاطا بالإجلال والاحترام الكبير من طرف تلاميذه وزملائه.

3. يذكر التوحيدي في محاضره أن من بين رواد تلك المجالس أشخاص يُعّدُون تقارير ويرفعونها لذوي الشأن بهدف الجوسسة ونقل آراء المشاركين في المناظرات ومواقفهم من رجال السلطة ونظام الحكم، يمكن تسميتهم بالبوليس السياسي بتعبير اليوم، من يقول بأن الرقابة والاستخبارات الداخلية من اختراع ستالين (كي.جي.بي) الذي يوصل إلى الكولاغ الرهيب، أو نظام العم سام (إف.بي.آي) وهستريا الماكارتية ومحاكماتها التعسفية والاستبدادية للمتهمين بالأفكار الماركسية وفضائح ووترغيت، هذا ما ظهر، وما خفي في عالمنا نحن يقترب منه أو يساويه.

4. بالإضافة إلى التمجيد الذي خصّ به القرآن السيد المسيح عليه السلام وأمه مريم وتبرئته من عقيدة التثليث، فإن المسيحيين الذين بقوا على دينهم السابق في كل المنطقة لم يتعرضوا للإكراه والإقصاء من المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة المليئة كما يقول الشهرستاني بالملل والنحل، واعتبرتهم الدولة من أهل الذمّة عليهم احترام قوانينها، وعليها حمايتهم وهذا بالضبط ما تنص عليه مواثيق حقوق الإنسان والمواطن في عصرنا الراهن وهو ما حظي به أيضا اليهود على الدوام، وحرموا منه في أوروبا في عصر الأنوار وما بعده.

باستثناء الفترات التي شهدت تدهور الدولة والمجتمع وأصدر فيها حكّام جهلة وأشرار مراسيم لبس "الزنار" (لباس مميز لأهل الذمة) فقد تعايش اليهود والنصارى مع المسلمين في ودّ ووئام، (من الملاحظ أنّ ألمانيا النازية وفرنسا المارشال بيتان فرضتا على اليهود وضع النجمة الصفراء في الميتروبول والمستعمرات ومنها الجزائر التي لم يضطهد أهلها اليهود أبدا)

وكان لليهود بوجه خاص الحق في تشييد الصومعات والتجمع في أحياء خاصّة بهم كما هو الشأن بين المسلمين الذين يتجمعون إلى اليوم في مناطق بسبب وشائج القرابة أو الانتماء إلى ثقافة فرعية (Subculture)، يضاف إلى ذلك أن اليهود كانوا عصب الحياة الاقتصادية والمالية في البلاد الإسلامية، وهم كذلك على مستوى العالم كله، من الإخوة بوشناقي في جزائر الثلث الأول من القرن 19 إلى آل روتشيليد حتى اليوم.

5. أعراض الانحطاط أو مرض العصر وعلاجه بالداروينية الإجتماعية

هذه لمحة خاطفة عن حركية التقدم وصنع الحداثة في بيئة اجتماعية وسياسية تتصارع فيها قوى تتنافس على التأثير، ولا تخلو من التوظيف السياسي للأفكار والعقائد والآداب، يمكن النظر إليها الآن وفق القضايا التالية:

1. لقد أثارت مسألة الانطفاء (Décline) الثقافي والانحدار (Décadence) الحضاري اهتمام فلاسفة التاريخ والأخلاق والسياسة، واعتبرها مفكرون مثل ابن خلدون وشبنغلر (O.Spengler) وتوينبي (Twenbee).. ضمن دورة حتمية تبدأ بالشروق، وتصعد إلى العنفوان، ثم تتراجع إلى الغروب وتنهار، كما يثبت ذلك تعاقب الصعود والهبوط في العديد من الحضارات التي سادت ثم بادت بمقياس ما بعد عصرها، وأرجعوا ذلك إلى ما سمّوه مرض العصر (Le mal des siècles) أو فسروه بخلفية عنصرية فسبب التخلف والانحطاط في رأيهم هو تدهور الجنس (Dégénérescence)، وهو ما يفسر الخوف من الدمار والفناء الكوني (L' Apocalypse) الواردة في التّوراة والإنجيل وفي القرآن بصورة أخرى

(ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقد لقي فيلم باسم الأبوكاليبس رواجا كبيرا في العقد الماضي وما يزال.

نجد التحذير من تفسّخ الجنس أو العنصر عند كبار المفكرين الألمان من طراز هلدر (Helder)، شينغلر ونيتشه، وفي بريطانيا عند بيكون (F.Bacon) وغودمان (Goodman)... وفي فرنسا عند غوبينو (Gobineau) وريان (Rinan) ودوتوكفيل (De Tocqueville) ... كما استخدم أغلب علماء وفلاسفة وأدباء أروبا عصر الأنوار وما بعده فكرة التفسخ وتحلّل الجسد والروح والعقل عند الجنس الأسفل، ذريعة لتدمير الشعوب المستضعفة واستئصال العرق الأسفل كما حدث في قارة أمريكا وأستراليا... وقام برنامج الاحتلال الفرنسي للجزائر على الإبادة لإنجاح الاستيطان والتخلص من الجنس الأسفل أو ما سمّوه الغبار البشري (La poussière humaine) أي تطبيق الحل النهائي (Solution finale) على كائنات لا قيمة لها ثم تصنيفها في مرتبة الحشرات الضارة، يقول نيتشة (هكذا تكلم زرادشت) إن قتل تلك الكائنات الحقيرة يعتبر خدمة للإنسانية، وهذا ما حدث ويحدث في مناطق من إفريقيا وفي تسعينيات القرن الماضي في البوسنة والهرسك، بإضافة الحقد الصليبي الأرثوذكسي على ما بقي من معالم الإمبراطورية العثمانية، وهو ما عرف باسم التطهير العرقي (Ethnic cleansing).

ومن هذا المنظور ينبغي فهم نظرية أصل الأنواع التي توصّل إليها داروين (ch. Darwin 1809-1882) المعروفة بالتطورية، فإلى جانب خلاصاتها العلمية، هناك ضمنا وصراحة تسلسل من وحيد الخلية غير المرئي

بالعين المجردة إلى القرد إلى الإنسان المتحضر الذي تحصره النرجسية الأوروبية (Eurocentrisme) في الإنسان الأوروبي، السيّد، والوحيد الجدير بالحياة، هذا هو حال العلم إذا خدم الإيديولوجية أو تمّ توظيفه إيديولوجيا للتبرير والتغرير.

وتنطبق نظرية داروين على المجتمعات الأروبية والأمريكية نفسها فالبقاء للأصلح أي الأقوى والأنفع هو كلمة السر والجهر التي يقوم عليها النظام الرأسمالي والمنافسة التي لا ترحم المستضعفين في تلك المجتمعات، إن تلك المنافسة تخدم الأقوى أي الأكثر ثروة وجاها بالوراثة أو بالكفاءة والذكاء، ولعل ذلك ما يفسر أن البلد الرأسمالي الأكثر تمسكا بالدارونية الاجتماعية هو الولايات المتحدة الذي بدأ فيه الاحتجاج العمالي في مدينة شيكاغو وليس في أجندته إحياء ذلك اليوم، فالإنسان جزء من دولاب ضخم يتمثّل في المركب الصناعي الاقتصادي العسكري الداخل فيه مفقود (كانسان) والخارج منه غير موجود (بلا دور ولا مكانة في المجتمع).

2. يعاني التاريخ الثقافي والسياسي للعرب والمسلمين من حالة شاذة نسميها ثقب الأوزون، فبالإضافة إلى كنوز التراث المفقودة في مياه دجلة والفرات والنهب الذي تعرض له نتيجة الاجتياجات المتتالية ليس من بدو التتار والمغول فحسب، بل كذلك على يد جحافل روسيا القيصرية التي دمرت معالم الحضارة ومدن الإشعاع العلمي والثقافي في بخارى وطشقند وسمرقند وخوارزم، أين ازدهر البحث في الرياضيات والفلك وعلوم القرآن والحديث والفلسفة، وانتقلت الثقافة العالمية بفضل نخبة من العلماء الأفذاذ من التداول الشفهي إلى عصر التدوين على أوسع نطاق، وتزايد الاتصال بين شرق وغرب آسيا، وخاصة الهند

والصين وما بينهما، ومن المدهش أن يستعين مؤرخو الهند إلى اليوم بمؤلف أبي الريحان البيروني عما "في الهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

3. حدثت نفس الكارثة في الجناح الغربي من أوطان العرب والمسلمين، فما وقع في الأندلس من جرائم ضد الحضارة والإنسانية على يد الكاثوليكية الانتقامية لم تسجله كاميرات التليفيزيون ولا أقلام المحققين الصحفيين ومنابر جمعيات حقوق الإنسان والهيئات الأممية المختصة: شمل التدمير المادي والمعنوي معاقل المعرفة في بجاية وتلمسان وفاس وتونس وغيرها من محافل المناظرة والتعليم التي كانت في القرن الرابع عشر مع الأسف تتراجع إلى تقديس نصوص السّلف صالحه وطالحه، وتدخل في سبات ثقافي عميق وتفكك سياسي خطير أوصلها إلى التناحر لأتفه الأسباب.

4. لسنا من المختصين في التاريخ ولا سيما في حقبة التاريخ الوسيط، ولكننا نستسمح أهل الرأي في الموضوع في القول بأن هبّة المرابطين لإنقاذ الأندلس والجناح الغربي كله لم تكن أكثر من حقنة مورفين دافعها الحقيقي شهوة السلطة كما يشهد على ذلك ما حدث بمجرد دحر الغزاة من الفرنجة.

ليس في تلك النجدة، أي منظور استراتيجي لمواجهة الخطر الداهم والذي سيمزق بعد حين معقل المرابطين أنفسهم، ويمتد إلى وهران وبجاية لؤلؤتا غرب المتوسط.

ما أشبه تلك الهبّة البدائية على الرغم مما فيها من شجاعة وفروسية بما حدث بعد قرون عندما هبت الجيوش العربية وقياداتها المتخلفة والمترهلة والغارقة في الملذات لإنقاذ فلسطين، وانتهت في بضعة أيام وأسابيع إلى

ما يسمى النكبة، وفي الحقيقة إلى اقتسام أشلاء الضحية بين الدول المجاورة وإسرائيل الجديدة التي كانت وما تزال الرابح الوحيد في "مشاجرات" (لا نقول حروبًا) هزلية تخيّلها سيرفانتس في صورة دونخوت الذي يتفوق على ساسة وقادة من عجين الكارتون بالهمة والنوايا الشجاعة.

5. يمتد عصر الغفلة والظلام والتناحر ما بين 1258 حتى منتصف القرن 19 أي ما يزيد على ستة قرون، هي ثقب الأوزون في أرض وسماء الثقافة والفكر والسياسة عند العرب والمسلمين، وباستثناء صوت الشعراء ومواعظ بعض الأئمة اختفت أغلب وقائع تلك الفترة وما بقي منها لم يخضع إلا في النادر للتحليل والتفسير الثقافي السياسي الذي يربط الأسباب بالنتائج، ويعيد النتائج إلى أسبابها في النسيج الاجتماعي ومسؤولية النخب القيادية سواء كانت في الحكم أم قريبة منه، أو معارضة له في تلك الفترة التي ساد فيها تفسير الحاضر بالماضي جملة وتفصيلا، وكأن الزمن توقف في سديم جامد تتكّرر فيه الأيام والسنون بل العقود والقرون بصورة طبق الأصل، بعد أن ضيّعت الدولة والمجتمع ذلك الأصل المتمثل أساسا في القرآن وبيانه واكتشاف الكون ونظامه.

ليست مشكلة العالم العربي والإسلامي في دولة الدين أودين الدولة، إنها فيما نرى إحالة شؤون الدين على الدولة وإلقاء شؤون الدولة على عائق الدين، وكأن الدين حقيبة مفتوحة تبرر العجز والتقصير والقصور، وكأن الدولة كيان منفصل عن المجتمع الذي تسوسه وبإمكانها إصدار مراسيم لتجريد الناس من عقائدهم، لا يوجد أي مجتمع بلا دين أو إيديولوجية تعوضه أو تزاحمه في مجاله، ولنتساءل ما هي حصيلة تيارات

الماركسية والوضعية المنطقية والوضعنة (Positivisme) بوجه عام؟ وإلى أين توصل تيار العلمنة (Scientisme) الإلحادية في الغرب والشرق الاشتراكي؟

الحصيلة واضحة للعيان: البابوية في الفاتيكان وفي كانتبري (بريطانيا) وفي سان بيترسبيرغ (روسيا) أقوى مما كانت عليه في منتصف القرن الماضي، ويحتشد في ساحاتها مئات الآلاف من الشباب ينامون في العراء لإلقاء نظرة على قبعة البابا وعصاه، لقد حل الغرب إشكالية العلاقة بالدين ومؤسساته على النحو التالي:

– تكوين تآلف دائم بين القوة الصناعية والعلمية تقودها العقلانية والنفعية المادية والموضوعية في بعدها الماركنتيلي (التجاري) في هذا التآلف يعمل الدين كشريك للدولة، وليس ضدها أو كقوة موازية ومستقلة عنها، كما يبدو في الظاهر.

6. على العكس من بلدان استعادت إرادتها في المشاركة في حضارة العصر والتطلّع لموقع محترم في التاريخ الإنساني مثل الصين وعدد من شعوب شرقي آسيا، فإن معظم العرب والمسلمين تخلّوا عن أجندة تاريخهم الذي ينسبون إليه طوعا أو كرها فالقليل يعرف ما هي السنة الهجرية الآن؟ وما هو الشهر إذا لم يكن رمضان أو ذي الحجّة؟ وما زلنا نقرأ في كتابات بعض المفكرين ونسمع ونرى في وسائط الإعلام، أن هناك من ينتظر منذ سقوط غرناطة (1492) انهيار الحضارة الغربية من الداخل بواسطة طوفان، زمن نوح عليه السلام أو نزول لعنة (دَعْوُوسٌو) على الكفرة الفجرة، ولا يخفى ما في هذا اللاّعقل من نظرة سحرية وانتظار للخوارق والمعجزات التي أبطلها الإسلام، واستنكر انتظارها والاعتماد عليها، لقد خرج الغرب أقوى من الصراعات التي

تخللت القرن الماضي سواء كدول منفردة أم مجموعات متحالفة، وتفرّغ منذ منتصف القرن الماضي لتعميق وتسريع تفوقه الاستراتيجي على العالم كله وفق منظور ف.بيكون (1622–1861) المعرفة قوة (Knowledge is power).

6. هل كان العلماء المسلمون مجرّد حرّاس لمكتبات الأوّلين

قبل أن تلفظ الخلافة العثمانية آخر أنفاسها كان الغرب الأوروبي والأمريكي قد أخذ للحياة سلاحها (وهو ما أوصى به ابن باديس شباب الجزائر والمسلمين عامة)، لم يكن ذلك السلاح هو البترول أو عدد السكان ومساحة البلدان التي تشكّله، بل كان قوافل من العلماء والفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين والدينيين نذكر منهم على سبيل المثال غاليليو (1564–1642)، وكوبيرنيكوس (1473–1543) وكبلر (1571–1630)، نيوتن (1642–1727) الذين استوعبوا فكر الحسن بن الهيثم وابن النفيس وابن رشد وابن خلدون وآلاف غيرهم الذين لم يكونوا أبدا مجرّد جسر عبرت عليه فلسفة اليونان وحكمة الشرق، كما روّج لذلك بعض المستشرقين وبعض الخلف من المنطقة، وذلك على أي حال رأيهم، إن الشذرات الباقية من أعمالهم تؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية قد أضافت الكثير إلى التراث الإنساني، وأن المفكرين والمبدعين فيها لم يكونوا أبدا مجرّد تراجمة وحراس أبواب (concierges) مكتبات أثينا وحرّان والإسكندرية ورودس وملطيه، لقد ظلم العرب والمسلمون أنفسهم بالغفلة والتناحر فظلمهم غيرهم بالاستضعاف والنكران.

من ذلك التراكم المعرفي الثمين انطلق روّاد النهضة الأوروبية المتصاعدة بلا توقف وفي المقدمة علماء من أعلى طراز نذكر منهم:

- نيكولاس كوبيرنيكوس (1543–1473)
- جاليليو (1642–1564)
- يوهان كبلر (1630–1571)
- إسحاق نيوتن (1727–1642)
- توماس هوبز T.Hobbs (1813–1650)
- جون لوك J.Lock (1704–1632)
- رونيه ديكارت R.Descarts (1650–1596)
- كلود بيرنار C.Bernard (1878–1813)

هل تصنع كل الثقافات أدواتها الفكرية؟ وهل كانت المعرفة وراء كل إمبراطورية؟ إذا رجعنا إلى مدونات التاريخ نجد أنفسنا أمام مفارقة مؤداها: أن التلازم بين النهضة والتقدم العلمي ليس حالة ثابتة ومطرّدة في كل الإمبراطوريات ونترك للأستاذ ج–م لوبلان (J.M. Leblond) الإجابة التي نقتبسها من دراسته القيمة عن عالمية العلم (Le monde diplo Av.2006) :

"لقد وُجدت حضارات قويّة لم تتميز بأيّة نشاطات علمية أو تطبيقات تقنية هامة، ولم يمنعها ذلك من الازدهار وبسط نفوذها الإمبراطوري الكبير، وتقدم لنا روما الدليل على ذلك، فإذا كان بالإمكان أن نذكر عددا كبيرا جدا من العلماء الإغريق مثل فيتاغورس وإقليدس وطاليس وأرخميدس وآخرين، فإنه من الصعب العثور على أسماء رومانية قدمت اكتشافات علمية تذكر،

هناك الفيزيائي بلين (Pline) والمعماري فيتروف (Vitrov) والخبير الزراعي كولومال (columelle)، ماذا بعد؟ ليس الكثير!"

لقد أخذ الرومان من الإغريق بعد أن هزموهم عسكريا فاستعانوا بعلمهم وفلسفتهم وأخذوا عنهم فنون النّحت والعمارة، إلا أنهم فشلوا في المحافظة عليها وتطويرها وهو ما لم يمنعهم على أيّ حال من فرض سيادتهم على أجزاء كبيرة من أروبا وحوض المتوسط**!**"

لقد أضاف العلماء العرب والمسلمون تراثا كثيرا إلى علم "الأوائل" وفنونهم وآدابهم، أنكر من أنكر واعترف من اعترف، وفي كلتا الحالتين فإن المعرفة التي أنتجها العرب والمسلمون في تلك الحقبة من التاريخ وما توصل إليه العقل والحدس والإبداع في القرون التالية هو حلقات في التراكم الحضاري وأقرب إلى تاريخ المعرفة وفصول من موسوعة الإبداع الإنساني المتواصل والمتجدد وليس المعرفة والإبداع كما هو الآن.

إن ذلك التراث يتطلب في كل حقبة من التاريخ مزيدا من التجاوز في الأشكال والمضامين، في الموضوع والمنهج، فلكل جيل زمنه التاريخي والحضاري، ولكي يترك بصماته ويُوقّع حضوره في سجلاته، فإنه لا يكفي أن يتعيّش على التركة التي خّلفها آباؤه وأجداده.

لن نشغل أنفسنا كثيرا ولا قليلا في هذا المقام بحصيلة ما تحقق من تقدم لما يُسمى النهضة، فقد خاض فيها الكثيرون تحت عناوين عديدة مثل التأصيل والتحديث، واليقظة والتغيير والتجديد، والإسلام هو الحل، والثابت والمتُحوّل إلخ... لأن النهضة ليست علامات تقدير (ممتاز–حسن–ضعيف)

توضع في الدفتر المدرسي للتلاميذ، وحفلات تكريم توزّع فيها الأوسمة والحلويات ويغلب عليها تبادل المجاملات، ثم يُنْسى كل شيء في انتظار موسم جديد للعلاقات العامة.

إنها عقد شراكة كما يقول (م. فيبر) ثلاثي الأطراف بين النخب والدولة والمجتمع يخطط وينجز وفق رؤية حضارية للموقع الذي يطمحون إليه في الأمد المنظور وعلى المدى الطويل.

بدل ذلك لننظر في حصاد الأطراف المتجاورة في المنطقة العربية والإسلامية المفككة والغارقة في ظلمات الفساد والإفساد وهزال الإرادة على مستوى الأمة والكيانات التي تنتمي إليها تاريخا وحضارة.

إن بارقة الأمل الواعد، ولا أقول الوحيد، هي حرب التحرير الجزائرية التي يمثل الكفاح المسلح جانبا من نظريتها الثورية، وليس كل منظورها لعلاقة الفرد بنفسه وبالجماعة وبالوطن والأمة ولأهمية التحالف بين المقهورين في كل أنحاء العالم.

بقيت أصول النظرية الثورية الجزائرية صادقة وصحيحة ولكن منهجية العمل النهضوي وثقل الآخر الحاضر الغائب (فرنسا الكولونيالية) في صورة السيد الذي لا غناء عنه، وصورة الجلاد الكريه في آن واحد، أدّى ذلك إلى إهدار القبس النوراني وحوّله إلى تلفيقيّة يتغلّب فيها التكتيك والمؤقّت على الاستراتيجية والحزم والعزم.

تناقض وازدواج (Ambivalence) في الانتماء الفكري والثقافي، بين ثقافة تقليدية لا ترضي شرائح من النخبة والمجتمع ويرى الكثير من أفرادها

أنها أدت وظيفتها باعتبار أنها كانت ذخيرة حية للمقاومة ومرجعية لفصيلين هامين من فصائل الحركة الوطنيّة، (حزب الشعب وجمعيّة العلماء) ولم تتنكر لها أغلب الفصائل الأخرى الأكثر تأثرا بأدبيات فرنسا ثورة البورجوازية على الملكية والإقطاع نهاية القرن 17، وبين ثقافة أخرى حديثة ومتطورة رأوها فقط عند سيد الأمس، ولم يروها عند غيره مما أعطاها تأثيرا وجاذبية قوية تُذكر دائما بقوته وتفوقّه، وقد خصّص ألبير ميميّ (A.Memmi) دراستين لهذا التناقض كما يبدو في الجزائر بوجه خاص، الأولى بعنوان صورة المستعمر (بفتح الميم) 1987 (Portrait du colonisé) والثانية بعنوان الوطن الأدبي للمستعمر 1999 (La patrie littéraire du colonisé)، فضلا عن الصراعات والتجاذبات بين الزعامات وخوصصة النظرية الثورية وهي تراث الشعب الجزائري كله، ومحاولة اقتسام ريعها وأمجادها بين العشائر والبطون والأصول والفروع. أوصل كل ذلك، وليس الأيادي الخفية وحدها الجزائر إلى فتنة التسعينيات التي لم تحظ لحد الآن بما تتطلبه من دراسة تاريخية اجتماعية وثقافية سياسية، فلن تستفيد بلادنا شيئا من الأوصاف التي تطلق عليها وتصنيف الجزائريين إلى ضد ومع هذا أو ذاك.

7. القوميون وأنصار الخلافة : من الغفلة إلى الخيبة

نعود بعد هذه الفاصلة إلى التقاط صورة أرضية لتفاعلات التخلف والغفلة والاستضعاف في منطقة منغلقة من الداخل ومفتاح أبوابها في الخارج، فقد عجز العرب والمسلمون طيلة القرن العشرين عن إنجاب حركات وتيارات عميقة التأثير وذات نفس طويل تنشر الحرية وتجمع بين

التنمية والتحديث الذي انطلق قطاره في الغرب بسرعات متزايدة منذ منتصف القرن 15 وإلى اليوم.

في مقابل دعاة النهضة والمبشرين بها ارتأى فريق آخر أن العالم العربي والإسلامي أخطأ الطريق وانجذب أكثر نحو الانحطاط منذ انهيار الخلافة العثمانية واقتحمت سنابك خيل التحالف الغربي استطنبول (في تعبير توينبي في مؤلفه "حرب وحضارة") واستلام الثنائي البريطاني الفرنسي خريطة المنطقة وتقسيمها بتنافس وشراهة بين راية "يونيون دجاك" الانكليزي وثلاثي الألوان الفرنسي.

قبل ذلك كان لانتقال مركز الخلافة من بغداد- القاهرة إلى الأستانة أي إلى حضن الأتراك، وقد كانوا في الحكم (السلاجقة) باسم السلطة الشكلية لخليفة أصبح أقرب إلى موظف بسيط بلا نفوذ ولا رأي حتى في بيته الخاص، أدى ذلك الانتقال إلى إحساس مكتوم بالمهانة بين نخب المشرق لم يتجاسروا في البداية على الجهر به فالأتراك مسلمون وجيشوا جحافل وصلت إلى أسوار فيينا وأخضعوا لراية محمد الفاتح كل البلقان وجزءا من وسط وشرق أروبا.

في الجناح الغربي لم تعتبر النخب والشعوب الوجود التركي احتلالا، وكانت تثور وتتمرد على ظلم الحكام سواء أكانوا أتراكا أم بربرا أم عربا، أي أن الاعتراض كان على الظلم، وليس على أصل الحاكم (الجنسية أمر مرتبط بالدولة الوطنية) فهي في نظرهم إسلامية، وكفى، فلم تكن القومية بمدلولها المشرقي معروفة، أولها أتباع ومريدون خلال القرن 19 في الجزائر

بوجه خاص، ولذلك ارتبط الكفاح من أجل الحرية بالدفاع عن العقيدة الإسلامية باعتبارها القوّة الروحية الباقية والمحرّك الأساسي للتعبئة والتضحية من أجل الوطن.

في نهاية ذلك القرن أدرك بعض المثقفين في المشرق، أن الباب العالي آيل لا محالة إلى السقوط، وأن الزحف الأوروبي على الأبواب، فارتأى فريق منهم أن طريق الخلاص هو الإحياء الإسلامي وإعادة بناء خلافة إسلامية حققت بالفعل وحدة غير معلنة لمنطقة مترامية الأطراف يتنقل فيها الناس بحرية وبشعور عام بأنهم في دار الإسلام، أو تحت رعاية العهد والذمة إذا كانوا من سكانها اليهود والمسيحيين.

بقي مشروع الخلافة مطلبا عاما يسعى إليه البعض ويعترض عليه البعض الآخر، وقد سال كثير من الحبر والدماء من أجل المسعى أو بسبب الاعتراض عليه، من أقصى بلاد المسلمين إلى أدناها دون أن تموت الفكرة أو ينتصر المعترضون، وهكذا أصبح المشروع ومحاولات إجهاضه جزءا من المأزق والمشكلة وليس من الحل.

اتجه الفريق الثاني إلى فكرة القومية العربية التي كانت في بداياتها الجنينية تشمل المنطقة العربية كلها، قبل أن تتقلص عمليا إلى ما يسمى بالقطرية، وينتهي إلى الانشقاقات الايديولوجية وما تبعها وسبقها من انقلابات باسم النهضة والقومية، وبعد 1948 أُضيف للبيانات الانقلابية العبثية تحرير فلسطين.

الخطوة الأولى في برنامج الجماعات القومية هي التحرر من الأتراك العثمانيين، ولذلك لا يمكن أن تتضمن تلك الخطوة مرجعية إسلامية فالأتراك مسلمون، بل هم في تلك الفترة المركز الرمزي أو الفعلي للمسلمين والكعبة تحت حمايتهم، ومن هنا أتخذ ذلك الفريق توجها علمانيا وجمع في صفوفه مسلمين ومسحيين، وكانت اللغة العربية والتاريخ العربي ابتداء من العهد الجاهلي من بين الموضوعات التي تمّ إبرازها وتمجيدها بمسحة رومانسية وبلاغية واضحة.

وقد خصص الباحث العراقي "د.جواد علي" 10 مجلدات ضخمة تحت عنوان المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1973، وخصص ساطع الحصري كتابات كثيرة لفكرة القومية العربية، وجعل الضباط الأحرار في مصر الوحدة العربية أحد الأهداف الأساسية في سياسة بلدهم الذي حمل اسم الجمهورية العربية المتحدة (1958) لحوالي ثلاث سنوات مع سوريا، وقد رجع هذا المشروع بعد أقل من عقد واحد (1967) إلى نقطة الصفر، بعد كارثة الحرب الخاطفة التي كشفت عن الفرق الشاسع بين خطاب التحدي لإسرائيل من جهة، والاستعداد الحقيقي لمواجهتها على مستوى المجتمع ومؤسساته السياسية ونخبه المدنية والعسكرية من جهة أخرى.

كان الثنائي البريطاني الفرنسي المتربص بالرجل المريض والمنطقة كلها يتصيد الفرص، ويبحث عن الرديف، وسرعان ما وجد في مطلب الاستقلال الذي رفعه القوميون المنفذ والأداة للانقضاض على المنطقة وتقطيعها إلى أشلاء متناثرة، كان المقابل مجردّ إغراء بإنشاء الدولة العربية الكبرى إذا ساعد العرب على إسقاط العثمانيين وطردهم من المنطقة.

لم يكن ذلك الوعد سوى سراب وخداع، ففي نفس المدة صدر وعد صريح من رئيس الحكومة البريطانية حمل اسمه وعرف بوعد بلفور، يقضي بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، لم يعّد أحد العدّة لمقاومته وأبطاله في المهد، وكالعادة صدرت أصوات استنكار ومقالات تذكر بأبطال من عمر بن الخطاب الذي دخل القدس بتواضع وشهامة واحترام لكل الديانات إلى صلاح الدين القائد الرمز في الذاكرة الجماعية لأهل المنطقة مشرقا ومغربا.

تغذّت الخيبة والإحباط من خزان الذكريات، ولكن الواقع كذّب الأحلام وفشلت المنطقة كلها في طرق باب العالم المعاصر وتواصل ذلك الفشل واتخذ أسماء مترادفة مثل الخيبة والمرارة والنكبة والنكسة إلخ... أصبحت على لسان الشعراء والأدباء حائط المبكى وقاموس المرثيات التي لا تعد ولا تحصى.

ذهب حلم القوميين أدراج الرياح، فسرعان ما تم ترسيم الحدود وقيام هياكل الدولة الأمة تحت الحماية البريطانية والفرنسية، وتقدم مصر العشرينيات والثلاثينيات نموذجا لتصّور النخبة الفكرية والسياسية لآلية التحديث ومنطلقاته كما قام بها سعد زغلول (التحديث السياسي) وطلعت حرب (التحديث الاقتصادي) وطه حسين (التحديث التربوي والثقافي) وتعود بنا الذاكرة إلى إحدى مقولاته التي تبنتها أجيال في المشرق والمغرب ومؤداها: الغرب والشرق غصنان من شجرة واحدة تعّطل نمو الغصن الشرقي نتيجة الاحتلال الأجنبي (التركي–البريطاني)، وبالإمكان أن يلتقيا، وربما كان ذلك ردّا على من يقول الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

8. الإجهاض السافر للنهضة: الحالتان المصرية والجزائرية

إذا كان العرب لم يحصلوا على شيء فإن وعد بلفور بالنسبة لليهود كان أمرا مقضيا، فقد ولدت إسرائيل منذ البداية دولة قومية دينيّة وفي أحضان كل القوى الكبرى واكتفت دول الجوار بما يسمى التقسيم أي ضمّ أجزاء من جثة فلسطين القديمة، وكأن ذلك خدمة للقضية وهو في الحقيقة تغطية لإفلاس سياسي عسكري لنخب ومجتمعات تعيش خارج عصرها.

برّأ الأوروبيون ذمتهم من اضطهاد اليهود وعوضوهم بأرض خارج قارتهم واتهمت أبرز شخصية فلسطينية (الحاج أمين الحسيني) بالتواطؤ مع النازي، ولم يعبأ أحد بحوالي 800,000 من الفلسطينيين الذين شردوا في أصقاع المعمورة ومخيمات اللجوء في المنطقة، بعد ذبح الآلاف منهم، ولكن التعاطف والأموال تدفقت على اليهود ضحايا الهولوكوست الذي ليس للعرب والمسلمين فيه يد، بل كانت بلادهم ملجأهم وملاذهم الآمن.

هكذا بدأ القرن العشرون ببشائر نهضة، ووصل في منتصفه إلى نذر نكبة.

لا نزعم التأريخ لقرن الأحلام الضائعة في ضباب دخان الشيشة (النارجيلة) وأصوات البيانات التي يتجشأ بها عقداء للإعلان (رقم كذا) عن انتصار الانقلاب وبزوغ فجر الثورة وهزيمة الرجعية والعملاء الحقيقيين والوهميين والتبشير بالفجر الجديد للأمة العربية والإسلامية تبدأ تلك البيانات عادة بعبارة: "أيها الشعب العظيم..يا جماهير أمتنا من الخليج إلى المحيط...! وتنتهي بكلمات: أمة مجيدة ذات رسالة خالدة ".!

إن هدفنا كما أشرنا في بداية هذه السطور هو الاقتراب من إجابة عن التساؤل الأول : كيف تقدموا؟ ولماذا تأخرنا ؟.

على أي حال لقد كان للكارثة الثانية المتمثلة في تقتيل وتهجير نسبة كبيرة من أهل فلسطين بعد الكارثة الأولى في نهاية القرن 15 التي حدثت بنفس الصورة تقريبا في الأندلس ولم يكن لها صدى خارج الحزن والأسى في أوساط شعوب أوكلت أمرها إلى الله في انتظار الفرج، أما القيادات الأميرية فأغلبها كان مشغولا بحراسة الكرسي واستخلاص الضرائب بحد السيف وفضّ الشجار بين أنظمة قبلية بالاقتتال العبثي.

كان للكارثة الثانية أثر زلزالي تبعته سلسلة من الانقلابات مسّت خلال عقد واحد (1948–1958) معظم المشرق بما فيه بلاد اليمن السعيد ونظامه الإمامي المستمد من رفات المقابر الأثرية وعروش أخرى قريبة منه جغرافيا وتنتمي إلى آل عبد المطلب أو سلالة معاوية بن أبي سفيان القرشي.

من بين تلك الهزات الزلزالية تبرز محاولة مصر جمال عبد الناصر وخاصة ما بين 1954–1962 التي يمكن اعتبارها من أهم المحاولات للحاق بركب العالم المعاصر، وتنشيط فكرة الوحدة العربية خطابيا على الأقل، وهي في رأينا محاولة محدودة الأثر بسبب اصطدامها بواقع الأمة–الدولة وعدم وضوح ما يرجع إلى الخصوصية ومسارها التاريخي والمشترك، وما يتجاوز العواطف إلى المصالح المشتركة الدائمة.

وصفنا التجربة الناصرية بالمحاولة التحديثية الأهم في عقد الخمسينيّات وهي بالفعل خطوة متميزة مقارنة بما كان حولها في منطقة المشرق فقد تمكنت خلال عشرية واحدة من:

– الإطاحة بالنظام الملكي الفاسد وإبعاد حاشيته الطفيلية

– استعادة السيادة على ترابها الوطني وشريانه الحيوي – المتمثل في قناة السويس التي كانت مسمار جحا للوصاية البريطانية.

– تأميم الثروة الوطنية ومحاولة إعادة توزيعها على الفئات المحرومة.

– ظهور بوادر طبقة وسطى من خريجي الجامعات المتكونين داخل البلاد وخارجها، ساهمت نخبها في حركة التأليف والترجمة ونشر أو تبسيط (Vulgarisation) المنتوج الفكري والآداب والفنون.

– إصلاح نظام التربية والتكوين.

– خطاب التحدي لرفع الروح المعنوية (إرفع رأسك يا أخي).

– أما الديموقراطية فقد اعتبرتها الناصرية مثل التجارب الأخرى التي توصف بالتقدمية اهتماما برجوازيا تستخدمها الرجعية المحلية ومحركوها في المنطقة والعالم لتخريب وإسقاط التجربة الثورية.

لا شك أن عبد الناصر ورفاقه حاولوا التقرب من أمريكا حتى رفضت التعاون لبناء السّد العالي، ولم يدركوا جميعا في تلك الآونة أن واشنطن كانت متحالفة مع أنظمة عربية أخرى في عقد غير معلن فتلك الأنظمة تضمن مصالحها الحيوية (النفط) وتضمن هي بقاءها، ولا أهمية في هذا العقد لمسألة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، فسوف يتبين أكثر في نهاية القرن أنها مجرّد ذرائع وقواقع فارغة وتضليل عن المقصود والهدف الحقيقي وهو الهيمنة على مقدرات المنطقة على الأمد الطويل.

استعملت الولايات المتحدة ما أصبح يسمى الأصولية والسلفية "القشورية أو الجهادية منها"، بوجه خاص لمحاصرة وضرب التوجهات التقدميّة في المنطقة

مشرقا ومغربا، فكانت بعض البلدان ومنها الجزائر حتى عقد الثمانينات أشبه بالقلاع المطوّقة بالعداء والتحرش والتشويه فقد تمّ تأويل دفاعها عن مصالح شعوبها وعدم انحيازها للمعسكرين المتصارعين على النفوذ (التكتل الاشتراكي بقيادة السوفيات والتكتل الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة)، انحيازا لموسكو وجسرا للشيوعية الإلحادية.

الحقيقة أن سبب المحاصرة لم يكن أبدا الخطر الشيوعي فقد تم حلّ الأحزاب ذات التوجّه الماركسي في تلك البلدان الموصوفة بالتقدمية ودخل عدد منها كهوف السرّية، وفرّ الباقون على قيد الحياة إلى موسكو وبراغ وبعض بلاد الغرب، ويمكن الجزم بأن الأحزاب الشيوعية في بلدان غرب أوروبا الحليفة لواشنطن أقوى تأثيرا في مجتمعاتها وعلى علاقة بموسكو أو بيكين ولم تطالب أمريكا أبدا بحلها وملاحقة قادتها، بدون أن تسمح طبعا بوصولها إلى أعلى مراكز القرار السياسي في الدولة (حالة أقوى الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وفرنسا التي وُضع لها سقف لا تتجاوزه في أي انتخابات).

تلقت المحاولة التحديثية ضربة قاضية سنة 1967 بهزيمة مصر العسكرية الخاطفة والمذلّة، كما أشرنا في الفقرات السابقة، وبداية تطبيق شعار التلفيقيين في الجزائر أولئك الذين قضوا ردحا من الزمن في الحج والعمرة بين باريس وواشنطن، ولا ندري هل كانوا يجتهدون في المراجعة أم كانوا يتلقون تعليمات من وراء البحر والمحيط ؟! ولم تكن حصيلتهم لا مراجعة ولا تراجع بل أوصلت الجزائر إلى حافة الانهيار دولة ومجتمعا في أكتوبر من سنة 1988.

اهتمت دراسات قليلة بجوهر الأزمة والمعالجات التي أعقبتها من نهاية 1988 إلى 1991، وانقسمت البقية إلى خصوم جبهة التحرير، أو حزب السلطة الذي أدانوه وسعى بعضهم لتصفية تراثه منذ تأسيسه سنة 1954 باستخدام نفس التهم التي ألصقتها به إدارة العدوّ الكولونيالي قبل 1962 وتجادل آخرون حول التسمية هل أن أحداث 1988 هي زلزال؟ أم هي انتفاضة؟ أم هي ثورة على الثورة؟ أم للعودة إلى مبادئ الثورة؟ أم هي مسؤولية فلان وأتباعه؟ أم هي انتفاضة عفويّة احتاجت فقط لشرارة لينفجر بركان الغضب المكتوم؟

تغلبت في نهاية المطاف مساجلات الاتهام والاتهام المضاد، وغابت النخبة العالمة والمفكرة وتوزعت على الفرقاء السابقين، وعبّر البعض منها عن وجهة نظر خارج الحدود، وأضافوا ربما عن غير قصد معلومات أخرى لتقارير السفارات والمراقبين المتواجدين وراء الستار في جزائر العمق والسطح، لماذا لا يعرف أحد بالتدقيق ما حدث في ذلك الأسبوع من أكتوبر 1988؟

لا نقصد أجهزة الأمن بمختلف فروعه واختصاصاته، وإنما جمهور الناس الذين بقوا لسنوات يتخاطفون الصحف الفرنسية التي استفادت من الفراغ والمشاجرات اللفظية فأصبحت أقاويلها وتفسيراتها حقائق يتبادلها الناس عن قناعة وإعجاب !

جوابنا باختصار هو أن فكر السلطة ينبغي أن يتسع أيضا لفكر الدولة وفكر المجتمع فإذا كان من حق السلطة أن تدافع عن أطروحاتها، فإنها

تبقى سلطة مرحلة، أما الدولة والمجتمع فهما باقيان وإن تغيرت الحكومات والدساتير وتطورت الثقافة والعلاقات بالمحيط الجهوي والدولي.

هكذا خرجت المنطقة للمرة الثالثة من توطين الحداثة وتحقيق حدّ أدنى من الحضور الفاعل في تقرير شؤونها وإسماع صوتها في العالم، فقد خمدت الموجة الناصرية بوفاة زعيمها، كما طُويت صفحة التوجهات البومدينية قبل أن تصل إلى أية خلاصة بوفاة محركها الأول، بكل ما في التجربتين من أخطاء وإيجابيات.

حققت أمريكا بواسطة حلفائها في المنطقة اكتساحا جارفا فقد وجهت مداخيل البترول الضخمة في منطقة متخلفة في كل شيء باستثناء الهياكل المادية إلى إعادة نشر الدعوة الإسلامية وفق واحد من المذاهب الإسلامية ليس أهمها ولا أقلها شأنا، هو مذهب لا غير، فتدفقت الأموال على مجاهدين يقادون بواسطة التخدير الإيديولوجي والإحساس بما يعانيه المسلمون من اضطهاد في شتى أنحاء العالم بما فيه بلدانهم المحرومة من حرية التعبير والإبعاد التعسفي عن المشاركة في نظام الحكم والتوزيع العادل للثروة.

تواصلت الغفلة والبحث عن الحلول المريحة عن طريق لوائح الهجاء وشتم إسرائيل وأمريكا وتغلّب في النهاية الفريق المدجّن أو الذي كان متخفيا، ولم يكن في حاجة لتسليم مفاتيح الحل والعقد لأمريكا سوى لعبور سنة 1973 الذي سرعان ما تحول إلى شبه انتصار، وفي الختام هزيمة وطلب استغاثة لإنقاذ نظام، وجيش كان على وشك الموت جوعا وعطشا! أصبحت لذلك العبور أعياد لا نقلل من

شأنها، ولكنها الهزيمة الثالثة في ربع قرن، وغطى العبور على أي تساؤل ونقد شجاع للذات والدولة والمجتمع.

ظهرت خلال تلك الفترة (1967–1977) مصطلحات وشعارات ومشاريع للإنقاذ والإصلاح القليل منها تحرك ذاتيا والأغلبية كانت حلقة في شبكة رأسها في واشنطن وجيبها في بلدان الخليج والأهم هو العقل المدبر والمبرمج وراء المحيط فأُهدرت أموال وأرواح وسالت دماء على جبهات وهمية اختلط فيها الحق بالباطل، وكان الكل في صف الخاسرين أدركوا أو لم يدركوا بأن إدارة المعركة موجودة خارج المنطقة كلها.

بعد ذلك التاريخ اطمأن الغرب وفي مقدمته أمريكا إلى أن إسلام البترول ومذهبه الخاص في فهم الشريعة قد أدى دوره وحقق الغرض منه وهذا ما يقوله علنا المختصون الأمريكيون في الإستراتيجية والمسؤولون عن السياسات الأمريكية في المنطقة.

9. الإجهاض الثالث وحرب المغفلين في الخليج

لم تستمر نشوة النصر الأمريكي طويلا فبعد سنتين فقط اندلعت الثورة الإسلامية في إيران وتبيّن أنه بالإمكان بروز إسلام آخر غير موال لأمريكا في المنطقة وفي الخليج بالذات، فقد واجهت القوّة العظمى –أمريكا– إذلالا لا يقل عما لحق بها في فيتنام، فتمّ احتجاز العشرات من الدبلوماسيين والعسكريين ومسؤولي المخابرات من طرف رجال حراس الثورة (الباسدران) ورفع لواء فلسطين على مقرّ سفارة إسرائيل التي كان لها مقام كبير في عرش الطاووس وتعاون مهم مع جهاز السافاك الرهيب.

غير أن الإستراتيجية الأمريكية كانت تتوفر على بدائل جاهزة للتفعيل فقد تحركت خزينة البترودولار لمواجهة الخطر القادم من "فارس" وانساق العراق لحسابات خاصة بقيادته الانفرادية وبتحريض مكشوف من التكتل الغربي إلى إشعال فتيل حرب تدميرية بين إيديولوجيّة قومية كانت حذرة من التحالف المعلن مع الغرب بعد الإطاحة بالملك فيصل ونوري السعيد وانهيار حلف بغداد الذي جمع أنظمة مدجنة ومسخرة لتطويق المد السوفياتي مثل باكستان وتركيا، وأخرى إسلامية إمامية تريد الاقتصاص من الغرب على طريقتها، وقد كنّا من بين شهود العيان ونحن في طهران (1989-1991) لما تعنيه كلمات "مَرْكَ بَرْ أَمِرْكا" (Marg Bar Amrica): الموت لأمريكا.

استعمل دعاة البعث العراقي الذين توقفت ساعتهم في معارك ذي قار، والقادسية مصطلحات وشعارات تثير الغثيان مثل العجم والعلوج والمرزبان المهزوم وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص قاصم ظهر إيوان كسرى، وعند كل نكسة ونكبة تتعالى صرخات وامعتصماه! (SOS) ولا مغيث ولا مجيب غير الضمادات التي لا تغضب العم سام.

وتمّ توظيف التاريخ في اتجاه سلبي يشعل الضغائن ويفصم ما وصله الإسلام من أواصر بين أمة محمد بكل مذاهبها، فقد أشعل دعاة البعث فتيل الفرقة والفتنة بين السنّة والشيعة وأيقظوا ذاكرة سوف تعود لتدمير النظام السياسي والعراق كله، ولكن باعتبارها واجهة فقط لحرب 2003 الأنغلو-أمريكية.

سعت أمريكا وحلفاؤها إلى إطالة أمد الحرب، وساعدها في ذلك أغلب بلدان المنطقة لغاية تصبّ لصالح الغرب وحده تتمثل في تعميق الشرخ وتصدير السلاح وإضعاف الطرفين المتقاتلين مع تحويل نظام صدام إلى صديق في وضع محمي مؤقتا، ولعله من الإنصاف أن نشير إلى أن الجزائر كانت من البلدان القليلة في المنطقة التي حذرت من عواقب حرب بلا قضية حقيقية، وتدار بالنيابة عن المستفيدين من دماء وموارد الشعبين الشقيقين، واتخذت سوريا أيضا موقفا معارضا، ربما للسبب نفسه، وبلا شك بسبب الانشقاق والعداء بين جناحي البعث.

خرج العراق محطما بعد ثماني سنوات من الحرب بسلاح فرنسي أمريكي وتمويل خليجي، وظهر أن الممولين بالسلاح والمال لم يعودوا في حاجة إلى نظام بغداد، كما قرّر أصحاب التمويل أن مهمتهم قد أشرفت على النهاية وتخيل الحكم الانفرادي العراقي الذي ألّه زعيمه وأعطاه العصمة والإلهام السياسي والعسكري، أن الباب مفتوح لأخذ التعويض اللازم من جارته الكويت والحصول على بحيرة زاخرة بالنفط وأموال طائلة في بنوك العالم.

10. خطوة أخرى خاسرة إلى الوراء

كان ربيع سنة 1991 هو بداية النهاية بالضربة القاضية لما يسمى الأمن العربي والنظام العربي، مصطلح من وضع مراكز البحث الأنغلو-أمريكية (Arab order) ولا ننسى أن الجامعة العربية هي أيضا فكرة بريطانية في الأصل، ولا يعيبها ذلك لو أنها جمعت الأقطار حول مصالحها المشتركة الأساسية ولم تظهر على شاشات التليفزيون أدنى من مقهى "عمّي

موح" تبدأ بالقُبل والعناق (Bous-Bous) وتصل أحيانا إلى السبّ المقذع والتهديد المفزع!.

لقد انتهى النظام العربي من الناحية الفعلية (وإن بقي كشعار لفظي) بعد 1973، وإمضاء اتفاقية كامب ديفيد سنة 1977، فتدخلت الجيوش العربية لتعطي مظلة شكلية للإجهاز على ما تبقى من العراق بعد وقف الحرب مع إيران سنة 1988، وتحولت المنطقة برا وبحرا في مدة وجيزة إلى قواعد ومعسكرات تتكدس فيها الآلة الحربية الأمريكية التي تعبر قناة السويس بدون أن تحتج أية منظمة مدنية أو حتى جمعية طلابية على ذلك الاختراق الذي ألغى مقابل بضعة ملايين من الدولارات كل مكاسب وصمود 1956.

هل أن المقابل المالي (ما يزيد على مليار دولار سنويا) مبرر كاف؟ إذا كان الجواب نعم، إذن ما جدوى مئات الملايير المودعة في بنوك الغرب الأروبي الأمريكي التي يمكن حجزها لأي سبب كما حدث التهديد بذلك لمنع مساعدة حكومة حماس الفلسطينية التي توقعت في البداية أن يهب العرب والمسلمون لمساعدتها، ولكن الخوف من الغول الأمريكي جعل أثرياء المنطقة أول من يطبق القرار الظالم بمحاصرة حماس.

ماذا حقق الغطاء العربي؟ أو ماذا فضح من المستور عن جمهور الناس؟

الجواب ما نرى وليس ما نتوقع :

– تمّ تقطيع أوصال العراق إلى شمال وجنوب ووسط تمهيدا للكانتونية.

– عزل العراق عن محيطه وعن العالم تمهيدا للقضاء على سيادته الوطنية.

– إشراك المنطقة في تجويع شعبه وتشتيت نخبه شرقا وغربا قبل نهب وتدمير تراثه الحضاري الرائع (9000 آلاف عام) بين سنتي 2003–2005.

– شهدت سنوات التسعينات تقهقر التيارات اليسارية. وإفلاس العديد منها بعد انسحاب الإيديولوجية الماركسية من الساحة العالمية على رؤوس الأصابع، وتهاوي قلعتها الأولى في الاتحاد السوفياتي بنفس الطريقة التي تنبأ بها الرئيس الأمريكي الأسبق ر.نيكسون (R.Nixon) أو ديكي الماكر (Triky Dicky) كما سماه الإعلام الأمريكي.

بشّر نيكسون بانهيار قلعة السوفيات بدون طلقة نار واحدة في مؤلفه الشهير: "نصر بلا حرب" (A Victory Without War).

بعد إفلاس الأحزاب التقدمية والمراجعة والتراجع في الأنظمة التي كانت توضع في صف التحرر والتحرير، واندفاع غوغائيين للترويج لوطنية بلا إسلام بالذات، وليس أي دين آخر، ورّد عليهم غوغائيون آخرون بإسلام بلا وطنية إسلام أممي يتجاوز الوطنية بل يعتبرها خيانة وبهتانا وعدوى وبائية من الغرب.

11. 11 سبتمبر: بيرل هاربر أمريكا في منطقة هشّة

بعد كل تلك الهزائم والنكبات والنكسات والتراجعات كان البديل القديم الجديد هو البحث عن نسخ مصورة طبق الأصل من الماضي وكما كان عليه قبل ألف عام أو أكثر.

تعالت هتافات جماهير أضناها الفقر والتهميش والتواطؤ والفساد: الإسلام هو الحل، والقرآن هو الدستور، لم لا؟ والإسلام عقيدة الأغلبية من سكان المنطقة

وعقيدة 99 % من جناحها المغاربي، والقرآن نص متفق عليه بالإجماع ومقدس في قلوب الناس، ولا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه!! المشكلة هي التوظيف السياسي وحتى التجاري المغشوش للمقولات السابقة توظيف مصحوب بخطاب التحريض والمبارزات البدائية وليس بالرأي والاجتهاد والقياس، فضلا عن إدعاء مهمة المهدي المنتظر وإلغاء كل ما توصل إليه العقل الإنساني من حكمة وعلم وثقافة وتطهير المجتمع من التلوث الروحي والأخلاقي وتحطيم الدولة من الأساس وليس نظام الحكم فحسب. هذا مع الأسف هو منطوق المشروع ومضمونه.

تبّين في بداية القرن الحادي والعشرين أن بلدان المنطقة في اشتباك مهلك مع حاضرها وماضيها، مع تراثها وعصرها، ولم يعد الأمر متعلقا بحث الخطى للحاق بالعالم المتقدم، وإنما بالثأر والانتقام منه وهذه هي الخطوة الخامسة إلى الوراء.

من بين الخطوات الخمس الأخيرة إلى الوراء فإن الأخيرة تبدو الأفدح من سابقاتها، فقد أعادت الأمة إلى ما يشبه وضعية الأندلس قبيل اجتياحها ومحوها من خريطة العالم العربي والإسلامي.

أيا كان سيناريو 11 سبتمبر وما أضيف إليه من أوصاف مثل إجرامي– أليم–بربري...يقولها الجميع أحيانا لتبرئة الذمة وأحيانا للتضامن الإنساني مع الأبرياء (لاحظ أن لا أحد يذكر ضرب البنتاغون وهو هدف عسكري)، أيا كان ذلك السيناريو، فقد كان بالنسبة للولايات المتحدة "بيرل هاربر" الثانية وأصاب من جهة أخرى أثنين من رموز قوتها وهما مركزيتها التجارية (Trade center)، وقوتها الضاربة (البنتاغون).

هناك أمر آخر يعنينا في هذه المقاربة، ولا يقّل أهمية عما سبق فقد تأكّد لواشنطن أن هناك في هرم السلطة والحاشية في بعض البلدان العربية والإسلامية من يُقبّل الأقدام صباحا ويُموّل وينشط شبكات الغضب والانتقام من أمريكا والغرب بوجه عام مساءً.

12. جزائر التسعينات: مخبر وفُرجة

أيا كانت الدوافع الدينية والسياسية، فقد اتخذت الولايات المتحدة من تلك الحادثة نقطة انطلاق لتجميع تكتل دولي ضد الإرهاب بمعناه الأمريكي المضاد أساسا لحركات المقاومة والتحرر وإعلان حرب عالمية ضدّ القاعدة وفروعها وكانت قبل ذلك بسنوات قليلة راعيتها في أفغانستان والساهرة على انتشار فروعها والمشجعة لمموليها الذين تعرفهم جيّدا ليس من باب اللوم ولا حتى العتاب (فنحن نقرأ سجل التأخر) وإنما للإشارة إلى العلاقات العربية البينية هناك ظاهر وهناك باطن يترجم بالجملة التالية:

– إنّ ضعف أيّ بلد هو قوّة للآخر!

– وهذه ميكيافيلية سياسية منحطة وعقلية "سيوسيولوجية" القبيلة وليس الأمة.

إذ قبل تلك الكارثة (بالنظر إلى عواقبها) بحوالي عشر سنوات (1991) لم يتضامن مع الجزائر في محنتها إلا القليل جدا من الأشقاء والأصدقاء، بل اعتبر بعضهم أن سفك الدماء وتدمير الدولة والاقتصاص من نخبها بمجرد الشبهة "مخبراً" للفرجة مثل أي مباراة جهوية لكرة القدم، بل استنكر زعماء نصبوا أنفسهم أوصياء على الديموقراطية ما حدث سنة 1992 وما تلاها

وتناسوا ماضيهم ضدها أثناء كفاح التحرير الجزائري عندما كان كبيرهم وزيرا للداخلية والمسؤول عن بوليس التعذيب والقصف العشوائي على المشاتي والقرى في طول الجزائر وعرضها.

ولكن لنتساءل والأوان لم يفت بعد :

– لماذا حدث كل ذلك التخبط والانفراط في بلادنا؟

– كيف ولماذا تحوّل الإسلام من نواة صلبة للوحدة والانسجام إلى أتون للفتنة والصراع المهلك؟ وهنا ينبغي أن نتذكر أن الكعبة قصفت بالمنجنيق (مدافع ذلك الوقت) للقضاء على الخصم المحتمى بها، عقودا قليلة بعد وفاة خاتم الأنبياء (ρ)

– أين كانت مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع المدني؟

– من أوحى بتدويل "الحالة" الجزائرية ولصالح من ؟

أسئلة كثيرة يضيع الجواب عنها أحيانا في مواقف التخنْدُق والتموقع الإيديولوجي المريح مؤقتا، وتكرار جمل شعارية استهلاكية من نوع "الجزائر أولا وأولا وأخيرا " تعلن الولاء الفضفاض والانخراط في أي صفّ مفيد، ولكن دراسة "الحالة" الجزائرية قائمة على قدم وساق وراء البحر والمحيط وتساهم فيها نخب جزائرية لصالح مراكز القرار السياسي في بلدان لا تغفل أبدا عن مصالحها الجيوسياسية والاقتصادية والثقافية.

13. الحمل الكاذب والمجموع الصفري

تدخل الملاحظة السابقة في باب التعقيب على الحمل الكاذب لنهضة فيها من أمواج الجزر أكثر مما أعطت من أمواج المدّ، لذلك أدركت نخب لاذت

بالهجرة لأسباب حقيقية أو مصطنعة، أن المجتمعات العربية الإسلامية ترزح تحت وطأة أنظمة، لا هي ملكية دستورية ولا هي جمهورية تراعي الحدّ الأدنى من القواعد العامة للديموقراطية وآلياتها الميكانيكية التي يخلف فيها في بلاد الغرب الحاج موسى زميله موسى الحاج أي في إطار نفس النظام البرلماني الليبيرالي، يزيد أو ينقص جناح موسى أو جناح خلفه الحاج، بعض الرتوش فيها بلا شك ممارسة لقدر كبير من الحرية والاجتهاد في خدمة الدولة بالحزب وخدمة الحزب بالدولة. إن ذلك التداول الشكلي فيه على الأقل كما يقول المثل الشعبي "تبديل السّروج فيه راحة" للراكب والمركوب!

تشهد تلك النخب العربية والإسلامية وغير الإسلامية المتواجدة في الداخل والخارج وتشارك أحيانا في التعبير المؤطّر عن الرأي والموقف، تشاهد ما يحدث من تفكك في الساحة في عموم المنطقة مصحوبًا باحتجاج وعتاب يقترب من الهمس يُعّلق ببيانات مدروسة على العدوان الإسرائيلي والهمجية الأمريكية واحتقارها لشعوب المنطقة وحقها في العدل والحرية، وليس ما يسمى المعايير المزدوجة فالمعيار الأخلاقي أو السياسي أو المصلحي، إما أن يكون معيارا أو لا يكون أصلا، كيف يكون لإسرائيل الحق في العربدة والتنكيل بالفلسطينيين (ما تبقى من فلسطين مجرد ساحة للتدريب على الرماية) ومقاومة الفلسطينيين هي العدوان الذي يسعى حتى الجيران وبعض مفكري مراكز الدراسات الإستراتيجية وفقهاء الأمراء من ذوي القربى أنفسهم لإفشاله وتحميله مسؤولية تعطيل مسيرة السلام الخادعة؟!

من أوكل لأمريكا وحلفائها مهمة دمقرطة العراق؟ وهل ترسانة العراق البلد الذي وصل إلى المجاعة في التسعينيات تهدد بلدا يملك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتدمير الكرة الأرضية كلها 35 مرّة وفي أقل من 24 ساعة؟ وهل وضع العراق بدون ديموقراطية أسوأ مما هو عليه الآن بعد ثلاث سنوات من التحرير أي الاحتلال وإضافة منابع جديدة للطاقة وتكليف وكلاء آخرين يسيّرون الأزمة بالنيابة،
لا يجرأون حتى على تسمية قوات البطش والإذلال وحلفائها من المرتزقة بقوات احتلال فشهوة السلطة والانتقام أقوى من العزّة الوطنية!

هذه هي المرحلة السادسة من نهضة أصابتها الشيخوخة المبكرة وصلت فيها المنطقة إلى ما يعرف في الرياضيات بالمجموع الصفري أو الفارغ (La somme nulle)، منطقة فقدت الوزن والجاذبية يصدق عليها قول الفقهاء: إذا حضر بعض ممثليها لا يستشارون وإذا غابوا لا ينتظرهم أحد.

كانت هيئات الأركان من الساسة والخبراء في أروبا على علم بأن المنطقة العربية تزداد هشاشة وهي في أفضل الحالات مجرّد أسواق، بسبب ما تعانيه من تخلف مُزْمن، هي المسؤولة عنه أساسا وأن الاستقطاب والاختراق ولعبة "غرّق" تسد هي في الحقيقة نتيجة للتخلف والاستغفال السهل للعديد من قادتها ونخبها، كانت أروبا طوال المدة السابقة تراقب وتناور وتتحرش، ليس أكثر.

لم تعد دول أروبا مثلما كانت عليه في النصف الأول من القرن الماضي ولم تصل بعد وهي تبني اتحادها إلى مستوى قوّة تضاهي القطب الأوحد

الذي ألحقها عمليا بحلفه الأطلسي دون أن يتجرأ أي بلد منها أو من خارجها أن يسأل تحالفُ ضد من؟

14. الخيبة السابعة

في عقد التسعينيات وما بعده، كانت الولايات المتحدة قائدة السرب المطيع، هي الأسرع والأكثر فعالية على طريقة تقاليد "الكاو بوي" فالذي يسبق في إشهار السلاح وإصابة الخصم في مقتل هو الفائز، وقد طبقت ذلك التقليد وفق منظور استراتيجي نشير إلى بعض فصوله فيما يلي:

1. تذويب المسألة الفلسطينية من داخلها وعلى مستوى المنطقة وتوزيع دمها على رباعية وفق خريطة أشبه بمتاهة رورشاخ (عدة أشكال هي لطخات من بقع الحبر الغامضة تستعمل في التحليل النفسي) تمهيدا لتنصيب إسرائيل كقطب أوحد في منطقة مسلوبة الإرادة وسلمت أمرها برضاها إلى العمّ سام.

2. إجراء عملية جراحية بدون تخدير في العراق، ليس للاستيلاء على مزيد من منابع النفط فحسب، فلم يمنعها أحد من ذلك، بل إعطاء درس تطبيقي لكل بلدان المنطقة فيما تستطيع السياسة والدبلوماسية والآلة الحربية الأمريكية فعله بموافقة كل العالم أو ضد كل العالم.

3. تسويق بديل جديد عن "امبراطورية الشر" السوفياتية هو الإرهاب العابر للقارات الذي يشتبه في وجوده في كل مكان غير موالٍ لواشنطن، وتصنيف الدول وفق محورين أحدهما للشر والآخر للخير أي حليف أو تابع أو غير مزعج، حسبما تراه هيئة المخابرات (CIA) ومراكز الدراسات

المتخصصة والعاملة معها. واستخدام مبادئ الحرية والديموقراطية حسبما تتطلبه خططها السياسية للانتشار والتموقع الاستراتيجي في العالم كله، وفي المنطقة العربية التي كانت وما زالت حقل تجاربها المفضل (كوباي).

أصبحت الديموقراطية في الفعل الأمريكي، وليس في الديباجات الخطابية، أشبه بعجينة الأطفال (Pate à modeler) تتلهى بها وتلهي بها الدولة العظمى الكثير من بلاد العالم بما فيها روسيا والصين، كما تشاء ولا تعبأ بالملاحظات المحتشمة من الحلفاء وحتى من كبار ساستها الملتزمين بالانضباط والحق الأعلى للدولة (La raison détat)، مثلما حدث للرئيس الأسبق جيمي كارتر الذي شهد بديموقراطية الانتخابات الفلسطينية التي أدت إلى تشديد العقاب على الشعب الذي انتخب ديموقراطيا سواء لصالح حماس أم ضدها.

4. صاحب ذلك الاختراق والإضعاف والتدجين الشامل موجة من اتهام الإسلام عقيدة وتراثا بالإرهاب واللاحضارة وتعالت أصوات تزعم أن بذور الاستبدادية والتسلط موجودة في النص القرآني وأن الإسلام هو دين السيف وتاريخه كما تقول أوريانا فلاشي (Oriana Fallaci) يقطر دما.

تجنّد علماء وأوساط إعلاميّة في الغرب للقيام بحملات منظمة تشيع أن سبب تخلف العرب والمسلمين هو الدين الإسلامي والعقلية "الميثولوجية" التي تكون في نسيجها عقل معادي للحداثة وقيم الديموقراطية وحقوق المرأة والإنسان بوجه عام، وقد أحدثت تلك الحملات المنظمة ردود فعل (الفعل العربي والإسلامي معدوم في جسد بلا روح ولا إرادة)، على التُّهم الابتزازية،

فقد وجد المسلمون أنفسهم مدانين بحكم عقيدتهم حتى يثبت العكس، أي التخلي عن شعائر دينهم وتراثهم وهو اتهام لم يوجّه أبدا إلى الكوفشيوسية والهندوسية والديانة البوذية في الهند والصين والشنتوُ في اليابان، وعددهم يزيد على ثلث البشرية، أما اليهود فوْيل لمن ينتقد طقوسهم وسلوكاتهم، بل برّأتهم البابوية من دم المسيح بقرار أو فتوى أقرب إلى السياسة منها إلى الدين! ماذا تقول الدعاية الهستيرية التي تجتاح الغرب عن نمور التاميل في سيريلانكا وجيش الرب في أغندا وهي تقتل الأبرياء بالآلاف، ماذا تقول أروبا وأمريكا عن سبعة آلاف من أهالي البوسنة والهرسك المسلمين في بريتسنيسكا الشهيدة الذين قتلهم الصرب الأرثوذكس أمام بصر لكي لا نقول بتواطىء من قوات القبعات الخضر بقيادة جنرال فرنسي لم يوّجه إليه أي لوم، هل اتهمت الأرثوذكسيّة بالإرهاب؟ أو طلب أحد من أتباعها تنقية عقيدتهم من تعاليمها؟

يمكن التمييز بين ثلاثة من ردود الفعل في بلاد العرب والمسلمين:

1.4. جلد الذات أو السخرية منها في الشعر والقصّة والرواية والمسرح والسينما وتمثيليات الشخص المفرد (One man show) ونشر تقارير أحيانا بغطاء منظمات دولية مثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP) واليونسكو تؤكد على الهوة والفجوة التي تفصل بين المنطقة العربية والعالم المتقدم في القارات الأخرى، بما فيها إفريقيا وتقدم بالأرقام وشهادات الخبراء الفشل الذريع لمشاريع التنمية والتحديث، فهل أن تلك التقارير كلها بريئة؟

ولماذا تمت مراجعة آخرها الذي شارك فيه الأستاذ "بن بيتور" رئيس الحكومة الجزائرية الأسبق؟

2.4. الهروب إلى الآخر واستئجار حداثته التكنولوجية إلى درجة كراء مقعد بملايين الدولارات في مركبة فضاء على طريقة "كَراند دايزر" وأبطال الرقم القياسي في سجل "كَينز" لأكبر فطيرة "بيتزا" وأطول شارب إلخ...

3.4. في جزائر بداية هذه الألفية أدرك تيار سياسي مؤيد من نخبة في الحكم والمعارضة أن استمرار الصراع سيؤدي لا محالة إلى مزيد من التأزيم والتعطيل، ويقترب بالجزائر من شبح الحرب الأهلية التي لا يكون فيها المنتصر منتصرا حقا، ولا المهزوم مهزوما نهائيا، بدأت تلك المقاربة بمشروع الوئام لأخذ زمام المبادرة والحيلولة دون تثبيت (Fixation) الأزمة لدوافع إيديولوجية بحتة، أو لمصالح مكتسبة، أو ليثأر طرف من طرف آخر، أو لكل تلك الأسباب مجتمعة.

انتقل الوئام تدريجيا إلى مشروع للمصالحة يأخذ بعين الاعتبار العوامل السابقة أو ما أطلق عليه رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة التوازنات القائمة، إن المصالحة كاملة كانت أم ناقصة هي بلا شك مبادرة إيجابية بمقياس ما سبقها من تفريط وانفراط وضحايا أبرياء وتكلفة باهضة عرقلت التحديث والتقدم لأكثر من عشرية تساوي في عصرنا الراهن عشرات السنين مما تعدّون.

ارتأينا هذا الرأي والأزمة على أشدها (الأزمة المفروضة دراسة منشورة سنة 1997) وجاهرنا به في أواسط التسعينيات، والكثير من الناس إما مع، وإما ضدّ، ولا شيء غير ذلك.

من النادر أن نرجع إلى رأي أو نُذكّر بموقف، فليس ما نتبناه أو نقوله هو دائما الوحيد والأصح، ومن المهم أن ننبه إلى أن التفكير الحر والرأي المستقل لا يحتاج إلى دليل مثل شتم النظام جملة وتفصيلا والتنديد بما فعل ولم يفعل، والظهور بصورة الشهيد، فذلك من صبيانيات المراهقين الديموقراطيين في العالم الثالث والتي تدفع البعض أحيانا إلى التنكر بأزياء المتسوليّن والبؤساء (miserabilisme).

5. جاء ردّ الفعل على حملات الغرب ضد الإسلام أيضا في صورة ملتقيات وندوات ومؤتمرات الحوار الإسلامي الأوروبي الأمريكي، تجمعات تعقد هنا وهناك من أجل حوار الحضارات واللقاء بين الثقافات، وفي كل جولة من رحلات الصيف والشتاء ينتهي الكلام بكلام فترسل هيئات وبلدان عربية وإسلامية مبعوثين لتبييض وجه الإسلام والتبرؤ من الأصوليين ومن والاهم، ولا يسأل أحد لماذا لا تلهث الصين مثلا حول حوار حضارات وثقافات ولا يجد الغرب سوى مظاهرات ساحة " تيان آن مِنْ " للتهجم عليها؟ هل لأنها أخذت بذكاء وعزيمة أفضل ما عند الغرب وطوّرت أفضل ما عندها من تراث يمتد على ستّة آلاف عام وراء سورها العظيم؟

بمقارنة حالنا اليوم بما كان عليه حالنا في الأمس البعيد، ومقارنته بما وصل إليه غيرنا في ربع القرن الأخير يمكن أن نعاين الخيبة السابعة.



تبدأ الاجتماعات في البيت الأبيض بالصلوات
(في الصورة الرئيس بوش وكبار مساعديه – يناير 2003)

15. المعضلة وشفرة الحّل

لا جدوى من التعميمات الانفعالية، فبين النخب المفكرة والسياسية الغربية رجال ونساء لا يقبلون أطروحات الصراع وتفسير وضعية التخلف بالدين والتراث، وهم أول من يعرف أن الإدارة الأمريكية الحالية تبدأ كل اجتماعاتها المهمّة وغير المهمة بالصلوات والخشوع أمام الصليب (الصورة المرفقة للرئيس بوش الصغير ومعاونيه).

لا يحمل أولئك الساسة والمفكرون الأحرار (على قلّتهم) أي حقد على الإسلام وإن انتقدوا المسلمين ولا يبيعون ضمائرهم في سوق النخاسة الصهيونية المُتنفذّة ولا يتلقون صكوكا مثقلة بالدولارات مقابل شهادات الزور، إنهم شرف الغرب الأوروبي الأمريكي نفسه، عندما توضع العلاقات بين شرفاء عالم المسلمين وشرفاء عالم المسيحيين في ميزان الحق والعدل والحرية.

نشير عرضا إلى أن الخطاب الثقافي والسياسي الشائع في المنطقة كلها يستعمل نفس المصطلحات التي وضعتها القوى الأجنبية فهي تستعمل مصطلحات جيوسياسية، (شرق أوسط، وأدنى... بمقياس دول المركز أي غرب أروبا) ومفاهيم إيديولوجية تَنسب بلدان المنطقة إلى العقيدة الدينية السائدة فيها فنقول: المسلمين والإسلاميين (Islamistes) والإسلاموية (Islamisme)، ونكرر نحن معها نفس المفاهيم الإيديولوجية السابقة، ومن النادر أن تَنسب شعوبا ومفكرين أو كتابا أو ساسة من أقطار تلك البلدان الأجنبية إلى العقيدة السائدة فيها فتقول مثلا المسيحيين في الأمريكيتين (شمال–جنوب القارة) أو المسيحيين الأوروبيين أو نصنّفهم حسب عقيدتهم أو مذهبهم كاثوليك (ما يشبه السنّة عند المسلمين) وبروتستانت... وأرثوذوكس...ولا نسمع أو نقرأ وصف شعوب أمريكا اللاتينية بالمسيحيين الكاثوليك وشعوب جنوب شرقي آسيا بالبوذيين أو البراهميين، وشعوب شمال أروبا بالمسيحيين البروتستانت.

لم يتردد الرئيس بوش في وصف ما حدث في 11 سبتمبر بأنه حرب صليبية (CRUSADE)، وأطلق مؤخرا وصف الفاشية على الإسلام.

المسلمون اليوم أغلبهم يخاف سطوة وجبروت العم سام وحلفه الأطلسي الذي امتد إلى البلطيق، فأي إسلام يخافه فرعون العالم المعاصر؟! هل أنّ مقولة رائد الإصلاحيين، جمال الدين الأفغاني لا تزال صادقة إلى اليوم، فقد لاحظ في بلاد المشرق مسلمين بلا إسلام، وشاهد في بريطانيا إسلاما بلا مسلمين: أي رجالا ونساء شبابا وشيوخا يعملون ويتقنون ما يعملون بنظام دقيق يحترم الوقت وحريّة المواطن، ولذلك فإن ذلك المواطن

يحبّ وطنه ويسعى لمجده ليكون عن استحقاق بريطانيا العظمى فعليا، وليس لفظيا على طريقة "أحكم فأنت الواحد القهار"؟!

متى تبدأ النهضة؟ وهل للنهضة بداية تحسب بالتوقيت الموحّد (غرينتش)؟ هل النهضة عملية تدرُّجيّة (Processus) أم طفرة تنطلق من المركز نحو الأطراف؟ أين هو هذا المركز؟ أليس هو روحانية الإسلام التي تُهذّب حيوانيّة الإنسان، وبيان القرآن وحثّه على فهم الكون وظواهره واستثمار ما فيه وتوزيعه بالحقّ والعدل والإحسان؟.

يبدو لنا على أغلب الظن أن للنهضة بابا هو العقل، وأن للعقل مفتاحا يمسك به الساسة والمفكرون، وبينهم المجتمع الذي يشترك مع نخبه في جني الثمار أو يدفع فاتورة التخلف ومضاعفاته.

نحن نتمسك على أي حال ببصيص من الأمل يرفض نظريات الحتمية والمصير المزري المفروض سلفا، وخاصة إذا رجعنا إلى القرآن وبيانه وحثّه على فهم الكون ونظامه، ووضعنا معادلة الفيلسوف فوكو في ترتيبها الصحيح:

علم–قوة–ثروة (Savoir-pouvoir-avoir)

في المسافة القصيرة نظريا والشاسعة عمليا بين المثقف السياسي والسياسي المثقف، بين الدولة والمجتمع، بين العقل والروح، في تلك المسافة توجد الشفرة (Code) التي تسمح بفتح الباب.

الديمقراطية في الفكر العربي الحديث
بين التأصيل والتقليد

د. إسماعيل زروخي
(جامعة قسنطينة)

سنحاول بادئ ذي بدء، التطرق إلى موضوع الديمقراطية في الفكر العربي الحديث باعتبار الديمقراطية كانت من أهم الأسس التي قامت عليها الممارسات السياسية الحديثة وسعت الأمم في كل مراحلها التاريخية، إلى محاولة تجسيد الديمقراطية وممارستها. إلا أن الحديث عن الديمقراطية في الفكر العربي الحديث يستدعي منا طرح مجموعة من التساؤلات شكلتها الممارسة السياسية ذاتها في الواقع العربي الحديث.

ومن أبرز تلك التساؤلات، ما هي أهم المصادر التي استقى منها المفكرون العرب المحدثون، مفهوم الديمقراطية وقيمتها في الممارسة السياسية؟ وهل كان إدراكهم لها نابعا من إبداعاتهم الفكرية،أي من واقعهم العربي الإسلامي المعيش، أم كان إدراكهم مجرد تقليد ونقل من خلال احتكاكهم بالغرب؟ ثم هل أن نظرتهم التأصيلية للديمقراطية كان الهدف منها أن تتحقق وتمارس، أم أن نظرتهم لها كانت مجرد أماني حلموا بها؟ وكذلك فإن الديمقراطية بالنسبة لأولئك المفكرين، هل كانوا يرون تمكين الحكام

منها، أم تمكينها للمحكومين؟ ومن ثمة فهل كانوا يرونها ضرورية لكل الشعب أم لفئة معينة منه؟ وبالتالي فهل كانوا يرون ضرورتها لواقع مجتمعهم وظروف عصرهم؟

إضافة إلى تلك التساؤلات، هل يمكن القول بأن العرب قد عرفوا قبل عصرهم الحديث نظاما سياسيا أصيلا يعبر عن هويتهم وكينونتهم، يمكن لهم من خلاله أن يستمدوا منه نظاما يواكب تطور العصر، قبل أن يعرفوا الديمقراطية؟ وبمعنى آخر هل أدرك العرب اليوم الديمقراطية كتنظير أم كممارسة؟ ومن ثمة هل استطاع العرب تحديد وضبط مفهوم دقيق للديمقراطية، أم أنها كانت بالنسبة إليهم من الأمور المعلومة والمعروفة، التي لاتحتاج إلى تحديد؟ أم أنهم واجهوا في تحديدها صعوبات؟ وهل أن الديمقراطية هي شرط لكل نهضة وتقدم وتطور، أم أن النهضة والتقدم يمكن لهما أن يتحققا بدونها؟ ومن ثمة فهل العرب اليوم مطالبون في نهضتهم من أن يبدأوا من حيث بدأ الغرب في نهضته، أم من حيث انتهى؟

إن هذه التساؤلات رغم طولها هي التي سنبني عليها الموضوع الذي نحن بصدد معالجته.وفي هذا الإطار فإن محاور الموضوع الأساسية ستعالج نظامين متعارضين عرفهما العرب في العصر الحديث، هما : النظام الاستبدادي الممارس في واقعهم، والنظام الديمقراطي الذي عرفوه عند غيرهم.

أولا: الفكر العربي الحديث والنظام الإستبدادي

يمكن التأكيد بأن العرب لم يعرفوا في تاريخهم الطويل نظاما سياسيا معينا مؤسسا على قواعد ونظيريات نابعة من واقعهم. باستثناء مرحلة صدر الإسلام، وهي مرحلة الخلافة الراشدة. إذ عرفت تلك المرحلة، بحق، نظاما سياسيا متميزا، تأسس على مبادئ الشورى الإسلامية التي هي الأساس الصحيح لما يعرف اليوم بالديمقراطية. ثم تحولوا عن ذلك النظام إلى نظام، أو ملك عضوض كما أشار إلى ذلك ابن خلدون، بالرغم من أنهم يزعمون من أنهم يحكمون باسم الإسلام ومبادئه السمحة، فكان توريث الحكم والاستبداد، والقبلية هي الطابع المميز لممارساتهم السياسية عبر العصور.

إن النظام السياسي الذي مورس بعد الخلافة الراشدة، هو النظام الذي تميز بالدموية، وإشعال الفتن، ومن ثمة عجز العرب عن أن يقيموا لهم نظاما سياسيا خاصا بهم، فكان نظامهم السياسي يتميز بخصوصيات غيرهم، تارة يتميز بدهرية الحكم العربي، ومرة أخرى بالأخلاقية الإسلامية، ومرارا أخرى بالتنظيم الهرمي الآسيوي[1]. ولكن لا يعني ذلك أن تلك النماذج لا تعبر عن كينونة خاصة ومتميزة، كما لا يعني أنها لا تعبر عن عملية إبداعية في التاريخ السياسي العربي الإسلامي، وإنما يعني ذلك أن الضعف الذي سقط فيه العرب بعد تلك الممارسات هو المتمثل في العجز عن التنظير لتلك النماذج، لاسيما قبل النصف الثاني من العصر العباسي، أي بعد ضعف الدولة العباسية[2].

على أنه في أعقاب تلك المراحل كلها التي مر بها العرب، لم يقوموا بأي تنظير لنظام سياسي معين، حتى جاء القرن التاسع عشر، في بداية العصر الحديث، وهو العصر الذي حاول فيه العرب، إقامة بعض التنظيرات لنظام

الحكم والسياسة يتعلق بدولتهم التي كانوا يسعون جاهدين، لبنائها وتشكيلها، غير أنهم لم يجدوا بدا من محاولاتهم تلك، إلا السعي لرفض النظام الاستبدادي الذي كان سائدا في ممارستهم السياسية في ذلك الوقت، قبل تصورهم لطرح أي نظام سياسي آخر، ذلك أنهم كانوا يعتبرون ذلك النظام (الاستبدادي) هو السبب الرئيس في ضعف العرب وابتلاء حضارتهم بالتخلف والانحطاط، وقد استندوا في رفضهم للنظام الاستبدادي، إلى النظام السياسي الديمقراطي الذي كانت عليه أوربا في ذلك العصر، على أن لجوء المفكرين العرب إلى النظم الأوربية أساسه ومرده، هو اختصار الطرق الموصلة إلى التقدم والتطور والازدهار.

ولقد كان من أبرز مفكري العصر الحديث الذين رفضوا النظام الإستبدادي في الوطن العربي رفضا مطلقا في تنظيراته وممارساته، هو المفكر، خير الدين التونسي. الذي كان يرى أن من أظهر المساوئ وأشملها التي تلحق بالمجتمع في أية أمة كانت، هي الانفراد بالسلطة أو التفرد بالحكم الذي يؤدي مباشرة إلى الاستبداد. وبالتالي فإن عواقب هذا الضرب من الحكم وخيمة لا على الحاكم المتفرد بالسلطة أو المستبد بها، وإنما أيضا على كافة أفراد المجتمع. كذلك فهو يرى أن هذه المظاهر السلبية في الحياة السياسية، لا تكون في رأيه إلا في النظام الاستبدادي، وهو ما ذهب إليه إبن خلدون من قبله، حين اعتبر أن من بين أهم عوامل زوال الدولة وانحطاطها وانهيارها هو الانفراد بالمجد أي التفرد بالحكم والاستبداد به. ومن ثمة فإن الاستبداد والتصرف المطلق في الحكم يفضيان إلى الظلم الذي هو (مؤذن بخراب العمران) حسب تعبير ابن

خلدون، وفي هذا السياق نشير إلى أن خير الدين التونسي، كان قد عاصر تلك المظاهر والمساوئ في النظام السياسي العربي، الذي عبر عنه بمرارة، حين قال : في هذا الزمان الذي قل فيه العرفان وكثر فيه الطغيان)[3].

ومن الآراء الجريئة التي ذهب إليها خير الدين التونسي، في هذا الصدد رفضه المطلق للنظام الاستبددي الذي يكون الحكم فيه للفرد الواحد، حيث يرى أنه : (لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لإنسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده، ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم علما)[4]، ومن هنا فإن التفرد ليس مذموما في الحكم فقط، بل أيضا هو كذلك حتى وإن كان في الرأي، ولوكان صاحبه يمتلك أفضل الكمالات والمؤهلات التي تتيح له بأن (يتفرد) دون أن يشارك غيره في الحكم أو الرأي. وفي هذا المعنى ،يذهب خير الدين التونسي، إلى القول بأن : (العمل بالرأي الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف)[5]، ويبدو أن خير الدين في هذا الرأي يخالف، رأي القائلين بإمكانية تفرد العارف المتميز بتسيير شؤون الدولة والمجتمع، وهي المسألة القديمة التي طرحت منذ اليونان، ولا زالت تطرح إلى يومنا هذا، بمعنى هل يوكل أمر الدولة والحكم إلى الشخص المتميز بعلمه ومعارفه، أم يوكل أمر الدولة إلى القانون والدستور والتشريع ،دون النظر إلى مؤهلات من يطبقه، ويسهر على تنفيذه؟

في هذا الخصوص يظهر أن خير الدين التونسي، قد حسم مسألة طبيعة نظام الحكم في الدولة، إذ يؤكد على ضرورة تأسيس ذلك النظام على القانون

وحده الذي يراه بأنه القادر على تقييد سلطة الحاكم، المستندة على مشورة أهل الاختصاص المعروفين بجماعة أهل الحل والعقد. وبمعنى آخر فإن الشورى في رأي خير الدين، من أهم المبادئ التي جاء بها الإسلام ، وأكد على ضرورة العمل بها، وبذلك يكون قدساير في آرائه تعاليم الدين الإسلامي، وبقي تفكيره السياسي متسقا مع مبادئه التي نصت على المشورة، وهي نظام لم يكن غريبا عن المسلمين، الذي عرفوه ومارسوه، مع الملاحظة أن هذا النظام برأي خير الدين، يتطابق في مبادئه وأصوله مع مفهوم ومبادئ الديمقراطية في العصر الحديث الذي يمارسه الغرب، ومن ثم ففي رأيه أن العرب عرفوا الديمقراطية قبل أن يعرفها الغرب[6].

في هذا السياق نشير إلى أن خير الدين التونسي، قد استقى معظم أفكاره من آراء ابن خلدون، ومن ملاحظاته للوقائع السياسية، والأحداث التاريخية التي احتك بها، وعرف أسبابها ومسبباتها، مما جعله في بعض الأحيان، يعتبر أن حكم الفرد قد يكون مناسبا إذا كان فيه خيرات للبلاد، واقتضته الضرورة، وهو في نفس الوقت يشير إلى أن ذلك الحكم، قد ينقلب ويتبدل إلى حكم استبداد مطلق، بحيث لا تصبح المصلحة العامة سمة له، وهوالأمر الذي وقع برأيه في فرنسا في عهد نابليون الأول، إذ تحول نظام حكمه من حكم ديمقراطي إلى حكم استبدادي، وفي ذلك يؤكد خير الدين أن : (ما أبيح للضرورة يتقدر بقدرها)[7]، وبالتالي فإنه من الأحرى أن لا يترك للفرد الواحد الصلاحية المطلقة في تسيير شؤون الأمة ، أي :الحكم بمقتضى إرادته.

أما إذا نظرنا إلى مفكر آخر كجمال الدين الأفغاني، مثلا، فإننا نلاحظ أنه سار في آرائه على منوال آراء خير الدين التونسي، تقريبا. فقد رأى الأفغاني، أن سبب بلاء المجتمع الإسلامي وتأخره وانحطاطه ، يعود إلى تحكم وسيادة النظام الاستبدادي في شؤون ذلك المجتمع . ولعل رأيه هذا نابع مما عاشه وعاناه الأفغاني نفسه من نظام الحكم السائد في عصره. حيث اضطهد من الخلفاء العثمانيين ولاقى منهم معاملات تعسفية استبدادية سببها في رأيه عدم خضوعهم، والتزامهم بقانون أو دستور يقيد كلا من الحكام والمحكومين على حد سواء. ولذلك كان يرى ضرورة تقييد المستبد بالقانون، وإذا خرج عليه أو تجاوزه، فإما : (أن يبقى رأسه بلا تاج، أو يبقى تاجه بلا رأس هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هي خشيت من أمرائها وملوكها عدم الإخلاص لقانونها الأساسي أو عدم قابليتهم الشكل الدستوري)[8].

وهكذا يصف، جمال الدين الأفغاني، الحاكم المستبد، بأبشع الأوصاف، واللاأخلاقية، باعتبار أن المساوئ التي يقوم بها المستبد، تشذ عن القيم الأخلاقية والاجتماعية، التي لا يكون أثرها السيئ على ذات المستبد فحسب، بل على الأمة قاطبة، وفي هذا المعنى يؤكد الأفغاني ،بخصوص المستبد أنه : (سيئ الطبع سافل الهمة شرها مغتلما جبانا ضعيف الرأي أحمق الجنان خسيس النفس معرج الطبيعة أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ... وفتح أبوابا للعدوان فيتغلب القوي على حقوق الضعيف، ويختل النظام وتفسد الأخلاق)[9].

إضافة إلى ذلك، فقد كان جمال الدين الأفغاني، يرى أن سبب استمرارية النظام الاستبدادي في دول المشرق يعود أساسا إلى عدم وجود قوة داخلية نابعة من قوة الأمة ذاتها تقف في وجهه، ولذلك فإن: (طول مكث الشرقيين تحت نير المستبدين الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم وسوء تربيتهم مع عدم وجود رادع يردعهم، ومانع يمنعهم، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم)[10]. بمعنى أن المستبدين
لا يملكون ضمائر يمكن أن تردعهم، ولا قيما أخلاقية يمكن لها أن توجه سلوكاتهم السياسية، فهم بذلك : (لا يميزون بين الحسن والقبيح، والضار والنافع وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم وما انطوت عليه من القوى المقدسة والقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة)[11].

ومن المفكرين الذين نهجوا منهج الأفغاني، في هذا الموضوع، هو محمد عبده، الذي تطرق بدوره إلى طبيعة النظم السياسية في العالم العربي، معتبرا أن النظام الاستبدادي الذي عرفه ومارسه وعايشه المسلمون، لم يكن من صميم الإسلام، ولا من شريعته، ولذلك لم يكن ذلك النظام في رأيه مرتبطا بأهداف الأمة، ولا معبرا عن آمالها ومنافعها، وقد حدد محمد عبده ، طبيعة الحكم الاستبدادي ، بأنه ذلك الذي تكون فيه الأمة : (خاضعة لحكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد)[12]. ومعنى ذلك أن النظام الاستبدادي من وجهة نظر محمد عبده مرفوض رفضا قاطعا، كما ذهب إلى ذلك خير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني. على أن رفض محمد عبده ، لهذا النوع من النظم لم يكن مبنيا على ما توصل إليه الفكر

الإنساني فحسب، بل إنه قد استند أيضا على ما تضمنته نصوص الشريعة الإسلامية ذاتها
في رفضها للاستبداد، باعتبار أن الأمة التي يتحكم فيها المستبد لا تستطيع تحقيق طموحاتها وأهدافها ومنافعها. وبالتالي فهي لا تستطيع الوصول إلى السعادة التي تنشدها كل أمة باعتبار تلك السعادة هي خاصية إنسانية ينشدها كل كائن بشري.

غير أن محمد عبده، من وجهة أخرى، يبدو متناقضا في بعض آرائه، إذ أنه يرى أن بعض الأمم لا تصلح لها إلا الأنظمة المستبدة، التي يلتزم فيها المستبد بقانون، فهو وحده الذي يستطيع أن : (يكره المتناكرين على التعارف، ويلجئ الأهل إلى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه ، فإن عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية فهو لهم أكثر مما هو لنفسه)[13]. على أن هذا المعنى الذي يحمله النص يعبر عن تفكير غير منطقي، إذ لا يمكن الجمع بين الاستبداد والقانون، لأن القانون في حد ذاته هو قيد للمستبد، وإذا كان كذلك، فكيف يقبل المستبد بهذا القيد الذي يتعارض مع طبيعته؟

ولعل آراء عبد الرحمن الكواكبي، في طبيعة النظم السياسية الاستبدادية، التي تضمنها كتابه الموسوم "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، هي التي يمكن أن تجيب بصراحة، على ما ذهب إليه محمد عبده من آراء تتميز بالغموض والتناقض.

في هذا الخصوص نشير إلى أن آراء الكواكبي في الاستبداد، لا يمكننا حصرها تفصيلا في عمل بهذا الحجم، ومن ثم فقد لا نفي الموضوع حقه، ومع ذلك فإننا سنتطرق إلى المبادئ الأساسية التي تتعلق بالاستبداد بشيء من الإيجاز. وفي هذا الصدد نشير إلى أن الكواكبي، قد فهم المستبد، عموما بأنه هو الذي يتصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى، أو هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة[14].

إلا أن الكواكبي، عندما يتعرض إلى تحديد مفهوم "المستبد" وحكومته، فإنه لا يربط ذلك بفرد واحد، كما ذهب غيره من المفكرين الذين سبقت الإشارة إليهم، وإنما قد ينطبق مفهوم المستبد عند الكواكبي، على فئة أو جماعة، التي قد يكون لها قانون أو دستور. وبالتالي فإن الحكومة المستبدة في رأيه: (تشمل حكومة الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو بالوراثة، تشمل أيضا الحاكم الفرد المقيد الوارث المنتخب متى كان غير محاسب، وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخبا، لأن الاشتراك في الرأي لا يرفع الاستبداد ... وقد يكون أحكم وأضر من إستبداد الفرد ، ويشمل أيضا الحكومة الدستورية)[15].

بذلك يظهر أن الكوكبي، من خلال النص، قد اشترط بأن تكون هناك (محاسبة) لتلك الفئات المستبدة. لكنه لم يحدد فيه من يقوم بالمحاسبة، وإن كان السياق العام في النص، يفهم منه أن من يقوم بذلك هي (الأمة).

ثانيا : طرق التخلص من الاستبداد

يرى خير الدين التونسي، بأن طرق التخلص من الاستبداد، واللحاق بركب الأمم المتقدمة والمتحضرة، يكمن في قيام المجتمع بإزالة النظام الاستبدادي، على أن زحزحة النظام الاستبدادي وإزالته لا يمكن أن تتولد من قوى ووسائل خارجة عن إرادة الأمة نفسها، باعتبار أن أمر الإزالة إنما هو موكول لها، إذ لا يمكن أن توكل إلى غيرها من الأمم، كما يمكن برأيه أن تقوم بتغيير النظام الاستبدادي، فئة معينة صالحة من الأمة، ومن ثم فإنه كما يرى خير الدين التونسي، يتعين على : (أمراء الإسلام ووزرائهم وعلماء الشريعة الاتحاد في ترتيب تنظيمات مؤسسة على دعائم العدل والمشورة كافلة بتهذيب الرعايا وتحسين أحوالهم على وجه يزرع حب الوطن في صدورهم ويعرفهم مقدار المصالح العائدة على مفردهم وجمهورهم)[16]، فمن هذا الأساس يرى خير الدين ، أنه لا بد أن يدرك كل فرد من أفراد المجتمع وكل مؤسسة من مؤسساته السياسية دوره في إحداث عملية التغيير. بمعنى أن التغيير لا يمكن أن تقوم به عناصر من خارج أبناء الأمة أنفسهم، ولعله بهذا الرأي يكون قد حسم مسألة الصراع والاختلاف التي تعاني منها اليوم، والمتمثلة في : هل نحتاج في إحداث أية عملية تغيير للنظام السياسي الاستبدادي إلى قوى خارجية؟ أم أن الأمر موكول لأبناء الأمة وحدهم، دون الاستعانة بالخارج؟ وهو في هذا يؤكد على أن أفضل من يقوم بذلك التغيير هي الأمة ذاتها.

أما جمال الدين الأفغاني ، فهو يرى في هذا المجال، أن الأمة لا يمكن لها التخلص من الحكم المطلق ومن الاستبداد إلا إذا استنارت بالعلم والمعرفة[17]، ومن خلال هذا الرأي، نرى أن الأفغاني يختلف عن التونسي،

في العناصر التي تقوم بالتغيير، مع اتفاقهما على أن التغيير لا بد أن يحدث، فالأول يرى إمكانية إنزال عملية التغيير إلى العامة من الناس المستنيرين، بينما الثاني يرى أن عملية التغيير ينبغي أن تقوم بها النخبة من الأمة. غير أن محمد عبده، في هذا الخصوص، يظهر أنه لا يشذ عن الرأيين السابقين، باعتباره يرى أنه إذا أرادت الأمة الحفاظ على مسوغات حياتها وبقائها واستمرارها، فما عليها إلا : (إجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع أفراد الأمة فتميتها وينقطع الأمل)[18].

غير أننا إذا نظرنا إلى مسألة التغيير للنظام الاستبدادي، من زاوية أخرى، فإننا نرى بأن الأفغاني والتونسي، يتفقان في أن التغيير ينبغي أن يحدث من الداخل، لا من الخارج، أي بواسطة الأمة، لأن أية عملية برأيهما، تتم من الخارج فهي باطلة ولا جدوى منها . وفي هذا المعنى يؤكد الأفغاني : (إن القوة النيابية لأي أمة لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي، إلا إذا كانت من نفس الأمة، أي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها)[19]، معنى ذلك أن الوضع الذي تعيشه الأمم اليوم في حياتها السياسية –سيما ما تقوم من تغييرات لأنظمتها السائدة واستبدالها بالديمقراطية المزعومة، استنادا إلى قوى غير قوة الأمة– مآله كما هو واقع في كثير من المناطق الفشل الذريع، مثل ذلك ما يحدث الآن في أفغانستان، بلد ألأفغاني. وكذلك الحال بالنسبة للعراق، فإذا كان نظام صدام استبداديا كما يشار إليه، الذي حاول العراقيون تغييره بقوة غير قوة الشعب العراقي،

فهل استطاعوا فعلا تحقيق البديل عنه وهو النظام الديمقراطي؟ ومن ثم هل استطاع العراقيون تحقيق الحرية والأمن والاستقرار؟ إلى غير ذلك من الأمثلة التي يمكن الاستناد إليها في هذا الموضوع.

ثالثا : النظام الديمقراطي

لقد حاول أعلام الفكر العربي الحديث، التأصيل للنظام السياسي الأمثل الذي يجب الاستناد إليه في تحقيق آمال الأمة وطموحاتها واللحاق بركب الحضارة الإنسانية، فكان النظام السياسي الذي تصوروه وسعوا إلى تحقيقه، هو النظام الديمقراطي، الذي هو وحده في رأيهم يخلصهم من النظام الاستبدادي. ولقد استمدوا آراءهم في النظام الديمقراطي، مما شاهدوه ولمسوا فضائله عند غيرهم من المجتمعات الغربية التي احتكوا بها بطرق مختلفة، سواء بقراءة أفكار فلاسفتهم ومفكريهم، أو من خلال معايشتهم لواقعهم السياسي، أو من خلال بعثاتهم ورحلاتهم العلمية. ولذلك حاولوا تبني النظام الديمقراطي في مجتمعهم العربي الإسلامي. وهو التبني الذي لم يكن مطلب العرب في ذلك العصر فقط، بل هو مطلوب عندهم اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأن النظام الديمقراطي ليس ضرورة من ضرورات التقدم فحسب، بل هو أيضا ضرورة من ضرورات الحفاظ على الوجود العربي ذاته[20].

على أن النظام الديمقراطي، بوجه عام –كما سيتضح فيما بعد– يعني في أساسه مراقبة الحكام والمحكومين على حد سواء بواسطة القوانين، ومنح الحرية للمواطنين في جميع المجالات (الفكرية، السياسية، الشخصية، الإعلامية، العلمية، الملكية، التنقل ..الخ)

وقد قسم أعلام النهضة العربية الديمقراطية –كما رأوها في أوربا، وكما كانت عليه دولهم– إلى قسمين رئيسيين : ديمقراطية ملكية، وديمقراطية جمهورية :

1. النظام الديمقراطي الملكي

لقدكان من أوائل المفكرين العرب المسلمين الذين دعوا إلى تبني النظام الديمقراطي الذي يستند إلى الدستور والقانون هو، رفاعة رافع الطهطاوي. وهو النظام الذي لم يقم الطهطاوي بتأصيله من واقعه ولا من الممارسة التي كانت تطبع ذلك الواقع، وإنما استقاه من الدستور الفرنسي الذي ترجمه وعلق عليه ولخصه لما كان في باريس، في كتابه الشهير " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وفي هذا الكتاب قدم المؤلف للفكر العربي مشروعا لنظام سياسي ديمقراطي أدرك من خلال وجوده في فرنسا ، مؤكدا بأنه هو الوحيد الذي يمكن أن يخلص الأمة العربية الإسلامية من النظام الاستبدادي الذي تعاني منه منذ زمن طويل، ومن ثم فإنه يبدو أن المؤلف قد أدك فضائل النظام الديمقراطي، من الحياة السياسية الفرنسية، ولذلك قدمه كمشروع سياسي للعرب حتى يأخذوا به ويستفيدوا من مضامينه. ومما قاله في كتابه "التخليص" أن : (ملك فرنسا ليس مطلق التصرف، وأن السياسة الفرنساوية هي قانون مقيد، بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين)[21].

في هذا الصدد ، يرى الطهطاوي، أن الدستور الفرنسي الذي يقيد الحاكم –وإن لم يكن من الشريعة الإسلامية، ولا من أحاديث الرسول صلى الله

عليه وسلم- لا يتناقض مع محتوى ما جاء فيهما، وذلك نظرا لما يحققه الدستور من منافع ومصالح للأمة، وما يتسم به من عدل وإنصاف، وهما من أسباب العمران، ومن ركائز الشريعة الإسلامية، ومما قاله في هذا الشأن، أن : (القانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن... هو القانون الذي ألفه لهم ملكهم المسمى "لويز"الثامن عشر... والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة ، ومعناه في اللغة اللاتينية ورقة، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ... وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد)[22].

ولذلك فإن الدعوة التي يتبناها الفرنسيون، في رأي الطهطاوي، وخاصة فلاسفتهم وعلى رأسهم مونتسكيو، وهي الدعوة التي أكدوا أن النظام الإسلامي هو نظام مطلق واستبدادي، هي، برأيه، من قبيل عدم معرفة الفرنسيين لحقيقة الشريعة الإسلامية وقواعدها وأحكامها، إذ أن الإسلام يقيد سلطة الحكام ولا يدعو أبدا إلى النظام المطلق، وفي ذلك يقول الطهطاوي : (إن الإفرنج وبالذات فيلسوفهم مونتسكيو ... يعدون الحكومات الإسلامية من قبل المطلقات التصرف، والحال أنها مقيدة أكثر من قوانينهم ، فإن الحاكم الإسلامي لا يخرج أصلا عن الأحكام الشرعية التي هي أساس للقوانين السياسية ولاتساع الشريعة المحمدية، وتشعب ما يتفرع من أصولها ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الإسلام لا وجه له في الشرع)[23].

وبعد أن يستعرض الطهطاوي في كتابه المشار إليه ، قواعد الدستور الفرنسي بمواده الأربعة والسبعين، يؤكد على أن النظام السياسي السائد عندهم، هو نظام ملكي مقيد بذلك الدستور، وأن ذلك الدستور ساري مفعوله على الجميع ، والجميع راضون به، لأنهم جميعا سواسية أمامه، حيث أن : (سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع، لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون حتى أن الدعوة تقام على الملك ، وينفذ فيه الحكم كغيره)[24].

ومما تقدم، نستخلص أن الطهطاوي، كان من أنصار الحكم الديمقراطي الملكي المقيد، الذي يستند إلى الدستور، ويتضح ذلك من خلال قوله : (ولما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، وجب أن توكل عنها من تختاره منها لنظام الحكم)[25].

ثم بعد فترة من الزمن، انتقلت فكرة المطالبة بالنظام الديمقراطي الملكي، إلى المفكر خير الدين التونسي، الذي ذهب بدوره إلى تفضيل النظام الديمقراطي، الممثل في الملكية المقيدة بالدستور، فهو يقول في هذا الصدد بأنه : (وجب علينا أن نجزم بأن مشاركة أهل الحل والعقد الملوك في كليات السياسة مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين لها بمقتضى قوانين مضبوطة يراعى فيها حال المملكة أجلب لخيرها وأحفظ له)[26]، غير أن ذلك لا يعني أنه لا يعرف أنظمة أخرى، بل إنه قد أشار إلى النظام الجمهوري الذي كان يسود عند بعض الشعوب الأوروبية، ولكنه رغم ذلك ، فضل النظام الملكي المقيد أو الديمقراطي، ومما يؤكد معرفته بالنظام الجمهوري قوله بأن : (الجمهورية عندهم "الأوروبيون" كناية عن انتخاب

الأمة رئيسا لدولتهم يتصرف في إدارتها بمقتضى القوانين مدة حياته، أو لمدة معلومة ثم ينتخب غيره)[27].

ولعل تفضيل خير الدين التونسي، للنظام الملكي المقيد، وميله له، يعود في اعتقادنا إلى ظروف العصر الذي عاش فيه، والمجتمع الذي عاش في ظله، وساد فيه أيضا، هذا الشكل من النظام، ومن هنا، فهو لم يطالب بإزالة النظام السائد[28] -كما طالب غيره من المفكرين العرب – وإنما كان يدعو لإصلاح ذلك النظام للوصول إلى تقييده بوضع قوانين وتشريعات لا تصطدم مع عقلية معاصريه. شريطة أن تكون تلك القوانين والتشريعات لدى النخب من الحكام والعلماء على السواء، وذلك دون النظر إلى مدى تطابق النظرية السياسية الإسلامية مع النظرية الغربية في الحكم[29]، ومن ثم كان هدفه الذي يؤكد عليه هو وجود قوانين وتشريعات تضمن العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات، وهو ما جسده في قوله حول الحكيم اليوناني حين سئل، أين تصلح السكنى؟ فقال لهم في بلد تكون فيه الشريعة أقوى من السلطان.

ويتضح من خلال هذا أن خير الدين التونسي، لم يؤصل لنظام الحكم الذي يجب أن يسود العالم العربي الإسلامي، من الغرب فحسب، بل إنه دعا إلى ضرورة الأخذ بنظامه لأنه هو وحده الكفيل برأيه، بإشاعة الأمن والعدل وروح المبادرة، وأن هذا التوجه الذي تبناه خير الدين، هو في اعتقاده لا يتعارض ولا يتناقض مع روح ومبادئ الشريعة الإسلامية ، بل هو من مقتضياتها الأصيلة[30].

غير أنه يرى كذلك ، بأن النظام الملكي الديمقراطي لا يتحقق، إلا بوجود وزراء يساعدون الملك في تنفيذ القوانين والتشريعات، ولا يكون دور الملك في القضايا الجزئية، بدوره هو النظر في الأمور الكلية العامة، ويشير خيرالدين إلى هذا المعنى بالقول بأن: (المطلوب من الملوك ليس هو مجرد التوازن الشخصي كما هو مشاهد في بعض الممالك الإسلامية، ولا مباشرة جزئيات الإدارة التي يمكن إجراؤها بغيرهم من الموظفين، إنما المطلوب منهم النظر في كليات الأمور)[31]. ومن ثم فالملك مطالب بتعيين وزراء يساعدونه في أداء وظيفته، أما مهمة الوزير فهي حسب رأي خير الدين، هي صون مصالح الشعب والدولة، ولعل ذلك كان طموحا منه باعتباره كان وزيرا يريد أن يحدد الوظيفة المنوطة به.

وتأسيسا على ما تقدم فإن الدعوة التي حمل لواءها في بداية عصر النهضة العربية، الطهطاوي، وخير الدين وغيرهما، كانت تأصيلاتها أساسا، نابعة مما رأياه وشاهداه عند الغرب، فكان الغرب بالنسبة لهما هو منبع ومصدر النظام الديمقراطي، وإذا كان ذلك على مستوى التشريع والتنظير برأيهما موجود في شريعة الإسلام ، فإن ممارساته الحديثة لم تكن إلا في الغرب، ولذلك يجب أخذ تلك الممارسة منهم.

وفي هذا الإطار يمكن أن نشير إلى رأي آخر ، مثله المفكر شبلي شميل، يرى فيه وجوب الثورة على الشرق وتغيير أنظمته السياسية، للوصول إلى ماهي عليه الأمم الأوروبية من تقدم وتطور، بدليل ما أكده شميل، حين قال : (إن حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الأخلاق إلى هذا الحد، فقد تقدم أن الفرق من عهد أبقراط إلى اليوم، بين

حكومات الغرب وحكومات الشرق، أن تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوكها... فإن ملوك الشرق مازالوا فوق شرائعهم، فأماتت حكومات من الأمة عواطف الشهامة والإقدام بما ثقلت على كواهلهم من الإذلال وسائر ما يجر إليه الاستبداد)[32].

وهكذا شبلي شميل، يرى أن أوربا قادمة على نهضة قوية لأن نظامها السياسي نظام يحكمه قانون صاغته الأمة لنفسها، الذي تصبح من خلاله تملك السيادة، وهي السيادة الحقيقية التي تسقط سيادة الملوك[33]، وعليه فإنه يظهر أن شميل، قد ربط –كما فعل غيره– بين النظام السياسي والتقدم والازدهار ، فكلاهما يلازم الآخر برأيه.

2. النظام الديمقراطي الجمهوري

لقد كان من أبرز دعاة النظام الديمقراطي الجمهوري، المتأثرين أيضا مما شاهدوه بأوربا، جمال الدين الأفغاني، الذي يشير أيضا في بعض الأحيان إلى النظام الاستبدادي المقيد، فمما ذكره بالنسبة لمزايا النظام الجمهوري، قوله : (بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها وأن المسوسين بها أعلى شأنا وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم)[34]. إن هذا النظام الذي يدعو إليه الأفغاني، هو أفضل نظام برأيه، توصل إليه العقل الإنساني وأنتجه[35]، ولذلك فهو يعتبر أن النظام الديمقراطي الجمهوري، هو أفضل الأنظمة السياسية لأنه مؤسس على القانون والتشريع الذي يراعى فيه العدل والإنصاف، وهما اللذان ترضاهما الأمة لنفسها، باعتبارها هي صاحبة وضع القانون والتشريع.

واستنادا، إلى ما تقدم، فقد كان جمال الدين الأفغاني، يرى أن الحياة الإنسانية الحقيقية هي تلك التي يحكمها ويسود فيها القانون، حيث قال: (إن الإنسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل الذي رضيه الإنسان لنفسه ... يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية وتصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية والترقي على أولى درجات الكمال وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة، وتطلب مشاركة أولي أمرهم في آرائهم وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم)[36].

وتجدر الملاحظة، في هذا الخصوص، إلى أن جمال الدين الأفغاني – وإن كان يفضل النظام الجمهوري، ويشيد به، ويدعو إليه– يرى أن ذلك النظام غير مناسب لأهل الشرق، لأن الحكم الصالح برأيه، لا يجدي نفعا في شعب غير صالح، وهذا في اعتقاده ما كانت عليه شعوب الشرق، وهو ما عبر عنه حين قال : (أما الحكم الجمهوري فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله)، فكأن عدم صلاحية هذا النظام لا تعود إلى الحكام واستبدادهم فقط، بل تعود أيضا لعدم أهلية الأمة له.

ومما يمكن الاشارة إليه أن جمال الدين الأفغاني، قد استمد رأيه السابق، من دروس التاريخ، فقد أكد أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان في الأمة رأي عام يخيفها ويلزمها في أداء واجباتها، فإذا لم يكن ذلك فإن الطبيعة البشرية

هي التي تملي على الحكام بأن يستأثروا بالمنافع، وغاية ما تتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها فإذا زالت حل محلها من لا يصلح، إذ لا شأن للأمة في إختيارها ولا رقابة لها على أعمالها[37]. إن الأفغاني هنا، يكون موقفه واضح فيما سعى إليه وهو أنه لابد لكل حكومة من قانون تسير عليه وتستند إليه في أداء وظائفها، وهذا القانون هو الذي يعبر عن الماهية الإنسانية المتميزة في صناعة القوانين.

ونستخلص مما سبق، أن الأفغاني، كان من دعاة الحكم الدستوري الذي يقيد الحكام سواء كان إستبداديا أو جمهوريا، وهذا الحكم هو الوحيد الذي يرى بأنه يؤدي إلى : (تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابي الشوري، فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا إذ يكفي فيه أحيانا إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه ... فيكون للملك الدستوري عظمة الملك، وعلى نواب الأمة نوائب المملكة ودرء المفاسد عنها والذود عن سلامتها بالأموال والأرواح). ولكنه يضيف إلى ذلك أيضا ،القول بأنه : (لا يسلم على الغالب الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان، ويعظم عليه الأمر كلما صادفه مجلس الأمة بإرادته أو غلبه على هواه)[38].

ومن هذا المنطلق فإن الأفغاني، يرى أن النظام الإسلامي الممثل في الخلافة، لا يكون صالحا لهذا العصر، حيث لم يبق نظام الخلافة إلا في شكل سلطة روحية، وليس له أية سلطة سياسية، ومن ثم فالخلافة هي أقرب إلى منصب الشرف، لا إلى المنصب الفعلي، وعلى هذا الأساس فإن

الخليفة أصبح في صورة الأب الروحي لجميع المسلمين[39]. أما الدعوة إلى إقامة نظام خلافة في عصره، إنما هو أمر غير عملي لا طائل من ورائه. باعتبار أن الأمر العملي هو أن يكون لكل بلد مسلم حكومته ونظامه السياسي، وبقاء تلك الدول الإسلامية مرتبطة روحيا ودينيا فقط، لا سياسيا، وفي هذا المعنى يقول الأفغاني : (لا ألتمس بقولي هذا أن، يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكني أرجو أن يكون مبدؤهم جميعا القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم)[40].

ونخلص مما تطرقنا إليه، في هذا الموضوع، إلى أن عبد الرحمن الكواكبي، الذي يعد من أحدث المفكرين العرب الذين تكلموا عن طبيعة الأنظمة السياسية، عندما يتحدث عن النظام السياسي فإنه لا يحدد شكله سواء كان ملكيا أو جمهوريا، وإنما يؤكد على ضرورة تقييده بالقوانين، وإن كان يميل إلى الديمقراطية الاشتراكية، التي قال بصددها : (أما عندي فيخيل إلى أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية، حيث كانت نيابية اشتراكية أي "ديمقراطية" تماما فصارت بعد الراشدين بسبب تمادي الممارسات الداخلية ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية ثم صارت أشبه بالمطلقة)[41]، فإن الديمقراطية التي يؤكدها الكواكبي، هنا، إنما هي التي تشرك المواطنين في تسيير شؤونهم وتحقق العدل بينهم من جهة، ومن جهة أخرى فهي اشتراكية أي توزع الثروة بينهم بالعدل والتساوي.

وعلى هذا الأساس، فإن الحكومة الصالحة في رأي الكواكبي، التي يتعذر عليها الاستبداد، إنما هي التي تكون : (كالجمهورية النائبة للرومان وكعهد الخلفاء الراشدين، وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموفقة لأحكام التقيد الموجودة في هذا الزمن ، وقد بلغ الرقي في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة لأن يعيش الإنسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الأديان لأهل السعادة في الجنان)[42].

وبوجه عام، فإن الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية، كما يقول محمد عابد الجابري، ليست قضية سهلة، كما أنها ليست إنتقالا من مرحلة إلى مرحلة، بل هي ميلاد جديد، وبالتأكيد فإن هذا الميلاد عسير[43]. بمعنى أن المجتمع العربي عليه أن يخلق النخب التي بإمكانها أن تولد الديمقراطية، من رحمها لامن رحم الآخرين.

الـهوامش

1. عبد الله العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1993 م، ص 92.
2. سعد الدين إبراهيم، المجتمع والدولة في الوطن العربي،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان 1988 م، ص 80.
3. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق المنصف الشنوفي، طبعة تونس، ط 2، 1972 م، ص 111.
4. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 113.
5. المصدر نفسه، ص 112.
6. معن زيادة، المجتمع المدني والدولة في فكر النهضة العربية الحديثة، ص 165.

7. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 227.
8. محمد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ، 1968 م، ص 479.
9. جمال الدين الأفغاني، محمد عبده ، العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، لبنان، ط 3، 1983 م، ص ص 145، 146.
10. جمال أبو رية، جمال الدين الأفغاني، ص ص 83، 84.
11. المرجع نفسه، ص 84.
12. محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، العروة الوثقى، 145.
13. محمد عمارة، الأعمال الكاملة لمحمد عبده،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 1972 م،ج 1، ص 716.
14. عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، موفم للنشر، الجزائر، 1991 م، ص 9.
15. المصدر نفسه، ص 9.
16. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص 156.
17. محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، ص 479.
18. رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مطبعة المنار، مصر، 1931 م، ج 2، ص 232.
19. محمد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، ص 474.
20. محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، مركز دراسات الوحدةالعربية، بيروت، لبنان، ط 2، 1997 م، ص48.
21 . الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، موفم للنشر، الجزائر، 1990 م، ص 118.
22. المصدر نفسه ، 118
23. أحمد إبراهيم الهواري، الأصالة والمعاصرة، قراءة نقدية في تخليص الإبريز للطهطاوي، مجلة الوحدة، العدد 46-47، ص 144.
24. الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، 140.
25. المصدر نفسه، 303.
26. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 103.

27. المصدر نفسه، ص 181.

28. إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث، دار الفجر، القاهرة، مصر، 1999 م، ص 286.

29. عبد المجيد الشرفي، مشكلة الحكم في الفكر السياسي الإسلامي الحديث، مجلة الاجتهاد، بيروت، لبنان، العدد 2، 1989 م، ص 75.

30. عبد المجيد الشرفي، مشكلة الحكم في الفكر السياسي الإسلامي الحديث، ص 75.

31. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 205.

32. شبلي شميل، فلسفة النشوء والارتقاء، مطبعة المقتطف، مصر 1910، ص 199.

33. المصدر نفسه، ص، 233.

34. نقلا عن : جمال أبورية، جمال الدين الأفغاني، ص 84.

35. إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث، ص 290.

36. جمال أبورية، جمال الدين الأفغاني، ص 84.

37. محمد عمارة، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، ص 79.

.38المصدر نفسه، ص 478.

39. سمير أبو حمدان ، الفكر السياسي عند الأفغاني، مجلة الاجتهاد، العدد 2، ص 101.

40.جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، العروة الوثقى، ص 112.

41. عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، دار الرائد العربي، لبنان، ط 2، 1980 م، ص 29.

42. عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، 165.

43. محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، ص 53.

حـوار الثقافات

أ.مولود طياب
(مترجم)

حوار الثقافات من قبيل حوار الحضارات، فالحضارة عبارة عما يتمتع به مجتمع من تقدم وتمدن في مختلف مظاهره العلمية والتقنية والفنية والسلوكات الأخلاقية وهي المظاهر المادية التي تتسم بها حياة مجتمع ما، بينما تمثل الثقافة الصورة النظرية لهذه الحضارة، وميراثها الفكري المسجل الذي ينقل كتاريخ لتطور المجتمع البشري، فالحضارة والثقافة عبارتان مترادفتان بمفهومهما ولا يمكن أن نتحدث عن الثقافة دون نسبتها إلى حضارة، وعن اللغة التي كانت وعاء لها.

وفي نظر المؤرخين والمفكرين أن الحضارات متعددة تنسب كل حضارة إلى المجتمع أو الأمة التي أنشأتها، وإلى اللغة التي سجلت مظاهرها ونقلتها، ولذا نقول الحضارة الغربية والحضارة العربية، والحضارة الصينية وغير ذلك من الحضارات القديمة من يونانية ورومانية وهندية، على أن الأستاذ ابن نبي يقول إن الحضارة واحدة، وأنها كالنهر الخالد الذي يختار بلدانا عديدة فيسقيها، ويعتني بما تمده به الروافد في منطقة البلد، وهذا صحيح لأن الحضارة، وبالتالي ميراثها الثقافي تتوارثه الأمم عبر العصور، وتعبر عنه بلغتها، مضيفة

إلى الميراث ما تنتجه وتكتشفه بعبقريتها الخاصة، فليس ثمة حضارة نشأت من عدم.

فالاحتكاك والصلات بين المجتمعات البشرية هو سبيل التطور الحضاري والثقافي عبر العصور، وقد سبق أن الفارابي المعلم الثاني يري أن الحكمة أي المعرفة، إنما نشأت وظهرت للوجود في بلاد النهرين، ثم انتقلت إلى مصر، وأخيرا إلى اليونانيين الذين سجلوا ميراثها...[1].

لهذا يلاحظ أن المؤرخين للحضارات والثقافات يرجعون دائما إلى حضارات المشرق وحضارات البحر الأبيض المتوسط، لتحديد سلسلة التطور الحضاري الثقافي، ومراحل التقدم العلمي والتقني وما تخللته من اكتشافات في جميع المجالات المعرفية النظرية وغير النظرية.

منابع الحضارة الغربية

الحضارة الغربية الحالية، أعني حضارة عصرنا، التي تعيشها سائر الأمم والشعوب حضارة عالمية، بلغت أوج التقدم في العلوم والتقنيات والتحكم في الطبيعة مع ما لكل شعب أو مجتمع من خصوصيات تقليدية، من عادات وطرق تفكير وتعبير عن المفاهيم المشتركة بين لغات البشرية، ومعنى ذلك أن بين الحضارات والثقافات قدرا مشتركا من المعارف العامة والمبادئ النظرية، وطرق الاستنباط المتماثلة أو المتقاربة ولكنها تعبر عنها تعبيرا خاصا بلغة وطنية محلية، فالحضارة الغربية وثقافتها في نظر المؤرخين والمفكرين المتحيزين، والمتعصبين، حضارة ترجع منابعها إلى الحضارة اليونانية وميراثها الفكري، وإلى الميراث الديني اليهودي المسيحي،

أي أنها حضارة مشرقية متوسطية، لأن اليونان مشرقيون فكريا وثقافيا، وإن كانوا جغرافيا من القارة الأوربية، فالحضارة والثقافة اليونانية من ميرات الحضارة المصرية وحضارة الرافدين كما قال الفرابي، لم تنشأ من عدم وأعلامها من اليونان وغير اليونان.

ولأن الديانة اليهودية والمسيحية لا شك أنهما مشرقيتان قد ظهرتا في الوطن المشرقي الغربي – قبل الإسلام، وانتشرت المسيحية بعد ذلك في أقطار البحر الأبيض المتوسط بجهود الآباء الدعاة ولكن لم يعترف بها الرومان إلا بعد القرن الثالث الميلادي في عهد الأمبرطور قسطنطين، فهو الذي أصدر قرارا بهذا الاعتراف سنة 313 ميلادية.

فلا غرابة إذن، إذا كان بعض المؤرخين الغربيين في عصرنا، يرجعون منابع الحضارة الغربية وثقافتها إلى المشرق، ومن ذلك بيير أميات (P Amiet) الذي يقول في مقدمة كتابه الحضارات القديمة في الشرق الأوسط[2] : "إن عنايتنا بمعرفة أمجاد ثقافتنا وأسسها ومعناها العميق، تفرض علينا تجاوز بحوثنا إلى ما قبل روما وأثينا، إلى آسيا الجنوبية الغربية، مهد الشعوب والحضارات التي كان "الكتاب" أغنى ثمراتها في نظرنا، ومن حقنا أن نطالب بملكيتنا لهذا المشرق، كما أننا من ميراثه، إذ أن الحضارات السابقة التي لا تزال حية تتمثل في الواقع كبعض ميراثنا".

أما بيير روسي (p. rossi) فيقول في مقدمة كتابه وطن (مدينة) إيزيس (la cité d'isis) "أن الأوربيين يحصرون منابع ثقافتهم في دائرتي أثينا

وروما، إن هذا التقدير خاطىء، أملته التعصباب الدينية والسياسية، فليس من شك في أن مؤرخي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المسيطرين طيلة ما يزيد عن ألف سنة على وثائق تاريخ العصور القديمة، هم الذين يقولون بذلك تمجيدا للغرب الأوربي."

ويضيف بيير روسي قائلا في هذه المقدمة "إن تاريخ المشرق والغرب إنما جرى تحت نور آسيا الفياض، وتحت سماء النيل، إن مصر وبابل (بلاد النهرين) تلقتا الإيحاءات الكبيرة التي نشأت عنها الحضارة الغربية الكبيرة التي أذاعت منذ فجر التاريخ اسلوب حياتها في سائر البلدان الواقعة بين نهر الأندلس (في الهند) ونهر الطاج (tage) في (إسبانيا)... ويقول روسي أن أوربا ليست هي مركز العالم ولا هي مرآة الخير الأسمى، إنها بنت الشرق الإفريقي الأسيوي ولا تمثل في هذا المحيط من الفضاء والزمان، إلا منطقة تعمل فيها الطاقات عملها وتجذبها بما لها من تأثير..."[3]

وقد يكون من الفائدة أن ننقل للقراء ما يقول روسي بخصوص اليونان وحضارتهم، فهو يقول: "إن هيردوت يستغرب التمييز بين أوربا وآسيا، لأنه يرى مع مواطنيه أن ثقافتهما واحدة، وفعلا إن بلاد اليونان من آسيا، وقد نقلت الميراث الفينيقي ثمرة أربعة آلاف من الجهود التي بذلتها مصر وبابيلونيا (بلاد النهرين)..." ويظيف قائلا: "إن اليهودية والمسيحية، ما هما إلا عنصر من المساهمة اليونانية إننا في الواقع أبناء آسيا وابناء العروبة النيلية والرافدية، ونطالب بجملة الميراث..."[4].

ويقول روسي بعد ذلك: "أرجعنا منبع الثقافة ونشرها إلى الهيلينية وحدها أثناء مدة طويلة، دون تقدير ما يستدعي ذلك من إعجاز، ودون الاعتراف بأن بلاد اليونان، لم تكن إلا جزءا تابعا للكيان العربي في المشرق، الأمر الذي يعترف به اليونان أنفسهم بدون أي تردد."[5] ويقول فيما يتعلق باللغة العربية:" الأولى في البحر المتوسط قبل لغة هوميز وأنها هي التي أمدت اليونانية بقوانينها".

الثقافة العربية والميراث اليوناني

إن الثقافة العربية في مفهوم بيير روسي ليست هي ثقافة القرون الوسطى، وريثة الثقافة اليونانية فحسب بل إن الثقافات القديمة في مصر وفي بلاد النهرين من الثقافة العربية، ولكن التاريخ الرسمي يفتت تاريخ العصور القديمة بين بلدان المشرق، ويعزو لكل شعب حضارة خاصة، مصرية أوبابلية كلدانية أو فينيقية، فالقضية موضوع مناقشة، لايمكن عرض آراء المؤرخين فيها، ونعني في هذه الكلمة الحضارة العربية التي انتشرت بعد الإسلام، ونشأت معها ثقافة سادت عالم البحر الأبيض المتوسط وبلدانه، طيلة سبعة أو ثمانية قرون حتى عهد النهضة الأوربية.

فالثقافة العربية خلال هذه القرون كانت ثقافة العالم المتحضر بلغتها العربية، ولا يسوؤها أن يقال إنها ورثت الثقافة اليونانية حقا، لقد ورثت الثقافة العربية ثقافة اليونان وحكمتهم وفلسفتهم وعلومهم، ولكن الأمر الذي لا نزاع فيه، هو أن الثقافة العربية كانت ثقافة مبدعين، لا مجرد ناقلين، فالثقافة العربية قد أنجبت فلسفة عربية وحكمة ذات أصالة حقيقية، كما أبدعت في

مجال العلوم المختلفة، ولم تكن مجرد وسيط بين اليونان والغرب بالنقل الصرف في جميع أبواب المعرفة، كما يذكر ذلك المؤرخون النزهاء الغربيون اليوم، فالحضارة التي توسم بها النهضة الأوربية، بنت الحضارة العربية التي نشرت معارفها في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ثم في قلب أوربا وبريطانيا، دون أي داع لذكر الأعلام الذين كانوا من نقلة العلم العربي والفكر العربي إلى هذه البلدان وإن العلم العربي بفروعه المختلفة، إنما نقله الناقلون من المصادر العربية بما فيها الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا، لقد حدثث معجزة عربية، كما كانت قبل ذلك معجزة يونانية. ويكفي أن نذكر كلمة للمؤرخة الألمانية سنجريد هونكي (s. hunke) صاحبة كتاب "شمس الله تشرق على الغرب" فقد قالت في مقدمة الكتاب "لقد آن الأوان على ما يبدو لنتحدث عن شعب (أي: العرب) قد طبع أحداث العالم بسمة عميقة: وهو شعب يدين له الغرب وسائر الإنسانية بشيء غير قليل..." ففي تلك القرون الوسطى كان العرب على أبواب أوربا طيلة ثلاثة أرباع ألفية حملة مشعل الحضارة، وقد امتد ازدهارها طيلة مدة ضعف مدة الحضارة اليونانية وكان لهم تأثير مباشر وأوسع من تأثير اليونان على الغرب، ولكن ذلك لا يسترعي الأنظار والاهتمام... ألم يحن الآوان لإنصاف شعب حرمناه بسبب تعصبنا الديني من حقه في حكم نزيه عادل، فأنكرنا إنجازاته، وسكتنا عن مساهمته في حضارتنا؟"

إن الحضارة العربية و(ثقافتها) لا يمكن تجاهلها وتجاهل ما كان لها من أثر في تقدم البشرية بمبادئها العقلية والعلمية، وحكمتها الدينية الفلسفية وقد امتد سلطانها إلى القارات الخمس ولا يزال في هذا العصر الذي غلبت فيه

المادية والسيطرة الفكرية باسم العولمة، والاستبداد السياسي والأنانيات العنصرية، إن الحضارة العربية (وثقافتها) لم يتوقف تطورها، بل أسلمت الميراث للنهضة الأوربية، التي اضطلعت برسالتها على أكمل وجه لفائدة البشرية.

الحوار الثقافي الدائم

إن الحوار الثقافي دائم بين الأمم على اختلاف لغاتها لأنها تنتمي جميعها إلى حضارة واحدة ترجع جذورها إلى منابع واحدة هي حضارات المشرق القديم ، بأديانها التوحيدية وفلسفاتها العقلية المنطقية، والحوار بين الثقافات حوار بين الحضارات، الذي انقلب في نظر بعضهم (سمويل هيومنجتون) "صداما" ونزاعا بين الشرق والغرب،أو بين الإسلام والمسيحية، بيد أنه في الواقع نزاع وصدام مختلق للدفاع عن المصالح غير المشروعة في أي مذهب ودين، والتبادل بين الثقافات أمر واقع مادام التعايش والتجاور بين الأمم والشعوب وبين لغاتها المتداخلة المترافدة وكما قال القائل:

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

إن العالم اليوم يعيش حضارة واحدة هي الحضارة الغربية العلمية التقنية، مع لكل أمة سمات وميزات خاصة، وتقاليد ترجع إلى الميراث الثقافي اللغوي، والظروف المعيشية التي تمليها كل بيئة أو محيط. فالاستعلاء الثقافي والكبرياء الحضارية مما يؤدي إلى التنافر والتناكر بين الشعوب، في حين تسعى البشرية إلى وحدة مصير تحت سلطة هيئة الأمم المتحدة

القائمة على مبدإ المساواة والعدالة والديمقراطية، وكل فلسفة لا تخضع لهذا المبدإ لا محالة فاشلة لأنها تتكر للثقافة.

المراجع (فرنسية)

1. تاريخ الفلسفة الإسلامية

- H CORBIN histoire de la philosophie musulmane gallimant 1964.

2. الحضارات القديمة في الشرق الأدنى

- P amiet : les civilisztion antiques des proches orient (que sais je) PUF 1971.

3. وطن (مدينة) إيزيس

- P. Rossi la cité d’Isis
- Nelles edition latines 1976.

4. المعجزة العربية

- Max vintejoux : le miracle arabe charlot 1950.

5. شمس الله تشرق على الغرب.

- S. HANKE : le soleil d’allah Albin Michal 1963.

الـهوامش

---

1. تاريخ الفلسفة الإسلامية هـ. كربان ص 224.

2. P Amiet – page 3 les civilisations antiques du proche orient (que sais je P U F 1971).

3. المقدمة ص 9 و 10.

4. ص 244 وطن (مدينة) إيزيس.

5. ص 33.

المؤسسات الدينية بالجزائر
خلال القرنين التاسع عشر والعشرين*

د. يحي بوعزيز
جامعة وهران

بدأت المؤسسات الدينية تظهر بالجزائر، وكل بلدان المغرب الأخرى منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) عندما وصل إليها الإسلام على أيدي الفاتحين المسلمين الأوائل. وكان المسجد هو النواة الأولى لهذه المؤسسات ثم ظهرت بالتدريج مؤسسات أخرى شاركته في رسالته وخففت عنه بعض الأعباء وهي: المدارس العلمية والكتاتيب القرآنية، والزوايا والمعمرات.

فالمساجد: وظيفتها الأساسية قيام المسلمين بأداء الصلوات فيها وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الفروض الدينية وبعض العلوم الإسلامية، وتعريف شؤون الناس وعلاج مشاكلهم وقضاياهم اليومية.

---

* أعددت هذا الموضوع وألقيته في المؤتمر الواحد والشعرين للمستشرقين الألمان بمدينة برلين الغربية في الفترة ما بين 24 إلى 29 مارس 1980.

وهي ثلاثة أنواع:

أ. نوع مما أسسه الحكام كالخلفاء والأمراء والولاة، والملوك، كجزء من عملهم الوظيفي لخدمة المجتمعات الاسلامية وتيسير سبل أداء شعائرهم الدينية، ولكسب عطف الرعية، ولربما الشهرة كذلك، ومن ضمنها بالجزائر، جامع بن مروان، وصالح باي بعنابة، وجامع الباي بقسنطينة، والجامع الكبير بالجزائر العاصمة وجامع الباشا بوهران، والجامع الكبير بتلمسان والجامع الكبير بندرومة.

ب. ونوع مما أسسه كبار الأثرياء للتقرب إلى الله واستمالة بعض الفئات الاجتماعية وشيوخ الدين، ولكسب الشهرة كذلك، وأعداد هذا النوع كثيرة بالجزائر، ومن ضمنها: جامع سيدي لخضر بقسنطينة، وسيدي رمضان وسيدي عبد الرحمان التعالبي بالجزائر العاصمة، وسيدي الصوفي ببجاية، وسيدي الهواري بوهران وسيدي الحلوى وأبي مدين بتلمسان.

ج. ونوع ثالث مما أسسته الهيئات والجمعيات الخيرية الدينية والاجتماعية كتكملة لعمل الولاة وكبار الأثرياء وشيوخ الدين وأعدادها كثيرة جدا، ولا تحصى بالجزائر وكل بلدان المغرب الأخرى بالحواضر والقرى، وكذلك الحال في معظم بلدان العالم الإسلامي.

والمدارس العلمية : وظيفتها تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية وظهرت بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واتصل المسلمون بحضارات شعوب أخرى غير إسلامية، واحتكوا بها ودعت الحاجة إلى اقتباس علومها ومعارفها والاستفادة منها، ولم يكن باستطاعة المسجد وحده أن يقوم بهذا

الدور فاهتم المسلمون بإنشاء مثل هذه المدارس وتعميمها ومن ضمنها المدرسة النظامية ببغداد والظاهرية بدمشق، والبرقوقية، والغورية بمصر الحفصية، والسليمانية، والتوفيقية، والمرادية، والشماعية في تونس، والكتانية، بقسنطينة والمروانية بعنابة، والتاشفينية ببجاية، والامامية، واليعقوبية بتلمسان.

وجرت العادة أن تؤسس هذه المدارس بجوار المساجد، نظرا للصلة الوثيقة بين الدين والعلم ولكن هذا ليس شرطا، غير أن كل مدرسة لا بد أن يؤسس داخلها بيت (مسجد) للصلاة.

وتنوعت العلوم والمعارف التي تدرس بها إلى ثلاثة أصناف:

أولا: العلوم الدينية: مثل تحفيظ القرآن وشرحه وتفسير الحديث، وتعليم الفقه والتوحيد و المنطق، والأصول.

ثانيا: علوم اللغة والأدب: كالنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض والقوافي، وقواعد الإنشاء باعتبارها أداة ووسيلة، لإتقان العلوم الدينية.

ثالثا: العلوم الطبيعة والتجريبية: كالفلك، والحساب، والطب، والصيدلة العشبية، وغيرها.

وتوجد بالجزائر مجموعة من هذه المدارس ما يزال البعض منها قائما حتى اليوم ولو كهياكل مثل مدرسة ابن مروان بعنابة، والكتانية، وسيدي لخضر بقسنطينة، والتاشفينية ببجاية، وأبناء الإمام، وسيدي بومدين بتلمسان، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، وكانت هناك مدارس بمازونة، ومليانة، وندرومة وغيرها.

والكتاتيب القرآنية: وظيفتها تحفيظ القرآن للإطفال وترتيله لهم، وقد دعت الحاجة لتأسيسها من أجل تجنيب المساجد أوساخ الأطفال وضوضائهم، والاحتفاظ بنقاوتها، وطهارتها ووقارها ليجد فيها المصلون، والمتعبدون جو الخشوع المطلوب في العبادة.

وهذه الكتاتيب أحيانا بيوت منفردة وأحيانا مجمعات من البيوت، مختلفة الأحجام والأشكال، والأغلبية من تأسيس حفظة القرآن الكريم للإرتزاق والحصول على لقمة العيش. وقد بدأت هذه الكتاتيب القرآنية تظهر منذ صدر الإسلام بالمدينة قبل هجرة الرسول، ثم انتشرت في سائر البلدان الإسلامية، ومنها الجزائر وبلدان المغرب التي تطورت فيها تطورا كبيرا وواسعا في العصر الحديث، وتكثفت في عهد الاستعمار الفرنسي خلال القرنين، 19، و 20 كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير والتمسيح والفرنسة وحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر، ولمقاومة سياسة التجهيل التي كانت تتبعها الإدارة الاستعمارية في البلاد.

وهي موجودة في كل الحواضر والقرى بصورة مكثفة كما ذكرنا ويطلق عليها في الجزائر الوسطى اسم "المسيد" بسكون الميم وكسر السين الممدودة، ويتولى تحفيظ القرآن الكريم فيها حفظة القرآن الذين يطلق عليهم اسم "الطلبة" (بضم الطاء المشددة وسكون اللام) في بعض الجهات، و(الفقهاء) في بعض الجهات الأخرى و(المشايخ)) في غيرها.

ويزدحم الأطفال حولهم ذكورا واناثا، من مختلف الأعمار ويجلسون على الأرض فوق الحصائر والمساجد، في شكل دوائر نصفية فيملون عليهم أجزاء من

القرأن الكريم يكتبونها على ألواح خشبية مطلية بطين الصلصال (الغراء)، بأقلام من القصب، وصمغ مصنوع من الصوف المحروق.

وبعد كتابته وتصحيحه، في الفترة الصباحية يتمرن الأطفال على قراءته قراءة أولية ثم يتلونه في المساء ويقرؤونه بأصوات جهورية، حتى يحفظونه ثم يمحونه في صباح اليوم الموالي، ويكتبون غيره، وهكذا بصفة دورية ودائمة حتى يأتوا على كل سور وأحزاب القرآن الكريم.

وفي العادة يتم تعليم القرآن في الصباح من الخامسة والسادسة حتى العاشرة وفي المساء من الساعة الثالثة عشرة إلى السابعة والثامنة عشرة مع راحة في الوسط قبيل صلاة العصر، غير أنه في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر جرت العادة في المدن على ممارسة تحفيظ القرآن وتعليمه في الأوقات التي تكون فيها المدارس الرسمية مغلقة بين الخامسة والسابعة والنصف صباحا والثانية عشر والثالثة عشر والنصف في منتصف النهار، والسابعة عشر والتاسعة عشر وما بعدها مساء وذلك حتى يتمكن بعض الأطفال المحظوظين من الالتحاق بهذه المدارس الرسمية الفرنسية من جهة، ثم إن الإدارة الاستعمارية نفسها ضايقت في ذلك حتى لا تبدو هذه الكتاتيب القرآنية مزاحمة للمدارس الفرنسية رغم أن أبوابها مغلقة وموصدة في وجه معظم الأطفال الأهالي الجزائريين.

وإلى جانب تحفيظ القرآن، يتلقى الأطفال في بعض هذه الكتاتيب الكبيرة قواعد تلاوة القرآن الكريم وتجويده وترتيله على الروايات السبع والعشر، ويحفظون بعض متون العلوم الفقهية والشرعية واللغوية مثل: ابن عاشر والشاطبية وألفية ابن مالك.

ويقبل الجزائريون جميعا على ارسال أطفالهم إلى هذه الكتاتيب بدون تراخ حتى الذين لا يطبقون التعاليم الدينية لأن القرآن الكريم يمثل الرمز والعنوان لإسلام الجميع والكل يحرصون على أن يبدوا ويظهروا مسلمين حتى ولو كان البعض لا يطبق مبادئه وأركانه ولا يعمل بها.

ومعظم هذه اكتاتيب القرآنية في الجزائر، بسيطة المظهر والمبنى، قليلة الامكانيات المادية، وأصحابها (الطلبة) و(المشايخ) من الطبقة الفقيرة جدا والكادحة يتصدون لتعليم القرآن في هذه الكتاتيب للحصول على لقمة العيش أساسا ويستعملون العصي والأسواط لتأديب الأطفال الشرسين والبلهاء والمنحرفين والأغلبية منهم يحفظون القرآن دون فهمه، ويلقونه كذلك للأطفال خاصة في الأرياف، ومن ضمن هذه الكتاتيب والمسيدات في حي القصبة وحده بالجزائر العاصمة:

1. مسيد برقيصة
2. مسيد سيدي بوقدور وضريحه
3. مسيد سيدي ابن علي وفريحه
4. مسيد الحمامات
5. مسيد حوانيت سيدي عبد الله
6. مسيد الدالية، واندثر حاليا
7. مسيد جامع الزاوية وهي زاوية سيدي محمد الشريف الزهار
8. مسيد جامع سفير.

رغم المظهر المزري أحيانا لهذه الكتاتيب القرآنية وفقر أصحابها، ورغم الأساليب العتيقة المتخلفة التي كانت تطبق وتتبع داخلها، فإن دورها هام جدا

في المحافظة على القرآن الكريم وعلى الطابع العربي الإسلامي للجزائر شكلا ومحتوى وفي مقاومة وإفشال سياسة التنصير والفرنسة.

والزوايا: عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام، تشتمل على بيوت للصلاة كمساجد، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم العربية الإسلامية، وأخرى لسكنى الطلبة، وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والعلف وإيواء الحيوانات التي تستغل في أعمال الزاوية.

ومؤسسو هذه الزوايا رجال دين متصوفون، متزهدون، بدأت حركتهم تظهر في المشرق الإسلامي منذ القرن 2 هـ على يد رابعة العدوية، ثم أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي، وأبى القاسم الجنيد العراقي في القرن 3 هـ (9 م) والحلاج في القرن 4 هـ وأبى حامد الغزالي في القرن 5 هـ ومحي الدين بن عربي الأندلسي في القرن 7 هـ وهكذا ومن المشرق الإسلامي انتقل الزهد والتصوف إلى بلاد المغرب وانتشر بها أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث، وكثرت الزوايا وانتشرت بشكل واسع ومكثف في القرن السابع عشر وما بعده، خاصة خلال الزحف الاستعماري الفرنسي في القرنين 19 ومطلع القرن العشرين.

وهي نوعان :

أ. نوع خلواتي يدعى شيوخها المعرفة بأسرار دينية غيبية خاصة، والقدرة على تلقينها لأتباعهم الذين يلقبونهم : "بالمريدين" والاخوان و"الفقراء" حسب اختلاف الجهات والمناطق، فيفرضون عليهم أذكارا معينة يتلونها في خلوات

خاصة معزولة ومظلمة لمدة محدودة حتى يفتح الله عليهم، ثم يخرجونهم ليصبحوا مريدين حقيقيين، بعد ذلك يفرضون عليهم أذكارا عامة تدعى (الورد) بكسر الواو، وسكون الراء، يتلونها يوميا بصورة جماعية غالبا بعد صلوات العصر والمغرب، والصبح، وأحيانا حتى بعد صلاة الظهر، وهذه الظاهرة هي التي استوجبت تسمية شيوخ هذه الزوايا الخلواتية، بالطرقيين لأن لكل واحد منهم طريقة خاصة، ذات تقاليد وأشكال، وأذكار، وأوراد، معينة يفرضها على اتباعه من الفقراء والاخوان، والمريدين وعلى سبيل المثال، الحضرة لدى العلوية، وحلقة البندير والأمواس، لدى العيساوية والعمارية.

وعندما تكون الزاوية ميسورة الحال من الناحية المادية وذلك بغنى شيخها، أو بكثرة الأوقاف التي حبست عليها، والصدقات التي ترد عليها من الأنصار والاتباع، ترتب التلاميذ والطلبة لتحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم العلوم الدينية، واللغوية خاصة الفقه والحديث والتوحيد وقواعد اللغة.

ويقوم شيخ الزاوية نفسه بمهمة التعليم إن كان مثقفا وفي حال العكس يوظف من يقوم بالمهمة بدله، ويحمل نوابع ألقاب: المقدم، والوكيل، والنقيب، والرقيب، والخليفة، حسب اختلاف الجهات.

ب. **والنوع الثاني** : غير خلواتي لايدعى شيوخها معرفة أسرار غيبية دينية معينة ولكن يتخذون لأتباعم (وردا) خاصا من الأذكار يتلونها وراء الصلوات، ويتصدون لتعليم القرآن أساسا للأطفال، وتلاوته، ولتعليم بعض العلوم الدينية واللغوية بأنفسهم إن كانوا مثقفين وبواسطة حفاظ القرآم الكريم

وبعض المثقفين الآخرين من أنصارهم واتباعهم، ومن هنا يمكن اعتبار هذا الصنف من الزوايا بمثابة كتاتيب قرآنية وكثيرا ما يكون لهذه الزوايا بنوعيها خاصة الخلواتية، فروع كثيرة داخل البلد وخارجه، فالتيجانية مثلا لها فروع في معظم بلدان القارة الافريقية وفي مصر والحجاز وبعض البلدان الاوربية، وكذلك السنوسية والعلوية والرحمانية التي لها فروع في باريس وكارديف واليمن، والحجاز، والشمال الافريقي، وأعماق الصحراء، ومما تجدر ملاحظته أن البعض من شيوخ هذه الزوايا وعددهم ليس بالقليل أميون ولكن نفوذهم وتأثيرهم كبير جدا على اتباعهم ومريديهم بما يفرضونه عليهم من أذكار وأوراد وتسابيح وتقاليد، واستفادوا من المثقفين الذين ينضمون إلى صفوفهم في كتابة وتأليف كتب دينية في الزهد والتصوف وبعض أبواب الفقه بأسمائهم، ومن أمثلة ذلك الشيخ بن عليوة صاحب الطريقة العلوية بمستغانم في النِّصف الأول من القرن الحالي، والشيخ الحداد مقدم الطريقة الرحمانية بصدوق في النصف الثاني من القرن الماضي

ومن ضمن هذه الزوايا بالجزائر :

1. الشاذلية: 658 هـ (1258 م)
2. العيساوية 936 هـ (1523–1524 م)
3. الكرزازية (الأحمدية) 1016 هـ (1608 م)
4. الشيخية 1026 هـ (1615 م)
5. الطيبية 1089 هـ (1678–1679)
6. الحنصالية 1114 هـ (1702 م)
7. القادرية 1125 هـ (1743 م)

8. الزيانية (القندوسية) 1145 هـ (1713 م)

9. التيجانية 1196 هـ (1781-1782 م)

10. الرحمانية 1208 هـ (1793-1974 م)

11. السنوسية 1250 هـ (1835 م)

وكل زاوية من هذه الزوايا لها فروع كثيرة تحمل اسماء مختلفة حسب المناطق والمشايخ، والمقدمين، وقد أورد الضابط لويس رين للشاذلية وحدها إحدى وعشرين طريقة وزاوية فرعية لكل منها كاسم خاص.

أهمية هذه الزوايا:

لعبت الزوايا الدينية، بمختلف أشكالها وأنواعها أدوارا كبيرة في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية، بل وحتى السياسية بالجزائر، وكل بلدان المغرب أغلبها إيجابي والبعض سلبي.

فمن الناحية الايجابية:

1. اهتمت بتحفيظ القرآن، ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الإسلامية المتعاقبة وعمقته بين مختلف الطبقات الاجتماعية وساعد ذلك على حمايته من النسيان والضياع والاندثار.

2. احتفظت باللغة والثقافة العربية الإسلامية ونشرتهما بشكل واسع ومكثف وفتحت أبوابها لطلاب العلم والمعرفة وانفقت عليهم بسخاء وكان ذلك شكلا من أشكال مقاومة الجهل والأمية.

3. عملت على نشر العلم والمعرفة كما عملت ضد سياسة التجهيل التي كانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية تتبعها ضد الاهالي الجزائريين، ونشر الإسلام في المواطن والاصقاع التي لم يصل إليها خاصة الأقاليم الصحراوية النائية، كما فعلت التيجانية والسنوسية.

4. عملت على ازالة الفوارق الاجتماعية بين الفئات الاجتماعية المختلفة فقربت بين الأغنياء والفقراء، والعلماء، والأميين وشرفاء الأصل وغيرهم وصهرتهم في بوتقة واحدة، وألفت بينهم جميعا في إطار مفهوم الآية القرآنية الكريمة: "إن أكرمكم عند الله اتقاكم" ومفهوم الأحاديث النبوية المختلفة مثل: "المسلمون كأسنان المشط" "ولافرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى" وهذا الجانب له أهمية خاصة في تاريخ الزوايا بالجزائر، ومعظم البلاد الاسلامية.

5. لعبت دورا بارزا في انهاء الخلافات والخصومات بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، وذلك بفضل مركز شيوخها، ومقدميها ووكلائها، فلعبت دور الحكم، وقللت من المشاكل، وتمتع المجتمع الجزائري بنوع من الاستقرار النفسي والخلقي، وساعده ذلك على التفرغ لمقاومة السيطرة الأجنبية الاستعمارية.

6. كانت هذه الزوايا بمثابة مخازن، ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل اهتمام شيوخها واتباعها بالعلم والتعليم والنسخ، والنقل، والتأليف، والجمع، غير أن معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال فترة السيطرة الاستعمارية على الجزائر وبلدان

المغرب الأخرى، وتعرض جزء هام من هذا التراث إلى التلف والضياع خلال مرحلة المقاومة للزحف الاستعماري الأوروبي في القرنين 19، و 20 وخاصة في حرب التحرير الأخيرة 1954 و 1962 بالجزائر.

7. شاركت هذه الزوايا مشاركة فعالة في مقاومة نظم الحكم الطاغية والمستبدة سواء منها المحلية أم الاستعمارية فحاربت الدرقاوية الولاة الاتراك المستبدين في شرق الجزائر وغربها وحاربت الرحمانية، والسنوسية الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وليبيا، وتصدى زعماؤها للمقاومة طيلة القرن 19 سواء وحدهم أم مع الزعماء السياسيين والعسكريين، وكنموذج لذلك: الأمير عبد القادر وزعماء أولاد سيدي الشيخ، والحاج موسى الأغواطي، والشيخ الحداد، والشيخ بوعمامة.

8. بذلت هذه الزوايا جهودا كبيرة وكثيفة في مقاومة الفرنسة والتنصير وعملت على حماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر بواسطة نشر الدين واللغة والثقافة العربية بمختلف الوسائل والسبل والامكانيات وفي كل الأوقات والظروف، وكان ذلك خيرا وبركة على الجزائر وشعبها.

ومن الناحية السلبية:

1. اتبعت هذه الزوايا أساليب عتيقة ومناهج متخلفة وتمسكت بتقاليد بالية لم تكن تتلاءم مع التطورات الحديثة التي صاحبت النهضة الأوربية الحديثة حتى ولو كانت لا تتعارض مع التقاليد العربية الإسلامية وكان هذا بمثابة تحجر إن لم نقل إنه عناد وتحد ومن هنا ساد التخلف الذهني والاجتماعي بين أتباعها الكثيرين إلا القليل منهم، وعمهم الركود والتقوقع.

2. انتشرت الدروشة والخرافات والآباطيل والبدع الدينية بين اتباعها وشيوخها بسبب ضيق أفقهم الفكري وعجزهم عن فهم التطورات القائمة والحركات الاصلاحية التي ظهرت في بعض بلدان الشرق الإسلامية حتى ولو لم تكن في المستوى المطلوب وبالطبع فإن عزل الجزائر عن العالم العربي الاسلامي من طرف الاستعمار الفرنسي له دور في هذا التحجر.

3. احتدمت الخلاقات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزوايا لأغراض شخصية حول النفوذ والمكانة الاجتماعية، وحول بعض القضايا الدينية الهامشية التافهة، وكان ذلك سببا في قيام المشاحنات، والحزازات بين الاتباع كذلك، وفي بعض الأحيان كان للإدارة الاستعمارية دور بارز في خلق هذا الخلاف وإذكائه من أجل إشغال الأهالي الجزائريين عن فكرة الثورة والتحرير.

4. استسلم في القرن العشرين معظم زعماء وشيوخ الزوايا للإدارة الاستعمارية بعد أن أصابهم العياء والوهن، وتعانونوا معها وخدموها لأسباب ودوافع متنوعة: البعض للتقية والبعض للحصول على المال، أو الجاه أو السلطة والنفوذ.

والمعمرات: عبارة عن مؤسسات ثقافية لها شبه بالكتاتيب القرآنية أحيانا وبالزوايا غير الخلواتية أحيانا أخرى، وتنتشر في أرياف الجزائر وقراها الجبلية خاصة في منطقة جبال القبائل بالشرق الجزائري، ويحضر إليها التلاميذ والطلبة من كل الجهات القريبة والبعيدة وأحيانا حتى خارج البلاد نفسها

وينقطعون فيها لحفظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله بصفة أساسية ولتلقي بعض العلوم والمعارف الأخرى الدينية واللغوية بالتبعية.

ويقومون بتسيير هذه المعمرات تسييرا ذاتيا فيما يخص النظافة والصيانة، وطهي الطعام وجلب المؤن الغذائية والمياه، ورعي حيوانات المؤسسة ويتداولون ذلك بصفة دورية منتظمة وديمقراطية وفق أعراف متداولة ومتعارف عليها من زمن بعيد.

وينقسم الطلبة والتلاميذ في هذه المعمرات إلى عدة طبقات حسب السن وحسب القدم والثقافة أهمها ثلاثة:

1. طبقة القدادشة "جمع قداش" أو التلاميذ الصغار الذين يحضرون لحفظ القرآن الكريم فقط في بداية أمرهم.

2. طبقة الطلبة الذين هم فوق القدادشة ثقافة، وقدما، ويقومون بحفظ القرآن وتعلم بعض العلوم الدينية واللغوية، وتوكل إليهم مهمة الاشراف على القدادشة في تحفيظ القرآن وعلاج المشاكل اليومية المختلفة كالتغذية، والمراجعة، والتنظيف، والنوم والاستيقاظ وغيرها.

3. طبقة المقدمين والوكلاء، والشيوخ الكبار وهي أعلى طبقة تتمتع بمزايا التوجيه للمؤسسة ماديا وفكريا ولها كامل الصلاحيات في علاج المشاكل، وتعفى من ممارسة الأعمال اليومية المرهقة والمتعبة، وغير اللائقة بمقامها.

يرأس المعمرة شيخ مسن يحمل لقب "المقدم" أو "الوكيل" ويساعده عدد من كبار الطلبة والمقدمين الثانويين وتؤدي الصلاة فيها بصورة جماعية كما يتلى القرآن

كذلك بصفة جماعية خاصة بعد صوات: العصر والمغرب، والصبح، ويدعونه "بالحزب الراتب" أي المرتب والمنتظم بصفة دائمة.

وقد لعبت هذه المعمرات دورا بارزا كذلك في تعليم القرآن وتحفيظه ونشره وتعميمه بين الأجيال الاسلامية وفي تعليم بعض العلوم الدينية واللغوية، ولو بصورة ثانوية في بعض الأحيان، واحتضنت الفقراء وآوت المساكين وقدمت لهم العون والمساعدات المجانية الممكنة ماديا وثقافيا وساعدتهم على شق طريق الحياة إلى المستقبل فتخرج منها أجيال من المثقفين ارتبط البعض منهم بحركة النهضة الفكرية الاصلاحية في القرنين الماضي والحالي، وشاركوا في نشر العلم والثقافة بهذه البلاد وقاوموا الجهل والخمول والسيطرة الاستعمارية بأشكال مختلفة، ومن أمثلتهم الشيخ البشير الإبراهيمي.

ومن ضمن هذه المعمرات في منطقة القبائل:

1. معمرة سيدي علي بن يحي في بني كوفى
2. معمرة سيدي علي أو موسى بالمعاتقة
3. معمرة سيدي عمر الشريف على ساحل دلس
4. معمرة سيدي عمر الحاج على ساحل دلس كذلك
5. معمرة سيدي منصور بالعزازقة
6. معمرة سيدي أحمد بن ادريس بعرش ايلولن بدائرة العزازقة
7. معمرة سيدي عبد الرحمن اليلولي
8. معمرة سيدي بهلول الشرفة قرب العزازقة

9. معمرة سيدي يحي العيدلي ببني عيدل.
10. معمرة سيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين
11. معمرة سيدي مخلوف بمزيتة
12. معمرة سيدي أحمد أويحي بأمالو في بني عيدل
13. معمرة فريحة بني ورتلان
14. معمرة شلاطة بيلولة أمالو لابن علي الشريف
15. معمرة العراش للشيخ محمد أمزيان بن الموهوب.
16. معمرة زرعة بأولاد حالة
17. معمرة تفرق بجبال تغرق
18. معمرة الجعافرة بني عيدل.

المصادر المالية لهذه المؤسسات الدينية

تعتمد هذه المؤسسات الدينية من الناحية الاقتصادية على مصدرين هامين ورئيسيين هما:

المصدر الأول:

الاعانات التي يقدمها لها المحسنون من الأثرياء في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية (حبوب وزيوت) وحيوانات وأدوات والبسة، ومفروشات وغيرها.

المصدر الثاني:

أموال الحبس والأوقاف الاسلامية التي يوقفها عليها الأشخاص والهيئات الخيرية والجماعات وبعض الولاة، والامراء، وتتنوع إلى أراضي زراعية وحقول للأشجار المثمرة والغلال كالزيتون والتين والخروب، والحيوانات الحلوبة والمحلات التجارية والحمامات المعدنية بالأرياف وغير المعدنية في المدن تدر عليها الأموال اللازمة للصرف على احتياجاتها المختلفة كالتغذية والانارة والتنظيف والتبييض والتأثيث والصيانة والإنفاق على طلبة العلم والعلماء والفقراء وإجراء الإصلاحات المطلوبة للمؤسسة.

وتتفرد الزوايا بمصدر ثالث يتمثل في أموال الزيارات: Les offrandes والوعادي (جمع وعدة) التي يقدمها إليها زوارها من الإخوان والاتباع، والمريدين والمحبين على شكل نقود وبضائع ومواد غذائية متنوعة وألبسة تختلف كمياتها ومقاديرها وأنواعها حسب اختلاف أهمية الزائرين ومصادر أموالهم وثرواتهم ومدى حبهم وتقديريهم للزاوية وشيخها.

وكثيرا ما تؤلف هذه المعمرات والزوايا، وفودا من طلبتها وتلاميذها والمشرفين عليها ليخرجوا إلى الأقاليم البعيدة لجمع أموال الصدقات والزيارت والزكاة في مواسم معينة مثل موسم جني الزيت والزيتون في الشتاء، وموسم جني الحبوب في الصيف وموسم الحيوانات ولحم القديد، والزبدة في الربيع وموسم الزكاة في عاشوراء محرم.

وبفضل هذه الأموال والصدقات المتنوعة، تتولى هذه المؤسسات خاصة الزوايا والمعمرات الانفاق على طلبة العلم وحفظ القرآن الكريم والقائمين على

خدمتها من الوكلاء والمقدمين والمؤذنين والأئمة والمشائخ وإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

ويمكن ايراد نموذج لأملاك هذه الزوايا والمعمرات بزاوية الحداد في صدوق وزاوية كرزاز في الجنوب الوهراني.

أملاك زاوية الشيخ الحداد بصدوق:

كانت زاوية الحداد تنفق على ما بين 200 و 500 طالب بصفة دائمة ويعد زوارها بالآلاف كل سنة وتبلغ مساحة أملاكها العقارية 502 هكتار و 52 آرا. و5 سنتيارا، وتحتوي على الأملاك التالية:

62 ضيعة فلاحية للحبوب، والغلال البعلية، خاصة التين والزيتون 06 بساتين مسقية للخضر والفواكه والغلال.

14528 شجرة مثمرة أغلبها زيتنون والباقي تين وبرتقال وتفاح وإجاص ورمان وبرقوق.

06 أحواش تحتوي على 41 غرفة

15 دكانا ومخزنا للتجارة

03 اصطبلات

03 رحايات.

01 معصرة زيتون

01 مسجد.

أملاك زاوية كرزاز:

2270 راس غنم

393 معزة

340 جملا

73 حمارا

19 حصانا

396 عبدا زنجيا ذكورا واناثا

810 نخلة

8 بنادق

موقف الاستعمار الفرنسي من هذه المؤسسات الدينية

تعرضت المؤسسات الدينية بالجزائر لمحاربة شديدة طيلة الفترة الاستعمارية بمختلف الوسائل والأساليب والأشكال لأنها كانت تمثل عائقا صلبا وشديدا ضد السيطرة الاستعمارية وسياسة الفرنسة والنتتصير والتجهيل.

فالمساجد هدم الكثير منها وحول الباقي إلى كنائس وثكنات واصطبلات ومستوصفات ومراكز ادارية وأغلق البعض منها، فمدينة الجزائر مثلا كان بها 166 مسجدا وزاوية غداة الاحتلال الفرنسي لها عام 1830 ولم يبق منها إلا بضعة مساجد لا تصل حتى إلى عشرة.

وحورب الأئمة وشيوخ الزوايا ووضع حد لنشاطهم الديني والثقافي وفرضت عليهم وعلى اتباعهم مراقبة شديدة ودائمة، ونفي الكثير منهم وشردوا إلى مناطق نائية داخل البلد وخارجه، وأرغم البعض على الاشتغال بالجوسسة

لصالح الشرطة الفرنسية وتم اغلاق الكثير من الزوايا وتهديم البعض منها خاصة التي شاركت في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

والكتاتيب القرآنية والمعمرات أغلق الكثير منها بدعوى عدم وجود رخصة لها من إدارات الشرطة واستهدف رجالها للملاحقات القضائية والمتابعات القمعية من طرف الشرطة والضباط العسكريين ومصالح المخابرات السرية وشردوا وأبعدوا.

وصادرت الإدارة الاستعمارية كل أملاك الأوقاف والحبس الإسلامية التي تمون هذه المؤسسات خاصة الأراضي الزراعية والمتاجر وحرمت تدريس أبواب الجهاد من الفقه الإسلامي ومنعت تدريس تاريخ الجزائر الوطني وجغرافيتها وراقبت الكتب التي تقتنيها وتستعملها، وشددت في منع استعمال السبورة والطباشير حتى يبقى التعليم تقليديا متخلفا، وألزمت الكثير من رجال هذه المؤسسات على التقدم إلى إدارات الشرطة بصفة دورية لبحثهم، والتعرف على نشاطهم وزوارهم ومنعت الكثير منهم من أداء واجبهم الثقافي والاجتماعي وسجنتهم ونفتهم إلى جهات كثيرة داخل البلد وخارجه.

ومع ذلك فإن هذه المؤسسات قاومت وصمدت وواصلت رسالتها بجد ونشاط بل وبعناد في كثير من الأحيان بفضل تأييد الشعب لها وانفاقه بسخاء على نشاطات رجالها وطلبتها، وتلاميذها، فأكثر من بناء المساجد والمدارس والكتاتيب وكثر ظهور الزوايا الجديدة، وبالغ الشعب في إكرام رجالها والانفاق على مشاريعهم الدينية والثقافية والاجتماعية كأسلوب من أساليب مقاومة السيطرة الاستعمارية.

ولعل أبرز دور لهذه المؤسسات الدينية بصورة عامة هو حمايتها للغة والثقافة العربية ومقاومتها الشديدة لسياسة الفرنسة والتنصير وتمسكها الشديد بحماية الشخصية العربية الاسلامية للجزائر وهو مكسب وطني هائل عاد بالنفع على المقاومة الوطنية خلال معارك التحرير المختلفة وخاصة ثورة نوفمبر 1954-1962.

حالة هذه المؤسسات في عهد الاستقلال الوطني

بعد استعادة الجزائر لاستقلالها الوطني عام 1962، استعاد المسجد دوره ومركزه بفضل رعاية الدولة له، واقبال المواطنين على دعمه بالبناء والتشييد والاصلاح، وذلك في إطار إعادة الوجه العربي الإسلامي إلى هذه البلاد كما كان سابقا.

وتحاول الإطارات الدينية أن تشرك المسجد في عمليات محو الأمية ورفع الوعي الديني والاجتماعي والسياسي للسكان، ولكن الذي يعوق رسالة المسجد حاليا هو ضعف الإطارات الدينية من ناحية التكوين الثقافي، وتحاول وزارة الشؤون الدينية أن تواجه هذا الضعف بالاهتمام بالتكوين عن طريق الإكثار من معاهد التكوين والجامعات الاسلامية والملتقيات الفكرية الاسلامية، وما تزال النتائج المطلوبة والمرجوة بعيدة.

أما باقي المؤسسات الأخرى فقد تعرضت لهزات كثيرة وتواجه حاليا ضعفا وانهيارا في مركزها وسمعتها وأنشطتها وذلك لثلاثة أسباب رئيسية.

الأول: اتجاه الأجيال الصاعدة بصفة جماعية إلى التعليم الرسمي الذي يفتح أمامهم سبل المستقبل ويساعدهم على الرقي والتطور الإجتماعي والسياسي.

الثاني: تعثر الاصلاحات التي أدخلت على أوضاع الإطارات الدينية ماديا وثقافيا، وضيق أفق العمل والتطور في هذا الميدان والتباطؤ في إنجاز مشاريع الجامعات والمعاهد الإسلامية التي تسمح بتكوين إطارات دينية كفؤة وواعية بمسؤولياتها، وواجباتها، وضعف البرامج التربوية التي كانت تطبق في المعاهد الدينية السابقة التي انجزت في عقد الستينات والسبعينات وذلك من الأسباب التي نفرت الشباب من الالتحاق بهذه المؤسسات والارتباط بها، فقل الإقبال على الزوايا والكتاتيب القرآنية والمعمرات واضطر الكثير منها إلى غلق أبوابها والذي بقي أصبح ملجأ لمن فاتهم الركب وسدت في وجوههم أبواب مؤسسات التعليم الرسمية بسبب كبرالسن أو عوائق أخرى.

الثالث: يخص الزوايا وحدها، وهو تمسكها بالطرق والثقافة التقليدية المختلفة واحتضانها لمظاهر الدروشة والركود التي تعوق الفكر والذهن عن الاستيقاظ والتطور، وتعاون البعض منها مع الإدارة الاستعمارية في العهد الاستعماري، فانحطت سمعتها وتزعزع مركزها الديني والاجتماعي وصارت الجماهير الشعبية تنظر إليها نظرة إزدراء واستخفاف ولربما احتقار، فخبا نشاطها وتوقف واصبحت تتعرض بصفة تدريجية للموت البطىء حتى لم يبق منها اليوم سوى هياكلها وأسمائها واتضح بعد الاستقلال كذلك بأن المعمرات تجاوزها الزمن في

أسلوب الحياة والتعليم والبرامج، ومحتوياتها، وجاء قرار تأميم المدارس الخاصة ليضع حدا نهائيا لها ولنشاطاتها المختلفة التربوية والاجتماعية، والحقيقة أن القضاء على النشاط الثقافي للزوايا والمعمرات والكتاتيب القرآنية كانت له انعكاسات وتأثيرات سلبية وأصبح الجميع يشعر بحدة المشكل خاصة وزارة الشؤون الدينية وإطاراتها.

ذلك أنه لوحظ عدم الإقبال على حفظ القرآن الكريم والعلوم الدينية، ونشأ فراغ ديني واسع شعرت الإطارات الدينية بخطورته خاصة بعد أن لوحظ تزايد الآفات والانحرافات الاجتماعية التي لم يكن للشعب الجزائري عهد بها قبل ثورة نوفمبر التحريرية الأخيرة.

أن المؤسسات الدينية الآنفة الذكر رغم عيوبها ومشاكلها السلبية بالنسبة للوقت الحاضر لها دور تاريخي هام في السابق، وبدلا من اهمالها وتشجيع القضاء عليها ينبغي دعمها بإدخال اصلاحات جذرية على أساليب الحياة فيها والبرامج التعليمية ومحتوياتها وبالدعم المادي لها حتى تشارك في تطوير البلاد وتنوير الأجيال.

وقد أذنت وزارة الشؤون الدينية عام 1979 بإحياء تجديد الكتاتيب القرآنية ورعايتها وتقديم العون لأصحابها حتى يؤدوا دورهم المطلوب كما أذنت بالسماح بإنشاء الجمعيات الدينية لتشارك هي الأخرى في المعركة الثقافية والاجتماعية، والمؤمل أن يسمح للكثير من المعمرات والزوايا بتجديد نشاطها الثقافي والاجتماعي في إطار اختيارات البلاد.

بقيت هناك ملاحظة أخيرة ينبغي الفات النظر إليها وهي ضرورة إعادة النظر في كيفية معالجة الشؤون والقضايا الدينية الاسلامية ذلك أن كثيرا من

الدراسات تاهت في جوانب هامشية خاصة الروحية منها ولو أنها قضايا لا يمكن انكارها.

حقيقة كان هناك اهتمام واضح لتعريف المسيحيين بكل جوانب الفكر والقضايا الاسلامية ولكن التركيز على ما يمكن تسميته بالصورة المشوهة اساءت للعلاقة بين المجتمعين: الاسلامي والمسيحي وعمق الهوة بينهما.

وبكل تأكيد فإن الكثيرين من الباحثين المستشرقين حاولوا أن يكونوا نزهاء ولم يقصدوا إبراز مثل هذه الصورة المشوهة ولكن بحوثهم انتهت إلى هذه النتيجة، إما بسبب التسرع في البحث، وإصدار الأحكام، أو الاعتماد على مصادر غير نزيهة، أو عدم الاستيعاب للمعارف الاسلامية بالقدر الكافي.

ولعل من أسباب هذا الاتجاه لبعض الدراسات الاستشراقية للقضايا الاسلامية هو إنجازها في الفترة التي كانت فيها المجتمعات الاسلامية متخلفة وراكدة، وتصورها للقضايا من ذلك الواقع المختلف، وليس من حقيقة الاسلام الاساسية، ويمكن أن نظيف إلى هذا الفترة الاستعمارية التي لها دخل في ذلك التصور الخاطىء ولكن زوالها يستوجب إعادة النظر فيما أنجز خلالها على غير حقيقته في هذا الميدان.

ببلوغرافيا مصادر البحث

أ. **بالعربية**

- بروكلمان (كارل) :
تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة فارس (نبيه أمين) البعلكي (منير)، (دار العلم للملايين بيروت 1974) (ص 901)

- بوعزيز يحي:

أ. ثورة محمد المقراني والشيخ ابن الحداد، مجلة الأصالة، عدد 2 (الجزائر – ماي 1971) (ص 22 – 29).

ب. الحقيقة عن دور زاوية صدوق والاخوان الرحمانيين في ثورة 1871 الاصالة عدد 15/14. (الجزائر ماي جوان جويلية 1973) (ص 161–172).

ج. ثورة 1871 دور عائلتي المقراني والحدّاد (لجزائر– 1978) ص 471

- الحفناوي (أبو القاسم محمد) :

تعريف الخلف برجال السلف (الجزائر مطبعة فونتالة 1906) 2 أ ج. ص 207 + ص 250.

أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا في بلاد القبائل (الجزائر، مطبعة فونتالة، 1913 ع 1321 ه) ص 127.

- ستودار (لوثروب):

حاضر العالم الاسلامي، ترجمة نويهض (عجاج) وتعليق أرسلان (شكيب)، (بيروت–1971 ج 2. م 2 ص 400.)

- الغمريني (أبو العباس أحمد بن عبد الله)

عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق ابن أبي شنب (محمد) (الجزائر – المطبعة الثعالبية) 1328 ه–1910 م) 226 + ص 8.

- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد):

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق وتعليق ابن أبي شنب (محمد) (الجزائر المطبعة الثعالبية – 1326 هـ-1908) ص 315 + 65.

– محمد (الأمير)

تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر 2 أ جـ. ط. أ. (الاسكندرية 1903) ص 314 +313

الورتلاني (الحسن بن محمد)

نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية تحقيق ابن أبي شنب (محمد) (الجزائر مطبعة فونتالة – 1908-1326 هـ) ص 819.

ب. دور المحفوظات :

– أرشيف ولاية وهران يوجد به ملف خاص عن الزوايا

– أرشيف ما وراء البحر بجامعة إيكس أن بروفانس (A. O .M) به مجموعة من الملفات أهمها :

- 16 H 1 : confrerie
- 16 H 2 : confererie des tidjaniyas.
- 16 H 2 : (2) confererie des tidjaniayas
- 16 H 3 : autres confreries
- 8 x 222 : notes sur les confreries de l'arrindissement de BATNA.

الإخراج الإذاعي

أ. إبراهيم جديدي
(صحافي)

يتمثّل فن الإخراج الإذاعي في تحويل النص المكتوب والرموز الواردة في النص إلى واقع مجسّد ينبض بالحياة والحيوية والحركة من خلال شخصيات تتحاور ومؤثّرات صوتية تجعلنا نتخيل المكان والزمان ونعيش مع الشخصيات، وموسيقى تضفي على التمثيلية جوها العام وإيحاءاتها النفسية بما يجعلنا نحن المستمعين نشارك وجدانيا مع شخصيات التمثيلية التي تشد انتباهنا وتجذبنا إلى تلك الآلة العصرية الحديثة (المذياع).

هذا هو فن الإخراج الإذاعي، أو الحلقة الوسيطة بين الكاتب الإذاعي وبين المستمعين، وبعبارة أخرى موجزة هو: "فن العرض والتقديم" الذي يتطلب إثارة الانتباه وجذب اهتمام الناس. ونستطيع أن نلمس "فن العرض والتقديم" لا عند المخرج الإذاعي ومخرج الدراما بوجه عام فحسب بل عند الكثيرين من الناس.. المخرج الإذاعي الناجح هو الذي يملك تلك الخاصية والموهبة في فن العرض والتقديم، فن الإثارة والتشويق وجذب اهتمام الناس إلى التمثيلية المسموعة، هذه الخاصية تعتمد على الموهبة أساسا والحس والفن الدرامي بطبيعة المواقف الإنسانية بما يحقق الإثارة والتشويق

والانتباه.. والواقع أن هذه الموهبة الأساسية ليست خاصة بالمخرج الإذاعي فحسب، بل هي قدر مشترك بين مخرجي الدراما سواء أكان المخرج إذاعيا أم مسرحيا أم سينمائيا أم تلفزيونيا، فكل هؤلاء المخرجين يقدمون ويعرضون علينا فنّا؛ أو بعبارة أدق: يحوّلون قصصا ورموزا مكتوبة إلى واقع مجسد يفيض بالحياة والحيوية والحركة، فإذا نحن أمام شريحة من واقع الحياة تتحرك فيها الشخصيات وتتصارع، وتتابع فيها الأحداث في نسيج فني مترابط يبرز فيه التكوين الفني المتكامل.. وإذا كان المخرج المسرحي والسينمائي والتلفزيوني تتوافر لديهم إمكانات متنوعة ومعطيات فنية متعددة تتيح للمشاهد أن يستخدم حاستي السمع والبصر، فإن المخرج الإذاعي لا تتوفر له هذه الإمكانات والمعطيات، فلا مناظر ولا ملابس ولا إضاءة ولا شخصيات تبرز ملامح وجهها وحركاتها للجمهور، بل ليس لديه إلا صوت الممثل والمؤثرات الصوتية والموسيقى، من هنا كانت مهمته تتطلب جهدا خاصا وحسا مرهفا وخيالا خصبا وعاطفة صادقة تمكّنه من تعويض النقص في الإمكانات والمعطيات الفنية المرئية حتى نرى ونسمع عمله بشغف واهتمام معتمدين على جهده الفني
في استخدام أصوات الممثلين استخداما بارعا، وحسن استعماله للمؤثرات الصوتية في مواقعها الفنية، وإجادته لاستخدام الموسيقى سواء كخلفية للأحداث أم بين المسامع في التمثيلية.

ثقافة المخرج

الإخراج الإذاعي موهبة وفن أولا، فليس أي فرد يصلح لأن يكون مخرجا ووسيطا بين المؤلف الإذاعي والمستمعين. فالموهبة فطرية لا نلتمسها في الكتب وإنما هي فطرة الله التي خص بها بعض الناس، على أن هذه الموهبة إذا توفرت في البعض فإنها تحتاج إلى الصقل والتهذيب والدراسة والثقافة العامة والخبرة بالإمكانات الإذاعية حتى تستطيع أن تؤتي ثمارها ناضجة لكافة المستمعين.. على المخرج الإذاعي أن يعمق دراسته بما يخدم تخصصه وبما يؤهله لقيادة الممثلين، فالتذوق الموسيقي مثلا أمر حيوي وهام بالنسبة له، لذا كان عليه أن يكوّن لنفسه مكتبة موسيقية، ويخصص له وقتا معينا لسماع الموسيقى على أساس الوعي والتركيز، حتى يتكون لديه رصيد موسيقي واف يعرف كيف يستخدمه عند إخراج التمثيلية الإذاعية، ودراسة المؤثرات الصوتية. ينبغي عليه كذلك أن ينمّي في نفسه الاستماع إليها، مثلا:
في الشوارع والساحات والحدائق وشواطئ البحر والأنهار والوديان إلى غير ذلك.. وعموما يجب أن تتوفر لدى المخرج الإذاعي مجموعة خصائص تتلخص في الآتي:

1. الخبرة والإحساس بالدراما.
2. الخبرة بالنماذج البشرية، والمجتمع الذي يخرج له.
3. الخبرة بالتاريخ والأحداث الوطنية والعالمية.
4. الخبرة بالأدب وفن الكتابة، والقدرة على تخيّل المواقف الاجتماعية والإنسانية.
5. الخبرة بالإمكانات الإذاعية

6. الخبرة بأسلوب التعامل الإذاعي وما يتطلبه من مراجعة وتعديل، وذلك حتى يمكنه أن يوجه الكاتب ويتعاون معه من أجل عمل فني متكامل.

7. الخبرة بالموسيقى وتذوقها، ولكنه في هذه مطلوب منه أن يكون أكثر استيعابا وتعمقا واستخداما.. فإذا كان الكاتب الإذاعي في تمثيليته مطلوب منه أن يشير إلى الموسيقى ونوعها فإن المخرج مطلوب منه تحديد القطعة الموسيقية، بل وتحديد الجملة الموسيقية نفسها التي يضعها في موقف أو مسمع معين.. فما لم يزوّد نفسه بثقافة موسيقية فإن إنتاجه سيكون باهتا خاليا من الإثارة والتشويق.. وعلى المخرج الإذاعي أن يكون نشطا يقظا، وعليه أن يستكشف في نفسه نواحي القصور أو الضعف في ناحية من نواحي ثقافته، ثم عليه بعد ذلك أن يتداركها ويعوضها وينميها، ليستكمل أدواته ومعدّاته في مجاله الفني الذي يستطيع أن يبدع فيه ويتألق على قدر ما أوتي من موهبة وثقافة وفن ودراسة لا تنتهي، بل تستمر ما دامت هناك حياة وما دام قلبه ينبض بالفن والعاطفة، وما دام عقله وخياله في عمل دائب من أجل ملايين المستمعين.

شخصية المخرج

على ضوء ما تقدم، عرفنا طبيعة عمل المخرج الذي يتلخص في : "فن العرض والتقديم" وبعث الحياة والحيوية والحركة في النص المكتوب معتمدا في ذلك على الأصوات المطلقة والصوت الإنساني المجرد عن ملامح الوجه والتعبيرات والموسيقى وصوت المؤثر وصوت الموسيقى، يقيم بناء دراميا فنتخيل صورته ومناظره وندرك زمانه وتاريخه وأحداثه وشخصياته،

ومن هذا الفهم لطبيعة عمل المخرج الإذاعي وإدراك طبيعة ثقافته العامة والفنية نستطيع أن نقف على معالم شخصيته وما ينبغي أن يتوفر في هذه الشخصية من صفات تجعله قادرا ومؤهلا لأن يتولى زمام القيادة في هذا المجال.. المخرج في كلمة بسيطة هو قائد من نوع خاص، فما لم تتوفر فيه صفات القيادة، فلن يوفق في مهمته، وبعبارة أوضح أقول: إن المخرج الإذاعي إلى جانب الموهبة والثقافة العامة لا بد أن تتوفر فيه صفة القيادة.. قد يكون الإنسان موهوبا وذا ثقافة عالية في مجال الفن والأدب، ولكن تعوزه الشخصية القائدة، حينئذ لا يكون أهلا لتولّي زمام القيادة في مجال الإخراج الإذاعي.

القدرة على قيادة الآخرين

على المخرج أن يكون قادرا على قيادة العاملين معه في التمثيلية الإذاعية أو المسلسل الذي قد يمتد إلى ثلاثين حلقة أو أكثر، وفي نفس الوقت ينبغي أن يكون ملما إلماما كافيا بطبيعة الظروف المحيطة بالإذاعة التي يتعامل معها وإمكانات الممثلين وإمكانات الفنيين حتى يستطيع أن يتصور خطته في تنفيذ التمثيلية، وأن يضعها موضع التنفيذ وفقا للإمكانات المتوفرة لديه... المخرج هو الذي يدرس تلك الإمكانات ليتمكن بدوره من وضع تصور عام وخطة عمل للتنفيذ، وبذلك سيكون الجو مهيئا وممهدا للالتقاء الفني على نحو من الهدوء والانسجام وهدوء الأعصاب وضبط النفس بما يحقق في النهاية عملا فنيا متكاملا مستوعبا لتفاصيل البناء الدرامي للتمثيلية الإذاعية.

مراحل إخراج التمثيلية الإذاعية

يمر النص الإذاعي بمراحل إدارية وفنية بعد أن يسلمه الكاتب إلى دار الإذاعة في قسم مراجعة ومراقبة النصوص، تبدأ هذه المراحل بتحويل النص إلى لجنة القراءة لتقويمه ومعرفة مدى صلاحيته من جميع الاتجاهات السياسية والفنية والأخلاقية.. وقد يتعرض النص للمناقشة من قبل لجنة القراءة (لجنة النصوص) التي تنتهي في قراراتها إلى أي من الأمور الثلاثة:

1. القبول.
2. تعديل النص من قبل المؤلف وفقا لملاحظات لجنة القراءة.
3. رفض النص.

فإذا قررت لجنة القراءة قبول النص، فإنه يحوّل إلى قسم الإخراج والتمثيل ليتولى القسم تكليف أحد المخرجين بإخراج النص المقبول.

قراءة النص

1. من هذه النقطة يبدأ عمل المخرج، ودوره في هذه المرحلة نفس دور المخرج المسرحي، إذ عليه أن يقرأ النص أولا قراءة عامة وسريعة ليسجل انطباعه ومشاعره، وفي هذه القراءة الأولى يستطيع المخرج أن يتخيل الجو العام للتمثيلية وفكرتها الرئيسية وطابعها العام: هل هي مأساة أو ملهاة أو مزيج بين الاثنتين أو عاطفية أو اجتماعية.. كما يستطيع في هذه القراءة أن يحدد توقيت النص توقيتا مبدئيا، ولا شك أن القراءة الأولى الجهرية ستكون عونا للمخرج في كثير من الأمور السابقة.

2. يحتاج النص إلى قراءة ثانية أكثر تفحصا وعمقا، وفي هذه المرة تكون القراءة مع مساعد المخرج ليشترك الإثنان في التصور العام للتمثيلية ووضع خطة العمل والتنفيذ.. وفي هذه القراءة يستطيع أن يتصور شخصيات التمثيلية ويدرك أبعادها الاجتماعية والنفسية ويدرك العلاقات بين الشخصيات، ويحدد المؤثرات الصوتية المطلوبة لتحضيرها ونوع الموسيقى الملائمة، كما عليه في هذه القراءة الثانية أن يقوم بعملية التوقيت ليتبيّن الزمن الذي تستغرقه، فإن كان الوقت زائدا أمكنه الاختصار بواسطته أو بواسطة المؤلف إن كان موجودا معه
في هذه القراءة... ولا شك أن التوقيت في هذه المرحلة كذلك لا يكون دقيقا، وحتى يضمن المخرج الاقتراب من التوقيت السليم عليه أن يقرأ النص بدون توقف محاولا قدر الإمكان استخدام المؤثرات الصوتية مثل: "الطرق على الباب أو تقليد صوت الجرس أو فتح النافذة" فإذا توقف عن القراءة حسب الزمن الذي توقفه، ثم جمعه في نهاية القراءة وطرحه بعد ذلك من الزمن الذي استغرقته القراءة.

3. على أن هذه القراءة الثانية لا تكفي، بل لا بد من قراءة ثالثة يسبر فيها أغوار الشخصيات ويحدد بالضبط تفاصيل خطة الإخراج على الورق ويحدد أماكن المؤثرات الصوتية واستخدام الموسيقى، وبعبارة أدق لا بد للمخرج في هذه المرحلة أن ينفُذ بفكره وخياله إلى النص وتفاصيله ليبرز العواطف الكامنة فيه ويكون أكثر قربا من الشخصيات.. فإذا كان بصدد تمثيلية تاريخية أو قصة معدة إعدادا إذاعيا فلا بد له أن يستقي معلوماته من المراجع التاريخية لتكون الشخصيات أكثر وضوحا، فمثلا إذا كان المخرج

بصدد إخراج تمثيلية عن صحابي من الصحابة الأخيار –رضوان الله عليهم– فعليه أن يقرأ ما كُتب عن هذا الصحابي الجليل ليعيش معه ويتبين ملامحه ويدرك الخط الذي التزمه الكاتب الإذاعي.. فهذه القراءة تزيد من فهمه وإدراكه للنص وتسهل له عملية الإخراج وتوجيه الممثلين.. وهذه القراءة الثالثة يخرج منها المخرج وقد تصور التمثيلية المسندة إليه إخراجها تصورا كاملا مستقصي الجوانب سابرا لشخصياتها، وتلك القراءة لا شك ستعينه على اختيار الممثلين الذين سيتعاونون معه في تجسيد التمثيلية الإذاعية.

اختيار الممثلين وتوزيع الأدوار

بعد القراءة الثالثة المتعمقة المستقصية لجوانب التمثيلية الإذاعية، والخروج منها بتصور عام لشخصياتها وإدراك العلاقات بين الشخصيات، يستعرض المخرج ومساعده الممثلين المناسبين للتمثيلية من بين قوائم ممثلي الإذاعة المعتمدين في التعامل معها والعاملين بالمقابل... وهذه المرحلة من أهم وأدق مراحل الإخراج: وضع الممثل المناسب في الدور المناسب دون تحيز أو محاباة، ويلاحظ أن 60 % من نجاح التمثيلية الإذاعية متوقف على حسن اختيار المخرج للممثلين، فإذا أحسن المخرج الاختيار وجد في هؤلاء الممثلين وسيطا جيدا موصلا فكرة التمثيلية لجميع المستمعين ووجد أن الـ 40 % الباقية تكمن في توجيهاته وحسن استخدامه للمؤثرات الصوتية والموسيقية.. وينبغي أن نراعي أن اختيار الممثل المناسب ليس معناه أن هذا الممثل هو الأحسن، فقد يكون مستوى الممثل فنيا متوسطا ومع هذا يكون أنسب للدور، وفي المقابل قد يكون الممثل نجما لامعا ولكنه ليس مناسبا لدور

معين.. بناء على ذلك فإنه من الضروري للمخرج أن يضع الاعتبار الفني فقط في المكان الأول دون تحيز أو تمييز شخصي، وتلك مسألة تتطلب منه الدقة والأمانة الفنية في توزيع الأدوار واختيار الممثلين، بل وقد تتطلب منه جهدا خاصا

في تدريب وتوجيه الممثل، بل وقد تتطلب منه كذلك بذل قصارى جهده لاختيار الممثل المناسب للدور، إذا كان هذا الممثل في مستوى متوسط فالمخرج يجب أن يضع في اعتباره أن الممثلين ليسوا جميعا أكفاء مجيدين، بل منهم الممتاز والجيد والمتوسط وبين هؤلاء جميعا يكون التعامل، فقد يكون الممثل المناسب للدور من الفئة المتوسطة ولكنه يحتاج إلى جهد خاص في التدريب والتوجيه، وفي هذه الحالة على المخرج أن يضحي من جهده ووقته لكي يحقق عملا فنيا جيدا على الأقل، ولكي يسهم بدوره في تكوين ممثل إذاعي يثري رصيد الإذاعة من الممثلين.

وعلى العموم فإن المخرج عليه أن يراعي الآتي عند اختياره للممثلين:

1. الممثل المناسب للدور المناسب بصرف النظر عن الشهرة أو التحيز.

2. أن يراعي صفات الصوت الإذاعي من الجرس والوضوح وقوة الأداء والتعبير.

3. على أن هذه الصفات بميزاتها ليست هي الحاسم عند الاختيار بل لا بد أن تؤازرها قوة التمثيل والتنوع والإيحاء النفسي والتلوين الذي يدفع الرتابة في الأداء.

4. لا بد من مراعاة التباين والاختلاف بين الأصوات وعليه أن يبتعد عن الأصوات المتشابهة خاصة إذا كان الممثلان سيشتركان في مسمع واحد.

5. القدرة الخاصة للممثل على أداء دور من نوع معين ينفرد به عن الآخر.. هذه الاعتبارات جميعها إذا ما راعاها المخرج فإنه سيجد نفسه يرتاد الطريق السليمة لإخراج التمثيلية بما يضفي عليها رونقا وبهاء ويجعلها حية شيقة إلى جمهور المستمعين.

تدريبات الممثلين

عندما يحضر الممثلون تدريبات التمثيلية في الزمان والمكان المحددين، يكون المخرج قد أعد النسخ المكتوبة على آلة، وأعد لكل ممثل نسخة كاملة من التمثيلية.. وعلى المخرج أن يحضر في الزمان والمكان المحددين إن لم يكن حضوره قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل حتى يتهيأ نفسيا للتدريب.. والأمر كذلك بالنسبة للممثلين، حتى تسير خطة الإخراج في إطارها المرسوم... وجرت العادة أن تكون مواعيد التدريبات قبل دخول "أستوديو التسجيل" بيومين أو ثلاثة أيام وذلك حتى يتحقق وقت مناسب للتدريبات قبل دخول الأستوديو.. وفي القراءة الأولى مع الممثلين يحاول المخرج أن يعطي للممثلين فكرة عامة عن التمثيلية وعن طابعها العام ومواقفها الدرامية، وعن الشخصيات وطبيعة كل شخصية وأبعادها وعلاقة كل شخصية بالأخرى.. ثم يبدأ الممثلون في القراءة الأولى التي يمكن اعتبارها قراءة تصحيحية خاصة إذا كانت التمثيلية بالفصحى، ففي هذه الحالة يركز المخرج على صحة اللغة والنحو وما يتصل به من تشكيل، سواء أكان يتولى ذلك بنفسه أم بحضور

المؤلف أم بمعاونة الممثلين أنفسهم لأن القدرات والكفاءات تختلف من شخص لآخر، أم بحضور أحد المراجعين الذين توكل الإذاعة إليهم هذه المهمة التي تبرز أهميتها إذا كان العمل دينيا أو تاريخيا.. والمفروض أن تكون للممثل ثقافته اللغوية والنحوية التي تمكنه من الاعتماد على نفسه في الضبط النحوي حتى لا يضيع وقته ووقت زملائه.

عموما فالقراءة الأولى قراءة تصحيحية لتحديد الألفاظ وضبطها وتحديد مواطن الوقف التي ينبغي على الممثل أن يراعيها ويستفيد منها في أدائه التمثيلي الإذاعي.. وفي هذه القراءة لا يتدخل المخرج إلا بمقدار ما يتحقق به الأداء من ناحية تصحيح بعض الأخطاء المطبعية أو غير الواضحة، ومن ناحية سلامة النحو والضبط الإعرابي، وذلك حتى يتيح للممثل فرصة تصور دوره وأدائه بما يضفي عليه من شخصيته وفنه.

تجربة المستويات الصوتية والتوازن الصوتي

من خلال قراءة التمثيلية والتدريب عليها يستطيع المخرج إلى حد كبير أن يحدد المستوى العام للأصوات: هل الحوار همس؟ أو صوت عال وبحدة بين متخاصمين؟ وهل الممثل يتكلم مع فرد أو اثنين؟ أو يتكلم مع حشد من الجماهير؟.. فهذه الاعتبارات الدرامية تحدد المستوى الصوتي وموضع الممثل بالنسبة للميكروفون: هل يقترب أو يتوسط أو يبتعد؟ وهل يأتي قادما من بعيد؟ أو يذهب بعيدا عن الميكروفون؟.. ووفقا لهذه الاعتبارات الدرامية وأنواع الميكروفونات يحدد المخرج للممثلين أماكن وقوفهم بالنسبة للميكروفونات الموجودة في الأستوديو، وعليه بعد ذلك أن يجري تجارب

مستوى الصوت بالتعاون مع مهندس الصوت، حتى يدركا المستوى الصوتي للأصوات المجردة وكيف يمكن أن يتم تنفيذ الاختفاء التدريجي للصوت.. هل بواسطة الممثل؟ أو بواسطة المفتاح الخاص بالميكروفون الموجود في الحجرة في اللوحة الخاصة بالأجهزة والتحكم فيها Le pupitre.

كما عليه أن يجري تجاربه في مختلف أنحاء الأستوديو ليدرك أي الأماكن أنسب وضعا للممثلين والميكروفونات.. وبالتعاون مع الممثلين والتقنيين يستطيع أن يحدد المستويات الصوتية المطلوبة. تبقى بعد ذلك عملية الموازنة بين أصوات الممثلين، أو بينهم وبين الموسيقى والمؤثرات الصوتية بحيث يكون التوازن بين الممثلين مناسبا لطبيعة الموقف الدرامي، وبحيث لا يطغى صوت الموسيقى على كلام الممثلين، ولا يطغى المؤثر الصوتي ولا يطمس أصوات الممثلين.. يجب أن يكون هناك تناسق وتوازن بين هذه الأصوات جميعا بحيث تتكاتف في تجسيد التمثيلية أو العمل الدرامي بصفة عامة.

التجارب المتكاملة وتسجيل العمل الدرامي

بعد عمليات القراءة والتدريبات الفنية للممثلين واختيار الموسيقى والمؤثرات الصوتية، وبعد إجراء التجارب الخاصة بالميكروفونات وأجهزة التسجيل، تأتي مرحلة هامة جدا، تلك هي عملية نسج أصوات الممثلين الحية والموسيقى والمؤثرات الصوتية في نسيج درامي متلاحم وتلك المرحلة الهامة التي يتكون فيها العمل الدرامي ويمتزج ويتلاحم من العمليات المعقدة والهامة.. لذلك فإن هناك أسلوبين اثنين يمكن اتباعهما في هذه المرحلة:

- **الأسلوب الأول :**

بعد عمليات القراءة وتدريبات الممثلين خارج الأستوديو وبعد أن يكون المخرج قد اختار الموسيقى والمؤثرات الصوتية وحدد أماكنها على نسخة الإخراج ونسخ الممثلين وحدد لهم أماكن الوقف ومدته، وبعد أن يكون قد أجرى تجارب الميكروفونات والمستويات الصوتية، بعد كل هذا يستطيع أن يجري تجاربه على النص داخل الأستوديو متكاملا بأصوات الممثلين الحية وموسيقاه ومؤثراته الصوتية. وفي هذه المرحلة لا بد من حضور كل ممثل وفنّي له دوره في عملية الإخراج.. الممثلون متهيئون بل مستعدون وحاضرو الذهن ومدركون للحظة التي يتقدمون فيها للميكروفونات وفقا للمستويات الصوتية، ومهندس الصوت مستعد بكل حواسه للتسجيل والتنفيذ، ومساعد المخرج مستعد بالموسيقى والمؤثرات الصوتية.. ومن خلال هذه المراحل المتكاملة يستطيع المخرج توقيت النص توقيتا أقرب ما يكون إلى الدقة، كما يستطيع أن يدوّن ملاحظاته على نسخة الإخراج سواء بالنسبة لأداء الممثلين أم لبعض الفقرات الموسيقية أم المؤثرات الصوتية، وعلى ضوء تلك الملاحظات يستطيع أن يجري مزيدا من التجارب في بعض المسامع أو مع ممثل بالذات لشرح وتوضيح موقف درامي معقد أو لمساعدته على التغلب في صعوبة قد تعتريه أثناء التمثيل. كما يستطيع أن يعيد التجربة على موسيقى معينة أو مؤثر صوتي بالذات خاصة إذا كان ذلك خليفة لحوار معين.. وقد يعيد المخرج بعد هذه التجربة المتكاملة والتوجيهات المهمة للنص على ضوء ملاحظاته التي أبداها لجميع المتعاونين معه في تجسيد هذا العمل الدرامي.. وبعد هذه التجارب المتكاملة يبدأ التسجيل متكاملا

بأصوات الممثلين والموسيقى والمؤثرات الصوتية. وعلى المخرج أن يتوقع بعض الأخطاء في مرحلة التسجيل، فلا ينبغي له أن يثور ويغضب، فللتسجيل داخل الأستوديو رهبته، والتركيز قد يرهق الممثل فيدفعه إلى التلعثم لا شعوريا حتى ولو كان من كبار الممثلين.. فعلى المخرج في هذه المواقف أن يكون هادئ الأعصاب مستقر النفس متيقظ العقل لكل خطإ في التسجيل سواء أكان من جانب التمثيل أم الموسيقى أم المؤثر الصوتي.. وعليه في هدوء ورفق أن يطلب من الممثل إعادة المسمع دون إطالة في الشرح.. وهكذا مسمعا بعد مسمع حتى ينتهي من التسجيل بعد أن يكون قد وفر لها جوا فنيا يبعث على الإجادة والتكامل في رفق ومرونة وحزم وصبر وأناة.

- **الأسلوب الثاني :**

وهناك طريقة أخرى للتسجيل، وتقوم هذه الطريقة على تسجيل أصوات الممثلين الحية مجردة من الموسيقى والمؤثرات الصوتية، وقد يكون هناك أكثر من تسجيل للمسمع الواحد.. وعلى المخرج في هذا الأسلوب الثاني أن يراعي أداء الممثلين في مسامع "العمل الدرامي" وأداء كل ممثل وما قد يعتريه من تلعثم أو ضعف في التمثيل كما هو الحال تماما في الأسلوب الأول.. وبعد أن ينتهي من تسجيل "العمل الدرامي" تمثيلا فقط، يعكف مع مساعده ومع مهندس الصوت لإجراء عملية التركيب والمزج Montage & Mixage أي عملية اختيار المسامع والمزج بينها وبين الموسيقى والمؤثرات الصوتية حتى ينتهي من التسجيل النهائي.

هاتان هما الطريقتان المتبعتان في التسجيل، ولكل منهما مزاياها وعيوبها.. أما مزايا الطريقة الأولى فإنها تكمن في تقديم عمل فني متكامل يتحقق الاندماج

والتفاعل فيه بينه وبين زملائه وما يحيط بالأستوديو من عمل موحد جماعي لا يقطع وحدة وتماسك الشعور والأحاسيس والبناء الدرامي.. هذا فضلا عن أن هذه الطريقة أكثر سرعة وإنجازا بالنسبة للإذاعة.. وعيبها أنها تتطلب جهازا بشريا فنيا مدربا على أعلى مستوى من الكفاءة الفنية والتدريب والسرعة حتى لا ترهق الممثلين في الأداء.. أما مزايا الطريقة الثانية فإنها لا ترهق الممثلين ولا المخرج وتتيح لهم فرصة من الوقت تعاونهم على جودة الأداء التمثيلي في هدوء وروية بعيدا عن انشغالهم بمشكلات الموسيقى والمؤثرات الصوتية.. وعيبها أنها قد تَحول دون الاندماج المتكامل الحي بين عناصر العمل الدرامي إلى جانب أنها تستغرق وقتا طويلا موزعا بين تسجيل أصوات الممثلين وبين عملية التركيب Montage.. والمخرج هو الذي يختار حسب نوعية العمل والظروف، ونوعية الممثلين والفنيين هي التي تحدد اختيار هذا الأسلوب أو ذاك.. وبعد الانتهاء من التسجيل ينبغي على المخرج أن يشكر الممثلين والمشرفين على الجهاز الفني والمشرفين على الرقابة وكل من ساعده في تجسيده لهذا العمل الدرامي، حتى ولو لم يكن راضيا كل الرضى عن الشكل النهائي لعمله الفني، فلا بد أن تكون علاقته مع الجميع علاقة تقدير ومودة واحترام.

مراجع الموضوع

1. الإذاعة والتلفزيون، تأليف: والتر كينجون، روم كادجيل ورالف ليفي ألنا، ترجمة: نبيل بدر، طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة.

2. السينما والإذاعة (نجوم العين والأذن)، تأليف: توفيق الحكيم، نشر دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية سنة 1973.

3. الإذاعة والتمثيلية المسموعة، تأليف: فاروق حيدر، منشورات اتحاد إذاعات الدول العربية، طبع سنة 1984.

4. قواعد البناء والتركيب الدرامي، تأليف: محمد رضا حسين رامز، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، طبعة أولى سنة 1972.

5. محاضرات في فن الإخراج الإذاعي، وضع الأستاذ: أحمد فيلالي، ألقيت بمركز التكوين للإذاعة والتلفزيون سنة 1982.

6. لمحات عن التمثيلية الإذاعية، تأليف : محمد ماهر فهيم، طبع الدار العربية للكتاب، ليبيا/تونس، طبعة أولى سنة 1977.

7. رسائل التعليم والإعلام، تأليف: فتح الله عبد الحليم السيد وإبراهيم ميخائيل حفظ الله، نشر مؤسسة عالم الكتب، القاهرة.

اللغة العربيـة والصحافة

د. صالح بلعيد
(جامعة تيزي وزو)

الإشكالية

قد يبدو العنوان مثيراً ومغرياً، أو يمكن أن يكون شعاراً إشهاريا ليسيل مداد الأقلام، ولكنّه غير ذلك، فهو مستقى من شكاوى نسمعها على ألسنة المتمدرسين والممارسين للغة العربية، بأنّ للصِّحافيين ضلعاً كبيراً في تردّي اللغة العربية، وهذا من خلال ما يُسمع أو ما يُقرأ في وسائل الإعلام من لغة ركيكة منحرفة عن أصولها، ومن إسفاف مبتذل في خصائص اللغة، ومن عدم التحقيق في بعض القضايا اللغوية التي جعلتهم يحرّفون العربية أيّما تحريف. وهنا يقع اللوم على لغة الصِّحافة المعرّبة بأنّها من العوامل المساعدة على فساد اللغة العربية؛ حيث لم يولِ بعض الصِّحافيين المعرّبين ما يجب عليهم أن يولوه أو يلتزموه تجاه اللغة العربية التي يوظّفونها، من احترام قواعدها، والتفريق بين ما يجوز التمييز به، وما لا يجوز، وعدم الإلمام بين ما يُباح في لغة الشعر، وما لا يُباح في لغة النثر، وبين أماكن تسمح بأغلاط توجد لها تخريجات، وبين أغلاط لا مخرج لها... ومن هنا يعمل هؤلاء

الصِّحافيون على تشويه العربية أكثر ممّا يرقّونها وينفّرون القارئ / المستمع/ المشاهد، أكثر مما يشدّونه إلى هذه اللغة الجميلة الشابة، بل يصل الأمر ببعضهم أن يوسم هذا التردّي بجناية الصحافة على اللغة العربية. وتسمع من خلال ذلك من ينادي برفع الغبن عن اللغة العربية من الضعف اللغوي الملاحظ في لغة الصِّحافة، وأنه من الضروري إنقاذ العربية من الصِّحافيين الذين لم يراعوها حقّ رعايتها في مختلف المواقع ومختلف المقامات التي كان يجب عليهم أن يحسنوا تأديتها. وقد لحق ذلك مستعملي هذه اللغة تأثّراً بلغة الصِّحافيين ونتوجّس خيفة من خطر المسخ الذي لا يأتي إلا بضعف ونشاهده يتّسع باستمرار[1]. ويصوّره بعضهم بالمحنة اللغوية المعاصرة، واللوم الكبير في هذا المجال يقع دائماً على الصِّحافيين؛ حيث إنّهم يتحكّمون في سلاح الإعلام (القوة الرابعة) الذي له سلطة النفوذ إلى مدارك القرّاء والمستمعين والمشاهدين، ولم يستعملوه في صالح ترقية اللغة فبقيت اللغة العربية في يدّ الصِّحافيين تشهد انحداراً، هذا من جانب، ومن جانب آخر سكوتهم عن التردّي اللغوي العام الذي تشهده اللغة في عديد المستويات، ونعلم أنّ ما تؤدّيه الصِّحافة من وسائل التنبيه على القصور اللغوي أمر خطير وهام؛ حيث يعمل على مراجعة كثير من الأشياء، وقد تحمل الصحافة بعض المؤسّسات الفاعلة على مراجعة نفسها، خاصة إذا قويَ الضغط العلمي الموضوعي البعيد عن التهويل والشعارات. "... وقد توضّح مجموعة كبيرة من القضايا التي تفسّر جوانب القصور في المؤسّسات التنفيذية فتنطق بحالها، وتدافع عنها، وتساعد على معالجتها، لدى المؤسّسات الفاعلة في

اتّخاذ القرار[2]" ومن هنا نعلم أنّ الصحافة يمكن أن تؤدّي دوراً إيجابياً أو سلبياً في توجيه الرأي العام تبعاً لدرجة توافقها مع الوضعيات التي تتبنّاها. وهكذا ينبع الفعل الهام الذي يمكن أن تؤدّيه الصحافة في التصحيح اللغوي المطلوب، حيث تكون لسان حال اللغة العربية إذا أحسنت التحكّم فيها والدفاع عنها، وتعمل على نشرها على نحو مقبول. ولكن يبدو أنّ هذا لم يحصل، فبات الأمر يشتدّ ويزداد تدهوراً والقضية تستفحل باستمرار، وعلى لسان وكتابات صحفية. ومن ذلك نجد أولي الأمر يتحدّثون بقلق، وينشغلون لهذا التردّي الذي يصاحب تدهوراً فظيعاً
في بعض المواطن جرّاء الخروج غير المألوف عمّا عرفوه من النماذج الفصيحة في الاستعمال وما أقرّته كتب النّحو، أو الدراسات اللغوية الأكاديمية، ولم يتحدّثوا في هذا إلا بعدما تبيّنوا استعمالات مقلقة في لغة الكتّاب تحذو حذو هذا الخروج الصِّحافي فوقع التنبيه والاهتمام بدراسة وتصحيح وردّ أخطاء وسائل الإعلام المقروءة أولاً، ثمّ جاء دور تصحيح لغة الإعلام المرئية التي حلّت متأخرة بتأخّر توظيفنا للوسائل المرئية.

وإنّ هذه الأمور ما كان ينبغي السكوت عنها من قبل المثقفين عامة، ومن رجال الإعلام على وجه الخصوص، لما يملكونه من وسائل خارقة للحدود، فهم أولى الناس للمبادرة بوضع الحدود للهوية اللغوية التي يتهدّدها وضع لغوي خطير، وإن وقع تحجيم هذا الأمر قد يؤدّي إلى فراغ ثقافي ولغوي يوصلاننا إلى حالات وهمية لا مرجِع لها، ويفتح الباب لانفصال لغوي جديد. ويقول عبد السلام المسدي: إنّ اللغة العربية بما هي حامل

للهوية الثقافية، وضامن لسيرورة الذات الحضارية لا يتهدّدها شيء مثلما يتهدّدها صمت المثقف؛ وهو ينظر إلى الزحف اللهجي يكتسح مجالاتها الحيوية، ولا سيّما في الإبداع الثقافي، وفي الحديث عن كلّ شأن ثقافي مهما تقلّصت أبعاده أو انكمشت أحجامه أو ضؤلت أوزانه. وليس من حقّ العرب في أن يواجهوا مخاطر الكونية الزاحفة المستشرية إلا بجبهة داخلية متينة تستمد قوّتها من التماسك اللغوي المطّرد في أنساقه، والمنسجم بين أطرافه، فالثقافة معرفة وفنّ، والعرب الآن يفصّحون المعرفة ما وسعهم الإفصاح، ولكنّهم يلهّجون الفنّ إلا من رحم ربنا، وفي هذا يكمن نذير الانفصام.

ومن هنا أظنّ نفسي واحداً من سدنة هذه اللغة؛ عليّ خدمتها عن طريق تصحيح المعوّج منها، حبّاً في إبقاء الحياة متدفّقة في شرايينها، فرغبت الإدلاء برأيي في لغة الصحافة، والإجابة عن الإشكالية المطروحة والتي تعلق عليها بعض الظواهر التي
لدى الصحافي المعرّب، أو ما يسمى (أخطاء لغة الصِّحافة/الصِّحافي[3]) علماً أنّ هذا الأمر سبق أن عولجَ علاجاً كبيراً في المشرق العربي، وألفت فيه معاجم وكتب، وألقيت سلاسل من الحلقات التصحيحية، ونُظمت الندوات في المجامع اللغوية، وفي مختلف المؤسّسات الثقافية لعلاج الظاهرة[4]. ولكن الأمر لم يحسم ولن يحسم، ما دام أنّ وسائل الإعلام تعرف ملاحقة المستجدات، وتتحرّر باستمرار من قيود الرجوع إلى الفتاوى اللغوية التي يبيحها المشرّعون، أو من المؤسّسات اللغوية التي لا يُعرف رأيها إلا بعد مَدَدٍ من السنين؛ فنجد أمر التصحيح اللغوي يفرض

نفسه في الوقت المعاصر للنظر مرة أخرى في ما يمكن أن يُقدّم من حلول للغة الصِّحافة؛ لتكون مدعّمة لما يتلقّاه الطفل في المدرسة، ولما يتعلّمه الطالب في الجامعة، وتكون شعلة التطوير اللغوي السليم نحو الأفضل، فبات الأمر مقصوراً بأنّ الصِّحافيين المعرّبين لهم الضلع القويّ في هذا المجال، إذا أحسنوا إيلاء العربية مكانتها اللائقة كلغة سهلة بسيطة لها أصولها التي لا يمكن أن يقع الخلاف فيها، فهي قارة، والفروع التي يمكن أن تخضع لعملية التغيير أو التجميل حسب الظروف والمعطيات التي تستدعيها عملية التطوير اللغوي.

لقد سبق وأن أدليت برأي في لغة الصِّحافة[5] وقلت: تأتي مداخلتي في إطار الردّ على أولئك الذين يرافعون ضد خطاب لغة الإعلام؛ باعتبارها تهدم اللغة ولا ترقيها وإنّها تعمل على مسخ لغوي ما كان يحصل؛ لولا الإعلام الذي تساهل كثيراً في قضايا أصول العربية... ومن باب الاعتراف العلمي النزيه بما قدّمه الإعلام من تطوّر لغوي للعربية يأتي دفاعي عن لغة الإعلام... لابدّ من الاعتراف بأنّ للغة الإعلام مواصفات خاصة، وهذه المواصفات تبدو للبعض انتقاصاً للغة العربية وخروجاً عن النمط اللغوي العربي... وخلصت بطرح هذا السؤال: لماذا تدهورتْ لغة الإعلام في وطننا؟ فقلت: لابدّ من الإقرار بأنّ ثمة ضعفاً عاماً على اختلاف مستويات الدراسة وكلّ مواطن مسؤول عن هذا التدهوُر والعهدة تقع على عاتقنا نحن أساتذة اللغة وكذلك يجب الإقرار بأنّ جمود اللغة وتخلّفها أو ازدهارها يرجع إلى وضع أهلها وإلى نصيبهم من التعامل والتفاعل معها في حياتهم اليومية

من خلال الاستعمال... وفي الأخير اقترحتُ مجموعة من الحلول رأيتها تعمل على سدّ فجوة ضعف لغة الصِّحافي؛ وهي:

أولاً: إصلاح اللغة العربية.

ثانياً: مواجهة التحدّيات العصرية في مجال عولمة الإعلام.

ثالثاً: رسم سياسة لغوية باعتماد تطوير العامية في بعض أبعادها.

رابعاً: تمتين علاقة اللغة العربية والإعلام الجماهيري.

خامساً: مواجهة السيل الكبير من المستجدّات ومن التراكيب والمصطلحات الخارجة عن النّمط العربي.

سادساً: إعداد خاص للغة التعبير الإعلامي.

سابعاً: ضرورة تداول لغة الإعلام بين الدول وتأثّر الصحفيين والكتّاب بأساليب اللغات الأجنبية واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبي والعلمي والإعلامي.

ثامناً: حرية الصحافة.

تاسعاً: وضع المُراجع اللغوي في وسائل الإعلام.

عاشراً: إعداد برنامج تلفازي يرصد الأخطاء الكبيرة للصحافة.

حادي عشر: أن تتجّه جهود اللغويين والمجامع والمؤسّسات لدراسة مختلف التقلّبات الطارئة على اللغة والتعريف بها ونشرها لتخرج من الكمون إلى الفعل.

ومن وراء كلّ هذا، بدا لي عدم التسرّع بحمل عصا العقاب وتسليطها على الصِّحافي، على أنّه الوحيد المدمّر للغة العربية، فكان لابدّ من التحرّز من أمثال: أنقذوا اللغة العربية من الصحافيين! وإن المشكلة أعمّ، فالتدهوُر اللغوي للعربية تشارك فيه كثير من الأطراف، وعلينا في المقام الأول سدّ فجوة كبيرة في مسألة اللغة، ثمّ يمكن الحديث أو الطعن في لغة الصحافي، ويرى المجمعيون بأنّ الضرورة تقتضي من المخططين للغة العربية تركيز السنين الأولى من حياة الطفل في:

1. المران على اللغة، وكثرة الاستماع إليها، والتحدّث بها، واتّخاذها وسيلة للفهم والإفهام، وعلينا لتحقيق ذلك أن نجعل اللغة العربية الصحيحة لغة التعليم في المدارس، ونفرضها على المعلمين؛ بحيث لا يستخدمون سواها في التدريس أيّاً كانت المادة التي يقومون بتدريسها.

2. تفريغ التلاميذ لدراسة اللغة العربية بمفردها في المراحل الأولى من التعليم؛ بحيث لا يدرس التلميذ لغة أجنبية في هذه المرحلة، ولا يستخدم في المدرسة الابتدائية سوى العربية قراءة وكتابة وحديثاً.

3. القراءة الكثيرة المتنوّعة من أهمّ أسباب إتقان وإجادة استعمالها، شرط ألا يُكره الصبّي عليها، بل يرغّب فيها، ويشوّق بتقديم الكتب الممتعة اليسيرة التي تلائم طوري الصبا والشباب[6].

وهكذا، فإن تحقّقت هذه الأمور مجتمعة، يمكن أن نلوم الطرف الأساس في نظر البعض بأنّه الإعلام فقط، وأما الآن فنحن شركاء في مسألة التدهور، وإن كانت نسبة الشراكة متفاوتة "إنّ فشل الأجيال

المعاصرة في السيطرة على الفصحى، وهو في الحقيقة فشل لعلمائها ومعلميها والمسؤولين على حمايتها ونشرها على ألسنة الناس[7]" ويعني هذا أنّ مؤسّسات إعداد الصِّحافيين تتحمّل نسبة من المسؤولية في هذا المجال؛ حيث تعمل على نشرها بقوةّ على مسامع الناس على وجه الخصوص، فإن ظهرت ثغرات في لغة الصِّحافة؛ يعني هناك بعض الإهمال في: الصِّحافي/ كلية الإعلام/ الأساتذة... ويعني كلّ هذا أنّ نظاماً معقداً يتحمّل مسؤولية هذا التردّي.

ومن وراء هذا نرى القاريء/ المستمع/ المشاهد لا يعرف هذه المسائل، فيعلّق الخطأ على مستعمله أو على المتحدّث به، ويحمّل وسائل الإعلام على وجه العموم كثيراً من تبعات الضعف، ويرمي عملها بالانتقاص، خاصة عندما يسمع كثرة الأخطاء المخلّة بالأصول، وتوظيف العاميات بلا خجل، وفتح المجال أمام الحصص الثقافية المذاعة بالعامية، والحديث بالدارج في الأخبار واللقاءات العلمية والحصص الترفيهية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ القاريء/ المستمع/ المشاهد لا ينظر إلى البرمجة التي ليس للصحافي فيها يدٌ أحياناً، ولا يعلم بأنّ كثيراً من البيانات يتولّى تحريرها موظّفون في خلية الإعلام وليس للصحافيين أو المذيعين حقّ تعديلها أو تصحيحها لغوياً، فالمشاهد/ القارئ/ المستمع يهّمه نسبة المسلسلات بالعامية من الفصيحة، ونسبة الحصص الثقافية المُذاعة بالفصحى ونسبة الحديث بالدارجة عن الحديث بالفصحى في الأخبار واللقاءات العلمية والحصص الترفيهية... في ظلّ غياب العربية الميسّرة التي تُدبّج بها بعض مسلسلات الأطفال، وكذا المسلسلات التاريخية، أو تلك المسلسلات التي تبثّ في شهر

رمضان، فيقول: أين تلك اللغة التي تتطوّر مُساوقة لأنظمة الحكم السياسي، أو لدعاية من الدعايات، أو نتيجة التغيّرات المختلفة التي تطغى في الساحة العامة، أين التعبئة العامة لوسائل الإعلام للترقية اللغوية، وأين العربية المبسّطة الجذّابة، وأين الألعاب اللغوية التي ترقي فكر المشاهد/ المستمع... ومن هنا، فإنّ القاريء/ المشاهد/ المستمع يحمّل وسائل الإعلام هذا التقصير الذي نتج عنه تهاون في أداء وظيفته تجاه هوّيته، فيتحمّل الصِّحافي المذيع أو المبرمِج بعضاً من المسؤولية في هذا الميدان.

هذا من حيث مبدأ التمسّك بالمنوال اللغوي السليم الخارج من حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة، كي تكون لغة الصِّحافي تسير في نمط عفوي يحترم الأصول، ويراعي الخصوصيات اللغوية، ولكن لا يفسّر هذا أنّه تشدّد في الخضوع للمنوال؛ بمعنى بقاء لغة الصِّحافي في قاموس قديم يغرف منه فقط، دون محاولة الارتجال في هذه اللغة، والعمل على تشبيبها؛ لتعبّر عن المعطيات التي لم تكن في لسان العرب سابقاً أو عدم الاجتهاد في الفروع اللغوية التي لا تعمل على التشويه، ولذلك لا أشاطر المعياريين الجامدين الذين يطمحون في المثالية المغرقة في الرجوع إلى المأثور فقط فهم =حسب هذا= يعيشون خارج الزمان، فنحن لنا أطرنا المعرفية التي تميّزنا عن القدامى، واللغة وضع واستعمال. وهذا ما يصرّ عليه أهل الاختصاص، باعتبار المعطيات التي نتوفّر عليها غير معطيات عصر الفصاحة "ونحن اليوم لا نرضى أن نبقى في المكان اللغوي الذي وَضَعَنا فيه أئمة اللغة من أجدادنا بالأمس، لأنّ قوانين الطبيعة والاجتماع تفرض علينا أن نكون أمة تسير إلى الأمام، وأن تكون عقولنا أكثر نضجاً من عقول أسلافنا، وأكثر

استيعاباً للمعرفة بفضل أساليب التعليم الحديثة الممتازة وسرعة الطباعة، وكثرة المراجع اللغوية، ذوات التبويب الحسن والفهارس الدقيقة الشاملة؛ بحيث يستطيع المرء أن ينجز الآن
في ساعة واحدة ما كان يحتاج أجدادنا إلى يوم كامل لإنجازه[8]". وهذا هو المبدأ الأول الذي يجب أن يقع الاتّفاق عليه، لأنّ المطلوب في هذا الظرف هو تحرير الباحث اللغوي وأستاذ اللغة العربية في المقام الأول من الماضوية العاملة على توقيف مسار التقدّم اللغوي، أو عدم التعاطي مع المستجدات المعاصرة إلا بنكهة عربية دقيقة، علماً أنّ عوامل التأثير في الوقت المعاصر تتزايد ويصعب التحكّم فيها بقوّة.

بُعْد الإشكالية: إنّ هذا البعد هام؛ نظراً لما تريد الإشكالية طرحه في ضرورة الاهتمام بلغة الصِّحافي لما لها من دور متميّز وخاص، وأثر ذلك على اللغة العربية فيأتي العنوان (اللغة العربية والصحافة) استنفاراً لأركان الصحافة بأخذ العدّة؛ على أنّ لها أثراً لا نهائياً في المتلقّي، باعتبار وسائل الإعلام من الوزن الثقيل لما تريد أن ترفعه، ولما تريد أن تهدمه، فكما يقول بونابرت: ثلاث صحف معادية أشدّ خطورة بكثير من ألف حربةٍ. وإن كان هذا الأمر ينطبق على المجال السياسي، إلا أنّ الحدث هو ذاته؛ فالصحافة كما تستطيع البناء، تستطيع الهدم وكما تستطيع ترقية اللغة، يمكنها أن تطعن فيها، وهكذا... بَلْهَ الحديث عن اللغة التي تنهار في بعض مواقعها أمام سلطة الإعلام، ومعنى هذا "أنّ من يتحكّم بهذه الوسائل يمتلك بالقوّة القدرة على التحكّم بأفكار الناس وآرائهم في مختلف شؤون الحياة؛ لأنّه

يستطيع أن يشكّل تفكيرهم ووعيهم بالأطر المرجعية التي تحكمها[9]". فمن مظاهر تحكّم الإعلام في اللغة مثلاً توليد المعاني الجديدة في استعمالات اللغة، وهذا ما نراه في اللغة العربية حيث تدرّ وسائل الإعلام كثيراً من الألفاظ والمصطلحات والتعابير عن طريق المجاز أو الترجمة الحرفية، أو التوليد الدلالي، وهذا مظهر مهمّ؛ لأنّه يعمل على التوسّع اللغوي، لكن هذا التوسّع أحياناً لا يخدم الاقتصاد اللغوي، وأحياناً لا يراعي بعض الخصائص اللغوية للغة العربية ومن مظاهر الفساد كذلك فَرْضها للغة الوسطى؛ وهي عربية ليست بالعامية وليست بالفصيحة الخالصة؛ ففيها كثير من مظاهر العدول عن النماذج الفصيحة في الاستعمال، وذلك ما يجعلها لغة أخرى (ثالثة). وهذا الأمر خطير، وربّما في المستقبل يجعلنا أمام أمر واقع؛ وهو التسليم بواقع لغوي بعيد عن تراثنا، أو لا نجد له الأطر المرجِعية الصحيحة، وهذا من مهام وسائل الإعلام "إنّ أجهزة ووسائل الإعلام العربية التي يفترض أن تشارك مشاركة فعّالة في تنمية اللغة العربية وفي الارتقاء بلغة الجمهور، لا تقوم في وقتنا الراهن بدورها على الوجه الأكمل. فكثيراً ما يلجأ مثلاً إلى استخدام اللهجات العامية المحلية في تقديم بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية، أو يلجأ إلى استخدام ما يسمى باللغة الوسطى التي لا ترقى بلغة الجمهور لضحالتها وقلّة الرصيد اللفظي المستخدم فيها، أو لعدم الالتزام التامّ بتنقيتها من الشوائب وعدم التورّع فيها من استعمال الألفاظ المبتذلة والتراكيب المرتجلة والمحرّفة أو الصيغ الدخيلة والعبارات المترجمة ترجمة ناقصة أو غير سليمة[10]". ومن هنا يمكن أن

نقيس الدور الهام، أو محرار قوّة وسائل الإعلام المرئية على وجه الخصوص، فَبِها يمكن أن تعلوَ اللغة، ومن خلالها يمكن أن يقع الاستهزاء بها، على اعتبار أنّ لها قوّة التأثير أشدّ من قوة المعلم في المدرسة.

ولكن لنقل الحقيقة بأنّ وسائل الإعلام قد أغنت قاموسنا اللغوي بكثير من المصطلحات والأساليب وببعض الترجمات الهادفة، خاصة التي جاءتنا عن طريق التلفاز، ومنها نفذت إلينا هذه الألفاظ: الجدولة/ التوصيف/ المديونية/ العوربة/ العولمة/ الحساسية/ الشفافية/ البرمجة/ الحوسبة/ الحيازة/ الفعالية/ المواطنة... ومن الأساليب الجيّدة والتي أصبحت توظّف بشكل كبير: صاروخ أرض أرض/ صاروخ جوّ أرض/ نظام صدام آيل للسقوط/ تدخّل الرئيس بينما كان الوزير يوضّح/ تصفية المشكلات/ تجميد أرصدة ليبيا/ العرف السياسي/ تداعى النظام للسقوط/ البثّ الإذاعي المباشر/ تدعّم الدولة بعض سلع التموين/ تطبيع العلاقات/ تحديث وسائل الإنتاج/ العلاقات الأفروآسيوية/ وضع الحجر الأساسي. وبواسطة ترجماتها المقبولة أصبحنا نستعمل: خارطة الطريق/ الجيل الخامس/ الهاتف النقّال/ خدمات عالية الجودة/ القرار السياسي/ سياسة الذراع الطويلة لإسرائيل/ حقّ الفيتو... فهل في هذا ما يمكن الطعن فيه لغوياً، على أنّه ليس من قاموس اللغة العربية.

لغة الصِّحافي/الصِّحافة المعاصرة: في التعريف العام للصحافة نقول: إنّها إحدى وسائل الإعلام، وهي نشرات يومية/ أسبوعية، تقدّم من خلالها المعلومات العامة حول الوقائع العامة. ولقد تنوّعت قنوات الصحافة: جرائد/

إذاعات/ فضائيات/ إنترنيت/ صحافة إلكترونية... وأما لغة الصحافة فتعني تلك اللغة التي تكتب بها الصُحُف، أو تلك اللغة التي تبثّ بواسطتها الوسائل السمعية أو المرئية. وإنّ هذا التمييز (لغة الصحافة) لم يأتِ إلا لبعض الخصائص التي تمتاز بها هذه اللغة عن غيرها، ويعني هذا أنّ لها قاموساً ومناويل مخالفة في بعض الأحيان عن اللغة العادية. وهذا ما تظهره الوسائل واللغة التي يذيع أو يكتب بها الصِّحافي. فإذا نظرنا إلى لغة الصِّحافي في وسائلنا المعرّبة نجد بعضها متذبذباً، وهذا ربّما لنقص الرصيد اللغوي الجيّد في تكوينه؛ حيث لم يمتلّك أرضية معرفية مقبولة في اللغة العربية وربّما نجد بعضهم منتسبين إلى الصِّحافة؛ فليسوا خريجي كليات الإعلام أو الصِّحافة، ومن هنا يفسدون اللغة أحياناً، ويحدثون الخلل في أحايين أخرى... ولا يعني هذا بأنّ لغة الصِّحافة كلّها خطأ بل أنا من المشجعين للغة الصِّحافة ومن المدافعين عنها؛ شرط أن تحترم أصول اللغة ويمكنها أن تتصرّف

في الفروع، والفروع ليست قارة؛ وهي متغيّرة حسب الأرضية المعرفية للصِّحافي وللظروف المحيطة بالمجتمع. ومن هنا إذا رأينا الاعتزاز الجيّد باللغة العربية من قبل المتخصّصين ومن الصِّحافة التي يتابعها الجمهور، ستحصل المَنْعَة اللغوية والبلاغ الجيّد، خاصة ونحن في عصر الصورة والسماع، ومن ذلك البلاغ البليغ تحصل المتابعة، وينمو المثال ويتحسّن ويغرس حبّ اللغة وبالخصوص عندما يكون الصِّحافي حاضر البديهة، وله فصاحة لسانية بعيدة عن كلّ عيٍّ يلحق الخدش بالمستمع؛ وهذا ما نلمسه في نشرات الثامنة في التلفاز الجزائري؛ حيث يشدّنا المذيعون بفصاحتهم

وحسن تألّقهم وتوظيفهم الدقيق للألفاظ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ننعى ونعلن قبر هذه اللغة في بعض الوسائل الأخرى مثل: راديو البهجة/ الشروق الأسبوعي (في بعض أعمدته) ويأخذك العجب ممّا تسمع وما ينشر من رداءة لغوية، ومن تلويث فكري، فبأيّ نموذج تترقّى اللغة؟ لا شكّ أنّ الإجابة واضحة، ولو يتقوّل المتقوّل بأنّ راديو البهجة ناطقة بلغة المحيط وأنّ جريدة الشروق الأسبوعي تنقل واقعاً محسوساً يومياً من النطق المحلي، الذي لا يمكن تجميله أو تغييره، وإلا فقد ذوقه، كما قال الجاحظ عند حديثه عن لغة الطّغام.

لقد أشرت إلى محطتين هامتين: راديو البهجة (سمعية) جريدة الشروق الأسبوعي (قرائية) لهما جمهور واسع حسب بحث جامعي[11] ولكن يبدو أنّ جمهور المحطتين عن رضا بما يسمع وما يقرأ فمن نلوم في هذا المجال؟ لا يجب أن نلوم هاتين المحطتين فقط، فهناك فضائيات عربية (اللبنانية/ المصرية/ الخليجية) تشين بهذه اللغة الجميلة، وجرائد ناطقة بالمحليات مئة في المئة في المشرق العربي، وهي أحرى بأن تدافع وتحرص على جمال وخصائص اللغة، وأجد نفسي هنا في موقف من يتحدّث عن القضية بنوع من المرارة، بل إنّ الأزمة تكمن هنا في مسألة الضمير لا غير.

وأعتبر ما يأتي من هذه المحطات المخلّة بالوجه اللغوي الصحيح لدرجة الفساد من المنتوج الرخيص السهل المنال، لأنّ هذه المحطات تنزع إلى إرضاء جمهورها، وتنزل إلى مستواهم البسيط وتخاطبهم بما يريدون، ولا تحاول أن تعمل على ترقية لغتهم بدعوى الإثارة والدعاية والتشهير والتمنشير

ويستدعي هذا النوع من التكسير اللغوي ما يستدعي، بل هي طريقة جديدة في الحداثة والعمق بحكم السرعة، وفي نظرهم من يقف في وجه هؤلاء فهو رجعي سلفي أصولي لا يريد للغة التطوّر، وعلى العموم فإنّ بضاعة أمثال هذه القنوات نافقة هشّة لا تذهب بعيداً.

ولا يعني هذا أنّني أدعو إلى استعمال عربية لا يفهمها إلا الشعراء والكتّاب والأدباء، وهذا ما له باب ولا سلطان، بل أدعو إلى توظيف لغة الأُنْس الذي به يصل الخطاب دون تشويش، فلا يطلب من الصحافي التحدّث أو استعمال المستوى الأول (الانقباضي) لكن يمكن لهذه الإذاعات والصحف أن تستعمل المستوى الثاني علماً أن الفصيح فصاحات. كما أنّ للعربية مستويات متعدّدة، وهذا بحسب المنشي للكلام والمخاطب بالكلام؛ فمستوى فصحى التراث العربي، يكتب بها عادة علماء الثقافة الإسلامية والأدباء والمحافظون الأصوليون والأزهريون واللغويون الذين ينشدون صفاء العربية، وهناك مستوى الفصحى المعاصرة؛ وهي اللغة التي يكتب بها اليوم الأدباء المجدّدون والكتّاب والمفكرون وكتّاب الصحافة ومحررو الأخبار والتعليقات الإذاعية، وتتنوّع بحسب ميادين البحث والاختصاص.

ومع كلّ هذا فإذا صدقت النيّات والعزائم لا يلحق الأذى من هذا الأمر إلا في بعض الحالات التي تكون مؤقّتة، وقد يقع تعديلها بعد تنبه، ولكن الخطورة إذا وقع الاستهزاء باللغة، وحصلت الدعوة على التخلّي عنها بدعوى عدم صلاحها للعصر أو كلغة علم، وهنا يحصل التناقض والتنافر، ويؤدّي إلى تشتيت الجهود في ترقية هذه اللغة. والخطر الآخر يأتي من الفضائيات التي تستعمل كثيراً من ألفاظ اللغات الأجنبية بشكل مثير

ومشمئز أحياناً، وذلك ما يعمل على احتذاء النمط الدخيل، فتغيب اللغة العربية الفصحى وكذا الدارجة/ المحلية، وهنا يأتي الخطر الكبير. وأؤكّد على هذه المسألة بأنّ دخول اللفظ الأجنبي يعمل على مزاحمة اللفظ المحلي، كما يعمل على إقصائها من القاموس اللغوي الأصيل وهنا يحصل أن تتأثّر لغة الغالب بلغة المغلوب، فتؤول إلى الاندثار أو تبقى في مجالات ضيّقة جداً وبذلك يهجرها مستعملوها بحكم عدم مسايرتها للواقع. ولا يكمن الخطر في الدارجة أو المحليات، فهي تجري على ألسنتنا في كلّ الأماكن، ويحصل التقارب بين الفصحى والعامية باستمرار، بل هناك ألفاظ تبدو لنا عامية فهي فصيحة والسبب في عدم توظيفها فقط. ويجب الإقرار بأنّ التعايش بين العاميات والفصحى كان منذ زمن بعيد، وما حصلت بينها الحروب اللغوية رغم أنّ كلّ واحدة تسعى لفرض نفسها[12]". وتحدّدت بشكل آلي وطبيعي وظائف كلّ لغة، ولكلّ مجالها الخاص.

أخطاء الصِّحافة : إنّ لغة الصِّحافة لا تأتي من المدرسة، بل تظهر فيها لغة المحيط والمصطلحات الحديثة والاحتكاكات اللغوية بين اللغات، والاقتراض اللغوي وغلبة لغة الغالب... وكلّ هذا يعمل على مزاحمة الفصيح المتلقّى من المدرسة؛ على أنّه النمط الذي يُقتدى به، بإدخال الضيم من لغة لأخرى وهنا تنتج لغة أخرى يستعملها الصِّحافيون في بعض المقامات، ويتميّزون بها، ويرى فيها إبراهيم بن مراد "وقد تزاحم المظاهر الجديدة في هذه اللغة الصحفية المنوال الفصيح الذي تلقى المتعلّم قواعده في المدرسة فتغيّر من مظاهره ما تغيّر، وتحلّ مكان بعض أنماطه الفصيحة الصرفية والتركيبية والدلالية أنماطاً جديدة، وأول المتأثّرين بهذه الأنماط الجديدة،

والآخذين بها في الاستعمال هم الصِّحفيون أنفسهم؛ لأنّهم هم أيضاً ذوو ثقافة لغوية قائمة على المنوال الفصيح الذي تلقوا قواعده في المدرسة، ثمّ زاحمت أنماطه القديمة الأنماط الجديدة[13]" وكما رأينا، فإنّ لغة الصَّحافة التي تأتي خارج النمط المدرسي المحافظ، لأنّ المدرسة أو الجامعة لا تعير الجوانب الوظيفية للغة اهتماماً مستعجلاً؛ حيث تغلّب الجوانب والمناقشات النظرية والإيضاحات المجرّدة، كما لا تلقى فيها الفعاليات الخطابية والنشاطات اهتماماً وتشجيعاً كافيين بنحو عام. ومن هنا فإنّ لغة الصِّحافة تعمل على إبراز أنماط لغوية جديدة منافية أحياناً للقديم الفصيح؛ لأنّها ترجع إلى واقع لغوي ملموس وقد يكون مخالفاً أو مناقضاً للواقع الذي تعبّر عنه العربية في واقعها المدرسي/ الجامعي، ومن وراء ذلك تظهر من حين لآخر وحدات معجمية مركّبة منسوخة عن اللغات الأجنبية من مثل الاقتباس من الفرنسية قولهم: مناطق الظل : Les zones d’ombre الدالة على الجهات الفقيرة، فتستغلّ بأنّها وحدات معجمية تثري المعجم العربي خاصة عندما تنال صفة المقبولية، وتُلتمس فيها سلامة الفطرة وبراءة الطبع، وجاءت على وزن صرفي معروف، أو عُرّبت من لفظ أجنبي بحروف أو بأجزاء منه أو بتغيير فيها، رغم أنّ الدلالة فيها منافية للوضع اللغوي الذي وضعت له. ولكن نقرّ بأنّ مراعاتها سيساهم في تنقية المساحة المعرفية من الكثير من الألفاظ التي يقبلها الناس، ولو على كُره. ولذا نرى أمثال هذه العبارات الجديدة في لغة الصّحافة أحياناً مصادمة وأحياناً خاطئة، وإنْ عاملناها معاملة الرفض باعتبارها أخطاءً، نكون قد ضيّقنا على اللغة؛ باعتبار أنّ عامة ما يكتب في الصُحُف

في حيّز الأخبار السياسية والتعليقات على وجه الخصوص شيء من هذا الجديد، فكيف يسوّغ لنا أن نحمله على الخطأ[14]". فإن كان من الخطإ ويجب شجبه، فماذا أبقينا للغة الصِّحافة من لغة وأساليب، وماذا تركنا لها من عبارات جديدة، وهل في إمكاننا ذلك، علماً أنّ تأثيرها في نفوس القرّاء والمستمعين أشدّ من تأثير: قلْ ولا تقلْ / صحّحْ لغتك... التي تعمل عمل الرقيب في المجال اللغوي الصادر عن المجتمع بشكل عفوي، ولا يحتاج إلى فرض.

قد يقبل من لغة الصِّحافة الخروج عن المنوال في بعض الأساليب على اعتبار أنّ الأساليب غير متناهية، ولكلّ عصر أساليبه وأنماطه، ولكن من الأجدر، ألا نقبل لغة صِحافي لا يحترم قواعد اللغة لأنّ ذلك يؤدّي إلى الخروج عن النمط، فإذا جعل المرفوع منصوباً، والمنصوب مجروراً، والمضاف مسكوناً، والصفة غير تابعة والمبتدأ نكرة دون مسوّغ... وهنا لا يعذر الصِّحافي، ولا يطلب منه إلا العودة إلى مقعد الدراسة للتزوّد بآليات اللغة؛ لأنّ هذا مرفوض في كلّ لغات العالم. كما لا يقبل من الصِّحافي ألا يفرّق بين همزة القطع والوصل، ولا يقبل منه إحداث أخطاء في نطق أصوات الكلمة رغم ما يحصل من الالتباس أثناء القراءة؛ نظراً لغياب الصائت على الصامت في الكتابة العربية ولكن بنوع من التروّي والتحضير الجيّد للمكتوب والقراءة المسبقة لما يريد عرضه، يمكن الاهتداء إلى القراءة السليمة. ومن هنا فإنّ بعض التسامح يفتح الباب أمام التخلّي عن القواعد، وتصديق مقولة: المهمّ الفهم. وهل يمكن أن يحصل هذا في اللغة الفرنسية، وهل يتسامح المستمع الفرنسي مع من يهشّم لغته، بل يمكن لأحدهم أن

يرفع دعوى قضائية ضد لافتة كُتِبَت خطأً، ويحميه القانون من بابه العريض، ويمكن أن يقاضي كلّ من يعمل على تشويه لغته وتسانده وسائل الإعلام بقوّة، ولن يرضى الفرنسي أن يسمع مستهزئاً بلغته يظهر في الشاشة أو يكتب في الصحف الفرنسية مهما كانت درجته العلمية أو السياسية، وقد حصل هذا قديماً عند العرب بأنّ اللاحن في اللغة العربية يُستبعد إلى بلاد العجم، وهناك من يجري عليه العقاب شديداً، وهذا كلّه من باب التحرّز الذي كان يضعه النّحاة للغة العربية، ويتمثّل ذلك في المحافظة على صفائها إلى درجة المغالاة.

نشرة الثامنة نموذجاً : وللاستدلال على بعض التشويه الذي ينال اللغة العربية من وسائل الإعلام المرئية، سوف أستعرض نماذج معدّلة عن الصواب اللغوي من النشرة الثامنة للقناة الأولى للتلفزة الجزائرية. ولا أخفي بأنّني من المدمنين على متابعة هذه النشرة، واسترعى انتباهي حسن الإلقاء للمذيعين، والحرص على سلامة اللغة في كثير من جوانبها، ولا شكّ أنّهم من الصّنف الذين يسعون إلى استعمال لغة عربية سليمة؛ ويتمثّل ذلك في تفادي خطأ: التقى فلان بفلان، فهم يقولون: التقى فلان فلاناً. وبدا لي أنّهم يميّزون عن وعي بين: التقى فلان فلاناً الدال على الفردية والتقى بفلان أو مع فلان الدال على الاشتراك. كما يقولون: أعلن فلان النبأ، ولا يقولون: أعلن فلان عن النبأ. هذا إلى جانب أنّهم من أولئك الحرّاز المتحرّين للنطق السليم؛ حيث يسعون أحياناً إلى تفضيل الفصيح القديم غير الشائع على الفصيح الشائع بين المعاصرين، كما أنّهم صحافيون بالاختصاص لتخرجّهم من الكليات والمعاهد

التي تعنى بتدريس علوم الصحافة والإعلام، وبعضهم منتج للبرامج الإخبارية إعداداً وتقديماً. ولذلك ما فتئت أطلب هذا الضرب من التدقيق؛ على اعتبار أنّ لوسائل الإعلام دوراً هاماً في نشر وتعميم استعمال المصطلحات والعبارات السليمة. وأعرف أنّ التلفزة تلعب دوراً متميزاً في الرقي اللغوي إذا أُحسن استغلالها ووجّهت الوجهة اللغوية السليمة، وهي بالتحديد أشدّ تأثيراً في الشخص من غيرها من وسائل الإعلام، وأقدر على تشكيل ذهنيته وشخصيته، وأفعل في صياغة إرادته.

اخترت نشرة الثامنة لأربعة عوامل:

1. اختيار الوقت: إنّ نشرة الثامنة تستقطب جمهور الجزائريين؛ حيث يتحلّقون حول التلفزة لمتابعة المستجدات الوطنية والدولية، ويولون كلّ صغيرة وكبيرة أهمية خاصة.

2. الجمهور المتابع للنشرة؛ هو جمهور نوعي متعلّم في غالبه، له درجة لا بأس بها من الفهم وجلّهم من المعرّبين.

3. الأهمية الكبرى التي تعطى لإعداد هذه النشرة باعتبارها مرجع النشرات الأخرى، وعمدة القنوات الوطنية.

4. الاعتماد على الأخطاء ذات التردّد المتواتر لتصحيحها، أو إقرارها.

وأمام هذا الاهتمام، نجد الصحافة المهنية في أمثال النشرات الرئيسة أو البرامج التي تشكّل متابعة عريضة، يُعتمد فيها المدقّق/ الموجّه اللغوي لتفادي السقطات المخلّة بالوجه اللغوي الجيّد؛ ويكون حافظاً لكلّ ما يخلّ بمنظومة اللغة، أو ما يقزّز السامع، أو يخدش شعوره، وهذا

ما يلاحظ من جنود الخفاء من وراء الستار؛ يوجّهون ويرشدون، ويعملون على نجاح النشرة أو البرنامج، ويمكنك التماس ذلك بقوّة في قناة الجزيرة، وفي القناة الثانية الفرنسية Antenne 2.

ومع الاهتمام الخاص الذي توليه مديرية الأخبار لنشرة الثامنة من أهمية، حدثت بعض السقطات على لسان الصحافيين المذيعين[15] رأيت ضرورة التنبيه لبعضها، من خلال مدوّنة عشوائية تكوّنت من عدد من النشرات، فجعلت هذه العيّنة محلّ مناقشة، بالعودة إلى المظان اللغوية، بعد الوصف والتحليل اللغوي المقرون بالشواهد، وأدليت بآراء لغوية يضعها في الصورة الصحيحة، أو يقرّبها للمستعمل أو يفتي فيها بالجواز، وحاولت تحقيقها في بعض الأحيان؛ بالعودة إلى اجتهادات المعاصرين وبالخصوص إلى قرارات المجامع اللغوية.

عيّنة الأخطاء: إنّ العيّنة –رغم عشوائيتها– إلا أنّها أثارت في الوسط الثقافي مجموعة من الأسئلة في مدى فسادها من صحتها، ولذا اعتمدت سبعة عشر مسألة (17) فقط، وأترك أمر البحث في العدول الأخرى؛ وهي كثيرة، وجديرة بأن تشكّل أبحاثاً للدراسات العليا، بعضها راق يحتاج إلى تشجيع وبعضها يحتاج إلى تعديل، والبعض الآخر إلى شذب:

1. النشرة الرئيسية: يستعمل الصِّحافيون في نشرات الثامنة مساءً عبارة: إليكم النشرة الرئيسية فهل نسبة الرئيس في هذا المكان صواب؟ عندما أردت تحقيق هذه المسألة، رأيت أنّ المذيع لا يقصد بها نسبة نشرة الثامنة إلى الرئيس، بل يقصدون بها الصدارة والاهتمام والتقدّم. وأعرف أنّ الصحافي

يهمّه السبق والصدارة في نقل الخبر، فمثله مثل بعض الشعراء الذين ينشدون المجد، لا يبغون إلا الصدارة مثلما أكدّ ذلك أبو فراس الحمداني:

ونحن أناس لا توسّط بيننا　　　لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وعوداً إلى أصول العربية لم أجد أن عرفت العربية في عهودها المواضي هذا التعبير، بل عرفت الشواهد التالية: الأخلاق الرئيسة/ العلوم الرئيسة/ ربيع النفوس النفيسة/ الجوع المفرط يضعف النفوس النفيسة... ولا يمنع هذا من ورود ياء النسبة في الشواهد، ولكنّها كان يراد بها الدلالة على شيء آخر مثل التأكيد. وإنّ العرب تجعل كثيراً من النعت على (أفعلي) فيصير كأنّه نسبة، فقالوا: أعجمي/ أجنبي/ ألمعي/ الخارجي/ الأوحدي... وأما الاستعمال المعاصر فنسمع: عمل رئيسي/ وظيفة رئيسية/ ويقصدون بها الصدارة والتقدّم، فهل صحيح أمثال هذه الاستعمالات؟

إذا تحقّقنا في الياء في هذه الاستعمالات فهي ليست توكيداً، ولا زائدة، ولا للمبالغة، ولا اللفظ من قبيل إضافة الشيء إلى نفسه، أو المنسوب إلى نفسه؛ لأنّ قائل (النشرة الرئيسية) وما يُقاس عليها يقصد بأنّه رئيسي، أي تشبيه العنصر في مكانه من العناصر بالرئيس في مكانه ممّن لا يقومون مقامه، وهو مكان الصدارة. فلم يحذف الياء كي لا يأتي الوصف مباشرة. وقد أجازه المجمعيون بعد مناقشات كثيرة، وقبلوا بهذا الاستعمال، ولا نكير فيه[16]. وهكذا يذهب المختصّون بأنّ استعمال (رئيسي) في الأساليب المعاصرة صحيح، وأنّ الوصف برئيس غير الوصف برئيسي، وأنّ الاتّساع في النسب إلى رئيس يضيف دلالة جديدة إلى

مدلولها، وبذا يقرّ المجمع المصري صحة العبارة وصفاً للأشخاص والأشياء والظواهر والعناصر والاتّجاهات والأفكار، وما إليها من ذوات الأهمية الخاصة في بابها، أو التمييز على أشباهها أو التأثير في سواها. وأورد رأي العدواني في هذا المجال، بأنّه كان قد خطّأ في معجمه (معجم الأخطاء الشائعة) من يقول: الشخصيات الرئيسية، معتمداً على ثمانية مصادر لغوية خالدة، ويقول: وجدت مجمع اللغة العربية في دورته الثامنة والثلاثين يقرّ صحة: العضو الرئيسي/ الشخصيات الرئيسية. إذن هناك رخصة علمية صادرة من مؤسّسة تشريع لغوي تبيح هذا القول، فكلا الاستعمالين صحيح.

2. يستعمل الصِّحافيون المذيعون هذه الكلمات: مَعُوق/ مُعاق/ مُعوَّق. اليوم العالمي للمعوّقين وإنّها ألفاظ عربية سليمة، إلا أنّ لكلّ منها دلالة خاصة والمشكلة في التداخل الذي يحدثونه على مستوى التوظيف. المَعوق: من وُلِد أصلاً بعاهة لازمة. المُعاق: من أصيب بإعاقة بعد ولادته إثر حادث مثلاً. المعوّق: المُصاب بعدة عاهات[17]. وللتفصيل أكثر يرى علماء اللغة بأنّ عاق ← يعوق : فعل متعدّي بنفسه، تقول: عاقه الحادث أمسِ/ عاقة الأمر عن أداء مهامه. عاق: اسم فاعله ← عائق عاقني عائق، ومنه قول ذؤيب الهذلي:

ألا هل إلى أمّ الخويلد مرسل بلى   خالد، إن لم تعقْه العوائق

وأما اسم المفعول منه فهو ← معووق، ولكن هذا الاستعمال تمجّه العرب، فيُقال: مَعُوق؛ ويطلق على كلّ من عاقه المرض. ولهذا الاستعمال عوّق، فيقال فيه ← التعويق، بمعنى التأخير، واسم

←

الفاعل معوِّق. وورد ذلك في قوله تعالى ﴿**قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً**﴾ (الأحزاب 18). أما الذي عوّقه مرضه عن أن يكون تامّ الصحة، فهو (طفل مُعوَّق) لأنّ شيئاً من الأشياء عوّقه. والصيغة المعبّرة عن ذلك هي صيغة المفعول (معوَّق)[18]. وبات الأمر في هذه الكلمة بأنّها عربية صحيحة، والصيغة الصرفية هي التي تميّز دلالة الواحدة عن الأخرى. ويُقال في لغة الصحافيين: إنّ العائق المالي←سبب الأزمة/ اليوم العالمي للمعوّقين/ الطفل المَعُوق المُعَوّق. فهي ألفاظ مقبولة إذا استعملت في محالها، ولم نسمع عند الصحافيين استعمالهم التعويق على أنّها مصدر للفعل. ولقد أجاز مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته السادسة والأربعين 1980 أمثال هذه الاستعمالات من خلال أشتات جمعها محمد شوقي أمين، وهي: مُصاغ/ مُقاد/ مُهاب/ مُعان/ مُلفت/ مُرِبك/ مُشين/ مُريع. واعتبر من يرفض هذه الاستعمالات يعمل على الحَجْر على اللغة.

3. أكّد على: استعمل المذيعون أكّد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية على دور اللغة العربية في المجتمع. واسترعى انتباهي تعدية الفعل (أكّد) بحرف الجرّ، علماً أنّه يتعدّى بنفسه: أكّد محمدٌ النتيجةَ أي ثبّتها، أو أثبتها. فهل يمكن القبول بهذا الاستعمال؟ تنصّ كتب اللغة، بأنّ الفعل أكّد متعدياً بنفسه ولهذا لا يتعدّى بحرف الجرّ، إلا إذا تضمن معنى فعل لازم، من مثل: نبّه، كأن نقول: نبّه المدير على الحضور باكراً. ومن هنا يقال: أكّدت المدرسة على المواظبة/ أكّد الخبير على أنّ التوقيع مفتعل[19] ولقد أباح المجمعيون هذين القولين من باب التضمين في تخريج العبارتين، ولا يمنعنا

منه أنّ لا هنا مندوحة عنه، وأنّه قد تكرّر القول به في تخريج عبارات أخرى سابقة، فإنّ المعنى الذي يضمنه الفعل (أكّد) حينئذ هو (نبّه) فيصير تأويل العبارة الأولى به: نبّهت المدرسة على مواظبة التلاميذ، ويصير تأويل الثانية: نبّه الخبير على أنّ التوقيع مفتعل.

4. التسعينيات/ التسعينات: يستعمل صحافيو الثامنة تسعينيات القرن الماضي إشارة إلى عقد الإرهاب، وهذا في إطار ما يسمى بألفاظ العقود، والمراد بها ليست ياء النسبة، بل الدلالة على حقبة زمنية مدّتها عشر سنوات، ويتصدّرها عدد مكرّر، فلهذا تبدو جمعاً لمفرد، وتستعمل حين يراد تجنّب تحديد السنة بعينها؛ لأنّ السنة غير معيّنة. فهناك من يخطّيء العشرينات... التسعينات، ووجه الخطأ أنّ هذه الألفاظ جموع لعشرينة... تسعينة، وليست هذه الكلمات في متن اللغة والصواب: العشرينيات... التسعينيات؛ بتوظيف ياء النسبة لأنّها منسوبة للعقد. ويرى ناصر الدين الأسد " فإذا كان لابدّ من استعمال أحد هذين الجمعين، فإنّ ترك الياء أولى، واستعمال العشرينات والثلاثينات والأربعينات أقرب إلى ذوق العربية وأدخل في أساليبها وهو ما شاع استعماله واستساغه العرف[20]". ونلحظ التضارب عند فقهاء اللغة في جواز بعضهم استعمال: التسعينيات، ورفض البعض الآخر على أنّ حذف الياء أقرب إلى الأصل. أقول: يجب أن نعامل اللغة على أنّها مفتوحة قابلة لاستقبال الجديد ما لم تخلّ بالأصول، وعلينا دائماً أن نقرّ بأنّ الاجتهاد في مسائل الفقه مقبول الآن، ولمَ نحرمه على اللغة في الوقت المعاصر، أليس التشريع الفقهي أكثر تأثيراً في منظومة الفكر

والمعاملة منه على التشريع اللغوي، فما دام الاستعمال لم يرفضه، ولم يخرج عن قوالب اللغة، فلمَ نحجر على أنّ الفصيح لم يرد بهذه الصيغة، وهل العرب أحاطوا بلغتهم كلّها! وفي هذه المسألة أجاز المجمعيون قول الكتّاب (العشرينيات) ونحوها "ترى اللجنة أنّ ألفاظ العقود يجوز أن تجمع بالألف والتاء إذا ألحقت بها ياء النّسب، فيقال مثلاً: ثلاثينيات... ويدلّ اللفظ حينئذ على الواحد والثلاثين إلى التاسع والثلاثين، وفي هذا المعنى لا يقال: ثلاثينات بغير ياء النسب"[21].

5. بدون: يذكر الصحافيون كلمة (دون) بتوصيلها بباء قبلها (بدون) وزير بدون حقيبة. وأردت تحقيق هذه المسألة بالرجوع إلى القرآن الكريم أولاً، فوجدت مذكورة 91 مرة دون باء، وهذا بدءاً من سورة البقرة في قوله تعالى ﴿**وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ (البقرة 23). إلى آخر سورة وردت فيها كلمة (دون) وذلك في قوله تعالى ﴿**وأنّا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك كنّا طرائق قدداً**﴾ (الجن 14). كما وردت مقرونة ببعض الضمائر كما يلي: دونه 18 مرة/ دونهم 4 مرات/ دونهما 2 مرة/ دونها مرة واحدة. وهكذا من باب التأكيد لم ترد مقرونة بالباء في مقدمتها بتاتاً. والآن هل صحيح ما يُسمع على أفواه الصحافيين باستعمالهم (بدون)؟

يرى صاحب (معجم الأخطاء اللغوية المعاصرة) بأنّ هناك من يخطّيء: جاء فلان بدون سلاح، أي بغير سلاح ويقولون: إنّ الصواب: جاء فلان دون سلاح؛ لأنّ (دون) ظرف مكان منصوب، ولأنّ الصحاح، ومفردات

الراغب، والأساس، والمختار والمصباح، وأقرب الموارد، ومتن اللغة، والمعجم الوسيط، لم تذكر (دون) بالباء. ونجد لسان العرب يذكر بأن الباء تدخل على (دون) وهي زائدة، كما أورد محيط المحيط على ذلك شاهداً مجهول القائل:

فلا مجدَ يبنى بدون الجهاد ولا جهدَ يغني بدون القدر

وعلّل بأنّ (الباء) قد جاءت للضرورة الشعرية[22]. وهكذا نرى هذا الجواز في الضرورة الشعرية، على اعتبار أنّ الشعراء قالوا ذات يوم: علينا أن نقول وعليكم أن تتأولّوا، فمن هنا ألا يجوز للصِّحافي ما يجوز للشاعر. ولكن هناك واقع نقرّ به وهو أنّ هذه الكلمة (بدون) نسمعها تذكر بالباء على أفواه الخاصة، وتتكرّر في أقوالهم وكتاباتهم بشكل فطري، وتدلّ على ما تدلّ عليه كلمة (دون) فهل نوقفها ونقول لهم عليكم أن تحذفوا الباء، ولم يذكرها القرآن الكريم، كما لم يذكرها القدامى، فما العمل؟ ويبدو لي بأنّ اللغة أوسع من أن نضيّق عليها بهذه الحدود الضيّقة، خاصة وأنّ اللفظة لم تهدم جبلاً في أصول اللغة.

6. الدُّوَلِية: يقرأ بعض الصحافيين كلمة الدَّوْلِية بالدُّوَلية، نسبة إلى دّوْلة، وهذا خطأ؛ حيث الصواب: الدَّوْلِية، وهي النسبة الصحيحة إلى الدَّوْلة، فيقال: المعاملات الدَّوْلِية/ النظام الدَّوْلي الجديد. وهذه المسألة قد تدخل في مسألة زلات اللسان وهي من الأخطاء المغفورة.

7. أَكِّفاء/ أَكْفاء: هناك من الصحافيين من لا يفرق بين الكلمتين، فالتبسَ الأمر؛ حيث إنّ كلمة الأَكِّفاء تعني من ذهبت أبصارهم من كفيف،

ويقيسون هذا على: أشدّاء/ أطبّاء/ أعزّاء، إلا أنّ الأَكْفاء ليست من هذا المعنى، فيقال فيها الأَكْفاء: وهو من كان في المستوى المطلوب، وصوابها: الأكفياء، أي الذين لهم القدرة والتضلّع، ومفرده الكُفْء، فيقال: فلان من أهل الكفاءة/ الكِفاية. ونجد المذيعين يخلطون بين الكلمتين دون التفريق بينهما.

8. المدراء: يجمع الصحافيون المذيعون كلمة (المدير) على (مدراء) بقولهم: اجتمع المدراء المركزيون لبنك التنمية الريفية. وهذا ربّما قياساً على نبلاء/ رحماء/ ضعفاء... والصواب أن يُقال: (المديرون) فيجمع جمع مذكر سالم لا غير ويقال: اجتمع المديرون المركزيون لبنك التنمية الريفية/ مديرو الإعلام الوطنية.

9. زيادة اللام في كلمة (وحده) قال مذيع الثامنة: جلس صدام لوحده أمام القاضي، والصواب: جلس صدام وحده، وهذا للأسباب اللغوية التالية:

إما أنّ (وحده) مفعول مطلق. أو حال، أو منصوب على نزع الخافض، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّه لم يثبت بشاهد أنّ (وحده) جرّ باللام، بل يجرّ بحرف الجرّ (على). ومن هنا فيقال في الأساليب المعاصرة والصحيحة: رأيت المدير وحده/ جاء المدير وحده/ مررت به وحده؛ لأنّه حال بالمعنى، ويقول ابن مالك:

والحال إن عرف لفظاً فاعتقد   تنكيره معنى وحدك اجتهد

ونجد أنّ هذا الاستعمال قد جاء عن طريق اللهجات المحلية: جا لَوَحْدُو / شفتو لوحدو يمشي...

10. الحكم الراشد: ظهرت عبارة الحكم الراشد في هذه الألفية، وعلى لسان الصحافيين ترجمة من اللغة الفرنسية La bonne gouvernance، بمعنى الحكم العاقل والسديد المبني على الحكمة، وكلمة (الراشد) وردت في قوله تعالى: ﴿**واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنِتّم ولكن الله حبّبَ إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون**﴾ (الحجرات 7). فوجدت تهجّماً من بعض الإخوة الذين استنكروا على الصحافي المذيع هذه العبارة، ويرون بأنّ الصواب هو: الحكم الرشيد، وكلمة (الرشيد) أكثر وروداً من (الراشد) في القرآن الكريم، وأكثر قبولاً من حيث الذوق، وهي تدلّ على الصفة المشبهة باسم الفاعل، ومثلها: الرحيم/ الكريم/ الفضيل/ العليم...

ولما عدت لتحقيق أمر المفردتين، وجدت التفاسير القرآنية تشير بأنّ: الراشد : يعني العاقل، وهو من فعل رشد (فعل لازم) رشد علي، بمعنى تعقّل، ومصدره: الرُشد. وأما صيغة الرشيد على وزن فعيل تأتي للمبالغة كونها صفة مشبهة، وهو مصوغ غالباً من (فَعّلَ) ولا يكون إلا لازماً، فإذا خرج عن بابه إلى المبالغة لإيقاع الفعل على جهة التكثير، فلابدّ أن يصاغ من غير اللازم. وهنا يأتي الرشيد من أرشد (فعل متعدّي) وورد في: ﴿**فاتّقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد**﴾ هود 78، ﴿**فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد**﴾ (هود 97)، ﴿**أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء إنّك لأنت الحليم الرشيد**﴾ (هود 87). ومن هنا نجد صيغة (فاعل) للدلالة على المشاركة والتوالي: يجاز صوغ اسم الفاعل على وزن (فاعل) من كلّ فعل ثلاثي متصرّف من أبوابه عامة بقصد الحدوث، فيقال: تحية عاطرة،

وإن لم يقصد الحدوث فلا يجوز مثل: ثوب أدكن. وبذا يستعمل الصحافيون: الحكم الراشد/ دولة الحكم الراشد، فهذا الاستعمال غير منكور في أصول اللغة؛ باعتباره يدلّ على أولاً على المشاركة، وثانياً على التعقّل والحكمة، وهو أعمّ من الرشيد، وهذا ما كان يعبّر عنه في أسلوب: الحكم الراشد؛ أي الإدارة الجيّدة المبنية على العقل والعلم والمنهج العلمي الواضح. ومن هنا سمي الخلفاء الراشدون بصيغة اسم فاعل، بمعنى الاستقامة على طريق الحقّ والاستمرار في الحكم الصالح أو الحكمية أو المحكومية[23]، ولم يسمّوا بالخلفاء الرشيدين. وجاء على هذا اسم خليفة عباسي (الراشد بالله).

12. علم المعلومات: يخلط الصحافيون أحياناً –وهذا لعدم التروية في الأمر– بين المعلومات Informations هي ما تدرّه وكالات الأنباء وموجات الراديو والتلفزيون والأقمار الصناعية، وما يصطلح عليه (الخبر) الذي هو التقرير عن حدث لم يكن معروفاً عند الناس من قبل، جمع بدقّة من مصادر موثوق بصحّتها على أن يتناول كتابته محرّرون متخصّصون في العمل الصحفي[24] والمعلوميات Informatiques وهو العلم الذي يعالج بعقلانية المعلومات؛ بوصفها دعامة اتّصالية للمعرفة الإنسانية في مختلف المجالات: التقنية، الاقتصادية، والاجتماعية وهو ميدان الإعلام الآلي وما يدرّه من آلات وحاسبات ورتابات عالية التخزين سريعة الاسترجاع. فائقة التحسين والجودة.

إذن المعلومات هي الحاجة الخامسة للإنسان بعد: الماء/ الهواء/ الطعام/ المأوى؛ حيث يحتاج إلى المعلومات، ونحن نعيش في عصر

انفجار المعلومات. ويمكن أن نذهب بعيداً بأنّه يعني الوثائق وغيرها من المسجّلات المطبوعة أو المخطوطة التي تسجّل هذه المعلومات من أجل الرجوع إليها والإفادة منها فيما بعد. وعلم المعلوميات/ علم المعلوماتية، وهو اختصاص الإعلام الآلي. فاستعمل مذيع الثامنة (علم المعلومات) عندما غطّى أعمال المؤتمر الدولي الثاني حول هندسة العربية وهندسة اللغة، حيث تحدث عن ميدان الإعلام الآلي المعاصر الذي أصبح جاهله أمياً، فقال: قديماً كان يطلق مصطلح الأمي على من لا يعرف لغتين، والآن على من يجهل علم المعلومات. والحقيقة هناك علاقة تراتب بين المصطلحين؛ فالمعلومات.

13. المجمع الجزائري للغة العربية: استعمل الصحافيون المذيعون كلمة المُجَمّع الجزائري لغة العربية، وهذا عند حديثهم عن مؤسّسة أكاديمية وهي المَجْمَع؛ حيث تجتمع جماعة من العلماء للنظر في ترقية اللغة العربية بوضع القوانين اللازمة لذلك. ونجد الصحافيين يخلطون بين المَجمَع، والمُجمَّع وهذا الأخير يطلقه المصريون على التعاونية الاستهلاكية التي تجمع مختلف المواد الغذائية وتقدّمها للمواطن بسعر مدعّم.

لا يعذر الصحافي في هذا الخطأ عندما يقول: المُجَمّع الجزائري للغة العربية، فقد ربط مصطلح (المجمع) بمؤسّسة تعمل على ترقية اللغة العربية، فكلّ المجامع العربية تقوم بذات العمل، ولا يطلق عليها إلا مصطلح (المَجْمَع). ولكن هناك مؤسّسات تعمل على ترقية اللغة العربية عن طريق بعض الفنون الأخرى الملحقة باللغة، ولكنها لا تختصّ بالبحث

في قضايا فقه اللغة أو توحيد المصطلحات فيطلق عليها المُجَمّع مثل: مُجَمّع الفنون بتونس/ مُجَمّع أبو ظبي.

14. الخوصصة: يستعمل المذيعون كلمة (الخوصصة) ويبدو لي أنّهم يقيسونها على العولمة/ العوربة/ القولبة... إنّ الخوصصة تقابلها في الفرنسية كلمة Privatisation وهي نقل ملكية الدولة إلى الخواص. الخوصصة مشتقّة من خاصة، وفيها تقلب الألف واواً، فتصبح في الجمع (خواص). يرى بعض اللغويين أنّه يجب استعمال الخصخصة، وفيها نرى تكرار خصّ مثل: بأبأ/ بحبح/ بقبق وأغلبها أصوات. وأما الخوصصة، فتدلّ على التحوّل من وضعية إلى أخرى مثل: جوسسة/ حوسبة، ومن ناحية الاستعمال نرى أنّ الخوصصة أشيع من الخصخصة كما أنّه لا يحمل النفور الذي نجده في الخصخصة[25]. والخلاصة أين الصواب من الكلمتين؟

إنّ اللغة استعمال، والإنسان ابن بيئته وابن إعلامه، ووسائل الإعلام تشكّل بيئة الإنسان العقلية، فما دام الاستعمال فرض الخوصصة من الخاص، ومصدره التخصيص، مثل التعميم، ولكن لغة الإعلام تستعمل الخوصصة، وقيست على الخصخصة، فإذن ما قيس على كلام صحيح فهو صحيح.

15. دخول الباء حرف جرّ على الفعل المتعدّي: يقول الصحافي: إنّ السكان لاحظوا بأنّ الإدارة تماطلت/ ويرى المهندس الصيني بأنّ الإنجاز أشرف على النهاية... فهناك من يستنكر هذا الاستعمال على أساس أنّ الباء التي هي حرف جرّ لا تدخل على فعل متعدّي. وبقليل من التخريج

نجد هذه الباء لا تعمل عمل التعدية بل تقوّي الفعل، وعليها هذه الشواهد: ﴿**ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة**﴾ (البقرة 195)، ﴿**وهزي إليك بجذع النخلة**﴾ (مريم 35). ومن هنا فلا مانع من التنويه بمثل هذا الاستعمال الذي يثري اللغة، ولذا نجد الصحافيين يوظّفونها باستمرار.

16. أعلن: يستعمل صحافيو الثامنة: أعلن وزير المالية عن إجراءات جديدة في ميزانية السنة. فنجد الفعل (أعلن) يجعله متعدّياً بحرف الجرّ فقط، وتنصّ الأصول أنّ الفعل (أعلن) في أصله متعدٍ إلى مفعول به واحد بنفسه: أعلن الأستاذ النتائجَ. أي أشاعها، ويتعدّى أحيانا بحرف الجرّ: أعلنت الرئاسة عن قائمة الوزارة الجديدة. والإعلان هنا واقع على ما يشاع ويجهر به. كما نسمع عن لسان الصحافيين: أُعلِنَت منطقةُ البحر الأبيض المتوسط منطقةً آمنةً. فهنا نجد أنّ (أعلن) تعدّى إلى مفعولين وهذا خروج عن عرف اللغة بأنّ أعلن لا يتعدّى إلى مفعولين. وهكذا تأتي أمثال هذه الأخطاء ترجمات حرفية من لغات أجنبية، دون مراعاة خصائص اللغة المنقول إليها (العربية).

17. أصبحت الجزائر مَرْجَعاً في الديمقراطية: لا يدري الصِّحافي الموضع الذي يكسر فيه عين الكلمة في المضارع أو فتحها أو ضمّها، وهذا الأمر من القواعد التي ربّما أهملها، أو نسيها. فنجد كلمة (مَرْجَع) من فعل رَجَعَ مضارعه يرجِع بكسر الجيم، والمصدر مَرْجِع. ولا يمكن أن نقول: مرجَع (فتح الجيم) على اعتبار أنّها اسم مكان، وليست اسم مفعول الذي يأتي من (أرجع) الرباعي. ولقد رأيت ضرورة العودة إلى القرآن الكريم لتدعيم الذي قلته،

فوجدت أنّ كلمة (المرجع) لم تذكر، وذكرت خمس مرات في صيغة (مرجِعهم) وكلّها بكسر الجيم: الأنعام 108، يونس 46، يونس 70، لقمان 23، الصافات 68.

كما استرعى انتباهي بعض الألفاظ الجميلة التي استعملها صحافيو الثامنة، وتحتاج بدورها إلى تحقيق من مثل: وصفهم الخصوم الأعداء: بكلمة: الألداء/ توظيفهم كلمة التصويب بمعنى التصحيح/ استعمالهم أو لمطلق الجمع/ تظريفهم لكلمات: ضمن، طي، أدناه/ استعمالهم كلمة التنصّت بدل التصنّت...

وانطلاقا من هذه العينة البسيطة، هناك عبارات كثيرة مثيرة للبحث كذلك، من مثل:

- الوِزارة/ أم الوَزارة:
- ساهم في:
- صادق على:
- الجواب عن الاستفهام الإنكاري بنعم بدل بلى/ توظيف هل في الاستفهام ويُراد منها التعيين:
- استُقبل وزيرُ الخارجية من قبل الرئيس الفرنسي:
- وافق على...

ولا مانع في هذا المجال من معالجة الجانب الدلالي الذي يحتاجه المعجم العربي المعاصر المسموع من القنوات الأخرى من مثل: مدلول كلمة الإرهاب/ مدلول كلمة المقاومة/ مدلول كلمة الكفاح/ مدلول كلمة الأرض

الموعودة/ الأرض المحتلّة/ العولمة/ القانون الدولي الجديد/ حوار الحضارات/ شمال جنوب/ الشرق الأوسط/ محور الشرّ/ التطبيع/ المجتمع المدني/ طي الصفحة...

وهكذا الأمر في هذا الجديد، فإنّ كلّ عصر لابدّ أن ينتج ألفاظه وأساليبه ويحصل أنّ حرب المجايلة تحدث بين القديم والجديد، فيُحارب الجديد بدعوى أنّه يعمل على قتل القديم، ولكن بعد مدة يصبح الجديد قديماً، ولا شكّ أنّه سوف يقبل بعدها، ولن يرفض، ويقول فاروق شوشة: في الحقيقة إنّ المتأمّل في تاريخ اللغة العربية يرى في كلّ حقبة من الزمان، تغيّرات في الأساليب المستعملة يتقبّلها الجمهور ويمارسها، فلا يلبث الكثير منها أن يصبح شائع الاستعمال تجري به الأقلام والألسنة دون حرج أو معارضة. ولو أجلنا النظر في عصرنا الحاضر لوجدنا عدداً وافراً من هذه الأساليب والتراكيب والتعابير الجديدة التي نشأ أكثرها بعد الحربين العالميتين، فأصبحت الصحف ووسائل الاتّصال بالجماهير تتناقلها، وأخذ المؤلفون يستعملونها، ولقد حاول اللغويون المتشدّدون أن ينقدوا هذه الأساليب وأن يعترضوا عليها، ولكنّها بالرغم من ذلك سادت وشاعت وأصبحت حقيقة قائمة شائعة. ومثل هذا ما حدث للفعل (اكتشف) في مثل قولنا: اكتشف نيوتن قانون الجاذبية، أو (اكتشف) كولومبوس أمريكا، فقد أنكر هذا الفعل جماعة من كبار أهل اللغة، ورأوا أن يستبدل به الفعل (استكشف) أو (كشف) وأصرّوا على ذلك زمناً، ثم هدأت العاصفة النقدية، وبقي الكتّاب يستعملون اكتشف[26].

والخلاصة: أقول من خلال هذا الموقع: لست في موقف من يتسرّع وينبش لإظهار الخطإ، ولا ممّن يغالي في اصطياد أخطاء بسيطة فرعية، ولا

يتعرّض لأخطاء الأصول وهي الأهمّ، ولستُ من أولئك الذين يقمعون مستعملي اللغة بقولهم: قل ولا تقل/ صحّح لغتك/ هذا ما قال به الأولون/ ليس لنا أن نقيس غير ما قاسه الأولون/ لا نأتي بما لم تأت به الأوائل.... وغرضي من كلّ هذا الحرص على سلامة اللغة العربية، والإدلاء بالرأي الجامع لأصحاب الاختصاص، على اعتبار أنّ الحرص على سلامة العربية من شعائر الإسلام. ولذا يمكن إجمال المواقع التي حدث فيها الخروج / العدول عن الصواب من خلال المدوّنة في ما يلي:

1. حاول الصّحافيون المذيعون محاكاة النمط الأصيل في كثير من المواقع.

2. أبدع الصِّحافيون المذيعون في كثير من المواقع، وأثروا اللغة العربية بمستجدات معاصرة.

3. عمل الصِّحافيون المذيعون على إحداث بعض الخروقات اللغوية في بعض الفروع.

4. خرج الصِّحافيون المذيعون في بعض المواقع عن العرف، ولم يكن في جانب التركيب الذي يغيّر المعنى، بل في الجانب الأسلوبي أو الدلالي.

5. أخطاء الصّحافيين المذيعين يمكن علاجها إذا وقع التنبيه عليها، والتركيز والإعداد السليم للمادة التي يقدّمها.

أسباب الخطإ: ثبت قطعاً بأنّ الصحافي يقع في أخطاء، وأحياناً اللغة الصحافية التي يوظّفها تجعله يخرج إلى ما يراه البعض خطأً، وهو صواب، وهذا لما لها من خصوصيات، ومع ذلك فإنّ المدوّنة دلّتني على أنّ أسباب هذه الأخطاء تعود إلى مجموعة من العوامل، ويمكن إجمالها مبدئياً في: الجهل

بقواعد اللغة/ عدم مراعاة معاني الأدوات اللغوية ووظائفها/ أداء الكلام المكتوب بالفصحى بطريقة العامية/ غلبة اللهجات المحلية على الفصحى في معظم إذاعاتنا/ طغيان الكلمات الأجنبية التي ليست ضرورية. وهذه الأخطاء بعضها صادر عن خطإٍ صوتي والبعض الآخر عن خطإٍ في بنية الكلمة والبعض عن خطإٍ في التركيب. وبعضها عن خطإٍ في الدلالة، وعلى العموم، فإنّ عوامل أخرى ساعدت على ظهور الخطإ بِنِسَب متفاوتة، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى:

– عامل نقص المعرفة اللغوية والتفقّه في مبادئها: كثير من الأخطاء تحصل عن طريق عدم التفقّه في اللغة، ويظهر هذا في بعض القضايا اللغوية التي تحتاج إلى فقيه متمرّس، وسببه الكبير هو الإعراض عن القراءة المستمرّة، والمتابعة الجادة لكلّ جديد لغوي، وهذا الإعراض يؤدّي إلى العجز والنقص في الحصيلة اللغوية ويضاعف من الصعوبات التي يواجهها الصِّحافي، وبالتالي يقلّص حصيلته الفكرية، ولا شكّ أنّ ضعف الملكة اللغوية لدى بعض الصِّحافيين أدّى إلى انتشار المظاهر اللغوية الشاذة، وإلى الدفاع بكلّ قوة عن (خطأ مشهور أفضل من صواب مهجور). وإنّ مسألة عدم التفقّه اللغوي يؤدّي إلى ضعف ملكة الأداء الجيّد ونعرف أنّ سيبويه لم ينل نصيبه الجيّد من النّحو لو لم يلحن في مجلس حمّاد بن سلمة لَمَّا كان يملي على سيبويه حديثاً جاء فيه : قال صلى الله عليه وسلّم: ليس من أصحابي أحد إلا لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، ظنّه اسم ليس، فصاح به حمّاد: لحنتَ يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبتُ إنّما هو استثناء، فقال سيبويه: لا جرم، والله لأطلبنّ علماً لا تلحنني

فيه أبداً. لا أقصد من هذا الشاهد أن يكون الصِّحافي سيبويه اللغة أو خليل عصره، بل أروم مسألة تحصيل الأصول التي تعمل على الحدّ من ظاهرة اللحن المخلّة بالأصول وبالنسبة للاجتهادات التي تبديها لغة الإعلام في استحداث الألفاظ فهي جائزة وعلينا جميعاً تشجيع ما تدرّه من ألفاظ وأساليب تعمل على إثراء اللغة بكلّ ما يعمل على مسايرتها للوضع المعاصر.

– عامل التعلّم في المدرسة عن طريق الخطإ : يقول المثل العربي (التعلّم في الصغر كالنقش في الحَجَر) ثبت أنّ الذهن منظومة معقّدة، له شبكة من التسجيلات الفائقة الحفظ، وهذا ما يظهر في ضرورة التعلّم في الصغر أكثر منه في الكبر للاستعداد الذهني القابل للحفظ، ومن هنا يوصي علماء النفس ضرورة تلقين لغة سليمة بسيطة خالية من العيوب للطفل، فإنّ ذهنه عجينة تتشكّل بقدر ما تعطيه؛ حيث يرسّخ الطفل في ذهنه كلّ الأنماط اللغوية التي يتلقّاها صائبة كانت أو خاطئة، فبات من الضروري تلقين الطفل المبادئ اللغوية على بيّنة من أصولها؛ حفظاً لكلّ خطإ يلقّن في الصغر؛ حيث يبقى الدوام عليه مهما تعلّم قواعد اللغة، فقد تتشابك الفطرة اللغوية مع الخطإ، وتنتصر الفطرة، فيستمر الخطأ. ولكن إذا نمت اللغة العربية نمواً صحيحاً غدت تلقّن للأجيال تلقيناً كما تلقّن اللغات الأجنبية الحديثة.

– عامل اللغة المتحدّث بها ليست لغة أمّ: ثبت أنّ اللغة الأمّ إذا كانت هي ذات اللغة التي يتمّ تعلّمها يسهل على المتعلّم أخذها، ويندر أن يحدث فيها الخطأ باعتباره قد حصّل (المذيع) سليقة لغوية بالفطرة، وخاصة عند

بعض اللغات التي لا يوجد فيها فرق بَين المستعمل والمكتوب؛ حيث يتقاربان جداً، ويظهر الشرخ بيّناً عند من يستعمل لغة دنيا في المعاملات اليومية، ويكتب بلغة أدبية راقية، تبتعد عن اللغة اليومية، وهذا ما يتجلي في اللغة العربية، ولكن هذا العامل قد يتقلّص إذا نشأ المستعمل للغة العربية على حفظ الإبداع اللغوي الجيّد، وعلى توظيف العربية في مختلف مقاماتها، بل نجد أنّ من يتقن لغة ثانية (لغة أم) غير العربية يتقن العربية أيّما إتقان، وفي كثير من المواقف يتفاصح بها. وإذا كانت الممارسة (اللغة وضع واستعمال) دائمة على كلّ مستوياتها وأشكالها، تعمل على تنمية الرصيد اللغوي وتعتبر القاعدة الأولى في تكوين أو تطوير واستمرار فاعلية كلّ مصدر من مصادر الثقافة الفكرية والثقافة اللغوية، شرط أن تكون الممارسة خاضعة لنظام مدروس وتوجيه سديد، وهكذا اللغة تتوارث وتُتعلّم بالتلقين والسماع والممارسة أكثر منها بالتعمّق في أصولها وقواعدها، وإنّ أهمّ خصائص الإنسان الفكر، وأعلى ملذاته ممارسة هذه الخصائص.

مواصفات لغة الإعلام : نعرف أنّ لغة الصحافة لغة سريعة وحينية؛ تضع المعلومة والخبر في القالب المناسب، مع مراعاة سلامة اللغة والاختصار والمباشرة في وصول الخبر، وتأتي بكلّ تلقائية ودون رويّة أحياناً، كما يتأثّر الصحافي بما تدرّه الوسائل الأجنبية، وبأنماط كتاباتها وأساليب تحريرها من غير اكتراث بما يتنادى به اللغويون المتخصّصون من ضرورة الأخذ بالقواعد وإتباع الأصول. ولهذا بات من الضروري أن تكون لهذه اللغة مواصفات تختصّ بها:

أولاً: التحرّر من تقاليد الكتابة الفنية القائمة على السجع والازدواج: إنّ شجاعة الصحافي تفرض عليه أن يغامر في خوض معركة اللغة، ليتجاوز القواعد والقياس حين تضطر الضرورة لذلك، فلا بدّ من الإيجاز والمجاز والتقديم والتأخير والحمل على المعنى، وتفادي الإطالة والإطناب، وهذا كلّه لا يأتي إلا بمعاناة نقل خصائص اللغة العربية إلى واقع جديد، وليس سهلاً على صحافي لم يتخصّص في فقه هذه اللغة، ولذا نجد بعض التخريجات في لغات الصحافة غريبة عن جسم هذه اللغة. ولكن يجب أن نقرّ بأنّ الصحافي الممارس لهذه اللغة لا يجني عليها، وإنّما يحاول أن يعطي لها نفساً جديدا لتعيش الوثبة الحضارية المعاصرة، ويقول أحد الباحثين في هذا المجال "إنّ ما يستوقف الدارس في هذا النتاج (الأدبي) الصحافي هي المعاناة اللغوية المرّة التي عاناها النقلة في تطويع لغة الضاد، وثروتها الاشتقاقية واستقصاء إمكاناتها تنقيباً عن الأوعية الملائمة لسكب وقائع المعرفة وبوارق الخواطر الطارئة، وفي هذه المحاولة محاولة التعويض الحضاري والوثب باللغة إلى مستوى العصر توجّهت الشواغل اللغوية في مناح ثلاثة:

منحى الباحثين عن المفردات العلمية بما يقابل مترادفاتها عن الفرنجة تُشتق أو تُنحت أو تبنى على صيغها الغريبة.

منحى اللغويين الأصلاء، يقوّمون ما اعوجّ من اللسان، ويدرؤون عن الفصحى ما تسلّل إليها من فساد اللهجة المحكية.

منحى الأدباء يتّسع جهدهم باتّساع مرافق الوجود ومختلف فروع المعرفة والأجناس الأدبية[27]".

وهكذا نلمس من خلال هذا الشاهد معاناة الصحافيين في تطويع العربية لجعلها تعبّر عن قضايا حينية وفق أنماط معاصرة.

ثانياً: التطرّق إلى الموضوعات عن قصد ووضوح وترتيب الأفكار: نعرف أنّ الصحافة صناعة وفكر؛ أي إنّها إنتاج صناعي فنّي وإبداع فكري، وفنّ إعلامي تتفاعل مع المحيط الذي تنشأ فيه، وهذا كلّه يفرض على لغتها أن تختلف عن لغة الأكاديميين، وهي غير اللغة الأدبية، أو اللغة العلمية، أو لغة الشعر القديم، فلها خصائصها. وبذا لا أبتغي من الصِّحافي أن يجعل لغته متقعّرة، لأنّ مفهوم الفصاحة لا يعني التقعّر، بل الاستعمال وفق ما هو متداول، وهذا ظاهر في لغة صحافيي الثامنة بقوّة، بل إنّ بعضهم يعملون على التيسير اللغوي، وهذا ما يراه بعض الصفويين خروجاً عن عرف اللغة، ويتناسون بأنّ للغة العربية مستويات، فأرى هؤلاء الصِّحافيين في كثير من النشرات يعملون على تسهيل النطق؛ حيث يعتمدون الاختلاس والإشمام فتميل لغتهم إلى الخفّة، وهذا في الحقيقة هو مستوى مبسّط وقد وُجد في العربية قديماً، وفي القراءات القرآنية، ويسميه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح (قراءة الحِذْر) وقرئ بها القرآن الكريم. ومن هنا يتوهّم البعض مغالاة في طلب التخطئة بأنّ لغة الصّحافي في عمومها رديئة تعمل على الانحدار اللغوي. ونقرّ بأنّ الصحافة من بين الفئات التي أغنت اللغة العربية بكلمات سحرية زادت من ثروتها اللغوية،

ومن خلالها عرفنا نوابغ الفكر في مختلف الفنون ويقول الدكتور أمير بقطر في مقالة طريفة بعنوان: لولا الكلمات السحرية ما عرفنا نوابغ الخطباء والأدباء "لولا الكلمات السحرية الرائعة وثورة المفردات المنتقاة المغربلة المصفاة، لما اشتهر من نعرفهم من الكتاب والشعراء والخطباء في الشرق والغرب

في جميع العصور. والمفردات هي للكاتب والخطيب والشاعر والروائي والصحفي كالآلات للصانع. وأهمّ ما في الجملة الاسم والفعل، غير أنّ الفعل قوّتها وسلاحها وعضلها، وقد يكون المعنى رصيناً، وقد تكون الجملة متينة التركيب ولكن يعيبها فعل رخو هزيل. وهناك أفعال باهتة صفراء الوجوه، فقيرة الدم شاحبة اللون. وهناك أفعال تفيض حيوية ودماً واحمراراً، قاطعة حادة، كسيوف شحذتها أيدي الصياقلة. هناك فرق بين قولك: تقدمت السيارة مسرعة، واندفعت تسابق الريح. وبين: ارتفع صوته في القاعة، ودوّى صوته، وبين سمعته يذمّني فسكت، وسمعته يذمّني فأغمضت عنه. وبين بحث الأمر وتقصّاه، واستجلى غوامضه وخاض عبابه، وبين: أكثر من سؤال الشاهد وأمطره بالأسئلة[28].

ثالثاً: مخاطبة الرأي العام والنفاذ إلى وجدانه: يجب أن نعرف بأنّ لغة الصحافة تمارس نظاماً للتأثير وتخاطب مستمعاً ترغب استمالته، ومن هنا نرى الصحافي يعتمد في غالب الأحيان على البديهة في محاورة المستمع بشكل تلقائي، وتكون اللغة عندئذ سلوكاً انفعالياً، ولا يتحرّى غير المتجاوب معه والتأثير فيه، ولا شكّ أنّ هذا يكون أحد المسبّبات التي قد تخلّ بمنطق اللغة والخروج عن قواعدها بالجنوح إلى بعض الخطإ، وهذا بسبب أنّ توجّه

الصحافي غير توّجه أكاديمي؛ لأنّ مقام الصحافي في كثير من المواقع لا يسمح له بذلك "إلا أنّ عمل الصحافة والإعلام، لم يكن مرتبطاً بهذا الفكر اللغوي الأكاديمي، ولا بوتيرة البحث عمّا هو صواب يجب استعماله، وما هو خطأ في الاستعمال يجب تركه؛ لأنّ مخاطبة الرأي العام ومتطلّبات التحرير اليومي المتعجلّة وارتهان إصدار الصحف والمجلات بعوامل متحكمة في إدارة الكاتب والمحرّر، وكلّ ذلك كان يفرض على المشتغلين بالصحافة والإعلام أن يتجاوبوا أحياناً كثيرة تجاوباً آلياً بين الفكرة والتعبير عنها، وسنوح الخاطرة واحتوائها[29]". ومع كلّ ما يُقال في هذا الأمر لا يعني أنّنا نبيح للصحافي أن يخرق القواعد، أو عليه أن يتساهل في خصائص اللغة بل كلّ المراد أن نقبل بلغة الصّحافي متى التزمَ الحدود الدنيا في لغته.

ولكن ما أردت التركيز عليه في هذه النقطة هو أنّ اللغة اجتماعية، تتبع من المستعمل المثالي، فهو الذي يجريها حسب الظروف المحيطة به، وقد يعدّل منها عندما لا تؤدّي اللفظة أو الأسلوب وظيفته. وكون اللغة ظاهرة اجتماعية شأنها شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى، تتطوّر بتطوّر المجتمع، وما يجري فيه من أحداث ووقائع، وبذا فهي ليست كائناً حياً تحيا ثمّ تموت، وقد قيل هذا من باب التجوّز على اعتبار أنّها تتّصف بإمكانية التطوّر، فبقدر ما يكون التفاعل والنهضة في المجتمع قائمة، بقدر ما يحصل التطوّر في اللغة. فبات الأمر في هذه النقطة بأنّ لغة الإعلام أكثر مسايرة للحدث، لأنّها تعبّر عن الوضع القائم وتصف الحدث دون تحرّز أحياناً فظهر لنا بأنّها تبتعد عن النمط المألوف. وينبغي أن ننظر إلى أنّ هناك لغة جديدة معاصرة،

وليست بخطإ، وإنّ القدامى لم يقولوا بتلك الأساليب لأنّ وضعهم غير وضعنا، إنّ القول بالخطإ أحياناً يسبّب تخطئة الصواب كما أنّ عدم الخروج من دائرة ضيّقة على اعتبار أنّها معين اللغة يكون ذلك حكماً بأنّ اللغة جامدة. وأمام هذا بَصُرت بمجموعة من الضروريات التي أروم تأكديها في لغة الصِّحافة وهي:

أولاً: خاصية التواصل مع التراث: إنّ مبدأ اعتماد التراث العربي الأصيل ضروري للجميع، بل فرض عين على كلّ مستعمل للغة العربية؛ بحيث تظهر هذه الخاصية في التمسّك بنظام الإعراب؛ لأنّ كلّ مساس بالإعراب هو مساس بالأصول؛ والذي يؤدّي بدوره إلى التواصل الجيّ ّد بين مستعملي هذه اللغة. ومن هنا يجب الإحاطة بالعوامل التي تُسهم في إضفاء سمة المحافظة على الأصول، ولن يتأتّى هذا بسهولة ما لم يلّم الصحافي وغيره بالأصول، أي قراءة التراث واستلهام اللغة منه، وهكذا تفعل كلّ الأمم، فنرى الإنجليز يتشبثون بشعر شكسبير؛ مع أنّ لغتهم المعاصرة تختلف في بعض أبعادها عن لغته، وأنّ الفرنسيين يتمسّكون بقراءة Voltaire, Victor Hugo, Molière, Jean Racine علماً أنّ تراكيبهم المعاصرة قد تبدلت في كثير من مضامينها، وهذا كلّه للحفاظ على الأصول ما أمكن. ويعني أنّ الصّحافي مجبر على الاقتداء بالأصول اللغوية التي تجعل لغته غير خارجة عن منوال اللغة، فيجب التنبيه إلى الفروق الدقيقة بين: إنّما حضر الاجتماعَ أمسِ الرئيسُ: أي الرئيس لا غيره/ وإنّما حضر الرئيسُ أمسِ الاجتماعَ: أي لا اجتماعاً آخر/ وإنّما حضر الرئيسُ الاجتماعَ أمسِ: أي لا في يوم آخر.

ثانياً: خاصية الإقرار بضرورة التطوّر اللغوي في لغة الصحافة: لا ننكر بأنّ الإذاعة ساهمت في تطوير هذه اللغة وخاصة في وقت المِحَن، أين كانت هذه الإذاعات تعمل على التعبئة الجماهيرية، بذلك الحماس الباهر للمذيع الذي استطاع أن يوصل معلومات جديدة عن طريق التوظيف الجيّد للغة، نفس الشيء بالنسبة للصحف والتلفزة، وهذا ما هو ملاحظ في الوقت المعاصر ممّا يحصل من تقدّم في طرائق تبليغها، وفي مناهجها المعاصرة من مثل استعمال المفردات والألفاظ الجارية على ألفاظ قديمة والاشتقاق من الصيغ الجديدة، وتعريب الألفاظ الأجنبية بما يتّفق ووضع اللغة العربية، واستحداث أساليب وتراكيب للتعبير عن كثير من المعاني المركّبة... "أتاحت الصحف للفصحى منذ الربع الأخير من القرن الماضي تطوّراً واسعاً نحو تمرينها على أداء كثير من شؤون السياسة والمجتمع أداءً مرناً سليماً وسرعان

ما أخذ المترجمون والمؤلّفون يقتدون بالصحف في استخدام هذه الفصحى العصرية وظلّت عقول بصيرة حتى اليوم تسهم في هذا الأداء المرن نافذة إلى أسلوب سهل بسيط[30]" وإنّ هذا التطوير كان سريعاً على اعتبار أنّ الصِّحافة تعمل في جوّ من الحرية البعيدة عن القيود النّحوية الصارمة، فمن هنا نجد لغة الصِّحافة رغم خروجها أحياناً عن النمط لكنّها تفتح المجال لأنماط جديدة وبها يمكن أن تزدهر الثقافة، وإنّه لا يمكن أن ينمو إبداع ما من دون خطإ! فبات من الضروري أن يكون الخلاف اللغوي عاملاً من عوامل النّمو اللغوي، وقد يعمل على التيسير أو التدرّج الذي تأخذ به اللغات. وإنّ ثقافة تأخذ قيود المنع والحظر مآلها الذبول

والفناء، كما أنّ مجتمعاً يخضع لوصاية الفكر الواحد والرأي المتعصّب لن ينمو فيه إبداع. وهكذا فلغة الصِّحافة تعطي هامش الحركة للبحث اللغوي بأن يعالج هذه المظاهر العدول عن العرف اللغوي، وهو شيء مقبول في كلّ الأعراف الأكاديمية ومن وراء ذلك يقول المختصّون كلمتهم في كلّ ما يرونه خارج المعيار.

ثالثاً: خاصية توظيف قانون المجاورة: إنّ لغة الصحافة تستعمل في كثير من أساليبها هذه الخاصية؛ حيث نجد الانزياح اللغوي يظهر في بعض الأساليب مجاراة للوزن، وقد عمل بها القدامى، فجمعت كلمة (رسول) على (أرسل) مجاراة للوزن في قول الشاعر:

لو كان في قلبي كقدر قلامة   من حبّ غيرك قد أتاها أرسلي.

وتروي كتب فقه اللغة كثيراً من شواهد المجاورة، والتي ما استنكرها الخليل ولا سيبويه من مثل: هذا جُحرُ ضبٍّ خربٍ/ إنّ أباها وأبا أباها/ هذا بيت بطلٍ مغوارٌ. وفي الاستعمالات المعاصرة يكثر استعمال: هذا رجلُ علمٍ فاضلٌ/ فاضلٍ. وإلى جانب هذا نجد عمل المشتقات الخمس، أو ما يسمى بالصفات التي تعمل عمل فعلها، ففيها جواز الجرّ بدل الرفع، والجرّ بدل النّصب، أو ما يسمى (مجرور لفظاً مرفوع محلاً/ مجرور لفظاً منصوب محلاً).

وهناك ألفاظ ينزاح بها بعامل الموقف، أو ما تفرضها جماعة الضغط، ويروي النويري أنّ العريان بن الهيثم قدم على عبد الملك بن مروان فقيل له: تحفّظ من مسلمة (ابن عبد الملك بن مروان وقائد جيشه) فإنّه يقول: لأن

يلقمني رجل بحجر أحبُّ إليّ من أن يسمعني رجل لحناً. فأتاه العريان ذات يوم فسلّم عليه. فقال له مسلمة: كم عطاءَك؟ قال: ألفين. فنظر إلى رجل عنده وقال له: لحن العراقي. فلم يفهم الرجل عن مسلمة. فأعاد مسلمة القول على العريان، وقال: كم عطاؤُك؟ فقال: ألفان. فقال: ما الذي دعاك إلى اللحن أولاً والإعراب ثانياً؟ قال: لَحَن الأميرُ فكرهتُ أن أعرب، وأعربَ فأعربتُ. فاستحسن قوله وزاد في عطائه. كما تروي الكتب النّحوية القديمة بأنّ نحوياً وقف على بقّال يبيع الباذنجان. فقال له: كيف تبيع؟ فقال: عشرين بدانق. فقال: وما عليك أن تقول: عشرون بدانق؟ فقال: وما عليك أن تقول: ثلاثون؟ فما زال على ذلك إلى أن بلغ السبعين. فقال: وما عليك أن تقول: سبعون. فقال: أراك تدور على الثمانون، وذلك لا يكون أبداً. كما نقل الأصمعي عن عيسى بن عمر، قال: كان عندنا رجل لحّانة، فلقي لحّانة مثله فقال: من أين أقبلت؟ فقال: من عند أهلونا. فحسده الآخر، فقال: أنا والله أعلم من أين أخذتها؛ أخذتها من المنزّل قال الله عزّ وجلّ ﴿**شغلتنا أموالنا وأهلونا**﴾ (سورة الفتح 11) وهكذا فإنّ لغة الصِّحافي تراعي مختلف هذه المقامات، لأنّها يجب ملاحقة الخبر للسبق الصحفي، مما يمكن الترخيص لها بالخروج عن بعض الأنماط الصحيحة. ولا نغادر أسلوب المجاورة لنشير إلى أسلوب المجاز الذي نال حظوة كبيرة في لغة الصِّحافي، واستعملته بقوّة ونال درجة الاستحسان لأنّه يلمّح وينتقد به، ويبيح بعض التيسيرات المقبولة حتى عند النّحاة، وأفتى المجمع المصري في قضايا كثيرة استُعمل فيها أسلوب المجاز، وعلى عديد من مستويات المجاز: المجاز البلاغي والمجاز النّحوي. ولكن لا يعني بأنّ العربية في

وضعها التقعيدي لم تحصل فيها فجوات، أو نقائص، بل حصل أن وضعت قيود صارمة، وكان الهدف المحافظة على عدم لحاق الخطإ بهذه اللغة، لأنّ كل خطإ يلحقها، يؤثّر ذلك في القرآن الكريم، ومن هنا أحيطت بسياج صارم، وقد أضرّها في بعض المواقف. ويسجّل الباحث هادي نهر بعض العيوب على أولئك الذين قعّدوا اللغة وفق حدود ضيّقة كما يلي:

1. إهمالهم عامل الزمن (عدم الاعتراف بأنّ اللغة قابلة للتطوّر) حيث تشدّدوا كثيراً، وبنوا أغلب دراساتهم على المنهج المعياري.

2. توقيف القدماء الاستشهاد باللغة إلى منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً (حكموا على كلّ الظواهر اللغوية التي وجدت بالعربية بعد هذا التاريخ على أنّها صريحة للخطإ والانحراف).

3. جمهور اللغويين رفضوا القياس على ما ينعت عندهم بالشاذ إحكاماً لقواعدهم اللغوية وضبطاً لها.

4. غرم النّحاة بالعلل النّحوية حتى صارت فلسفة ومنطقاً[31].

رابعاً: خاصية القبول ببعض العدول اللغوي: ويظهر هذا في سمة قبول ما يُستحدث ولا يخضع لقوانين معيّنة، ويدخل فيه بنية اللفظ والوزن والإيجاز وسهولة التلفّظ والتفرّد في الدلالة، والتمييز بين ما هو ضروري للعامة ومعين على إحكام اللغة، وتذوّقها وتطويعها لتلبية الحاجات والرغبات، وبين ما هو شأن ذوي الاختصاص في التعمّق والبحوث التي تهدف إلى إحياء التراث وتطويره وإبراز قيمته العلمية. ويعطي لنا تراثنا أمثلة حيّة عن هذا الأمر، فهو الذي يقول: الأصل في الأشياء الإباحة والمنع بحاجة إلى دليل، كما أنّ تعميم

المنع خطأ كبير، فبقليل من لطف الصنعة وحسن التروي وإعمال القياس يمكن الاهتداء إلى وجه الصواب، فما قيس على كلام العرب، فهم من كلامهم. ألم ينكر بعض النّحاة على الشاعر ذي الرمّة استعماله التاء في (زوج) وذلك في قوله:

أذو زوجة في المصر أو ذو خصومة   أراك لها بالبصرة العام ثاوياً

على أساس أنّ قوله تعالى ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسكْ عليك زوجَك واتقِ الله وتخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناسَ والله أحقّ أن تخشاه فلما قضى منها زيد وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً**﴾ (الأحزاب 37) لم تأتِ فيه كلمة (زوج) بتاء التأنيث. ولكن بعض النّحاة الآخرين قبلوا عليه ذلك؛ على أنّه أكل الملح في حوانيت البقالين، وهذا تماشياً والتطوّر اللغوي الذي عرفته بيئة ذي الرمّة[32]، والآن تستعمل كلمة (زوجة) بالتاء، وقد فرضت نفسها، ولا أرى لمَ يستنكرها بعض اللغويين، على اعتبار أنّها لم ترد في القرآن الكريم بالتاء. علماً أنّها وردت في شواهد العربية:

فبكى بناتي شجوهنّ وزوجتي   والظاعنون إليّ ثمّ تصدّعوا

من منزلي قد أخرجتني زوجتي   تهرّ في وجهي هريرَ الكلبة

ضرورة اعتماد المراجع (المدقق) اللغوي المتخصص:

أكتفي بهذه الخاصيات التي أراها هامة، ولكني أريد التنبيه إلى ضرورة اعتماد المُراجع اللغوي المتخصّص في وسائل الإعلام: ويتعلّق دوره في

مناقشة القضايا اللغوية مع المذيعين والمذيعات في أخطائهم اللغوية والصوتية والتنبيه إلى وجه الصواب والنظر في مقبولية الألفاظ المستحدثة التي يفرضها سوق الاستعمال، أي رضا المستهلك، وهذا باعتماد أفضل الممارسات اللغوية التي يتبعها المنتج ليقبلها المستهلك في عملية ارتجاع المعلومات. وعلى المُراجع اللغوي أن يكون طيّعاً في قبوله الجديد ما لم ينافِ الأصول، وأن يطّلع على فكرة قولبة الألفاظ المستحدثة التي تعمل بها المجامع والتي عن طريقها استقبلت الألفاظ المرتجلة، ونظمت أداءها وفق نظم مسايرة الانهمار الكثيف للألفاظ المستحدثة عبر وسائل الإعلام، كما يجب عليه أن يكون على دراية بما قدّمته هذه المؤسّسات من تيسيرات، ويكون على بيّنة في اختياره بين الصوابيْن، ما يتطابق ومقتضى الحال، بعد تجاوز الخطإ ويَعْرِف بدقّة أسلوب التضمين الذي تعمل فيه اللفظة عمل لفظة أخرى... ويقول عبد الإله نبهان في مقال عنوانه: دراسة في معايير الخطإ والصواب في حركة التصحيح اللغوي. إنّ العربية من أبرز عناصر هويتنا، وأقوى مقوّمات وحدتنا، لذلك يجب بذل الغالي والنفيس في سبيل تدعيمها وترسيخها ومثل هذا لا يقوم به كتيب ننشره، ولا جدول نصنع عنوانه: قل ولا تقل. إنّ من ينهض باللغة هو إشاعة التعبير الصحيح السليم على ألسنة المعلمين والمذيعين والممثلين، وعلى صفحات الجرائد والمجلات والكتب العامة وكتب التعليم... وإنّ الإلحاح على تقديم المتعة باللغة الفصيحة عن طريق الأغنية والتمثيل ليقدّم للغة خدمة جُلّى قد تعجز عنها عشرات المؤلّفات في عصر انصرف فيه كثير من الناس إلى المشاهدة والاستماع.

1. ولقد سبق أن عاش هذه الظاهرة الدكتور طه حسين في مجمع اللغة العربية بالقاهرة مع الأزهريين الذين ينشدون الصفوية اللغوية لا غير، ولا يهمّهم التطوّر المطلوب عن طريق معايشة أحداث الواقع للغة، وصبّوا توجّههم في مراعاة أخطاء النّحو، دون التماس الجوانب اللغوية الأخرى، وكان يقول لهم: عودوا إلى استلهام قول الشاعر جبران الذي يردّد: إذا كان الشاعر أبا اللغة وأمّها، فالمقلّد ناسج كفنها وحافر قبرها. وفي موقع آخر يقول: إنّ اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في الأمة. فإذا كان الصفويون لا يرضون إلا بما قد قيل، فننعى لغتنا من الآن. ومن ذلك يبيح الابتكار اللغوي الذي يجب أن يبنى على معطيات معاصرة شرط احترام الأصول، ويمنع من يجرح في تلك الابتكارات؛ إلا إذا كانت له عدّة لغوية متينة ويحدّدها في النقاط التالية:

1. حسن البنية وسلامة القصد.
2. الاطلاع على قرارات المجامع اللغوية.
3. النظر في ردود العلماء على النّقاد.
4. معرفة قوانين البلاغة وفنون القول.
5. الاعتدال في قبول الشاهد أو رفضه.
6. التأنّي في القول بالخطإ والتحقيق الدقيق.
7. الفهم السليم وحسن الإدراك.
8. التقصّي الواسع في غير معجمات اللغة.

9. الأمانة في النّقل، ونسبة المسائل إلى أهلها.

10. الاهتمام بما يغني اللغة، وينفع المنشئين[33].

وأضيف إلى هذه العدّة، وأقول ما قاله الشاعر ذات يوم، وهو يبرّر عثرة من كانت نيّته سليمة:

أَقِلْ ذا الودّ عثرته وقِفه   على سَنن الطريق المستقيمة
ولا تسرع بمعتبة إليه   فقد يهفو و نيّته سليمة

من الضروري بمكان أن نعترف بشيء أساس وهو أنّ لغة الإعلام كلغة الإبداع تُستعصي على التحجيم والتضييق عليها، وفق قواعد لا خروج عنها، ولهذا ما يبدو خطأ، قد يكون له مسوّغ مقبول فتأكيد الحكم على أساليب الآخرين بالخطإ والزلل يحتاج إلى استقراء شامل لأساليب القرآن، وإلى العودة إلى لغة العرب، وإلى الحديث النبوي الشريف، وإلى لغة الكتّاب المعاصرين، وليت شعري من ذا الذي يدّعي لنفسه هذه الإحاطة، كما لا يجب أن تُسبغ القدسية على قول القدامى ونقف باللغة عندهم، أو البحث في المعاجم، وما لم يوجد فيها يكون مرفوضاً فاللغة أكبر من المعجم، وهي التي كوّنته، وهي التي ترفده وتغذيه بكلّ جديد علماً أنّ المعاجم القديمة التي تحمل لسان العرب هي ناقصة، بل وإن اكتملت في نظر البعض فهي تحمل المعاني القديمة، وأما المعاني الجديدة وما تدرّه المعطيات الحديثة، لا يمكن أن نجد ألفاظها، ولو اكتملت لما أُلّفت حولها الاستدراكات والتكميلات والحواشي والتّتمات، وكذلك ما كان يجب أن نتشدّد ونرفض كلّ تطوّر، فذلك ما يعمل على قتل اللغة.

وإنّ القضية في كلّ هذا في ما تعطيه المؤسّسات التربوية من تجديد لغوي وتفكير إبداعي اللذين يأتيان من الشعراء والصحافيين، وفي

ما تَقْبَلُه الجامعات والمجامع من حركة عملية بالابتعاد عن الفكر المطابق وتقدير مختلف أشكال الفنون، وفي ما يقدّمه المختصّون من العلاج الشافي الذي يجب أن يجرى في إرث هذه اللغة الذي هو بحاجة إلى قلع أعشابه الضارة، وإلى اعتماد بعض العدول القريبة من الفصحى، حيث أباح القرآن كثيراً منها، ولم يجعل قيداً صارماً يعاقب عليها فنجد فيه الخروج عن النمط النّحوي ولم يشتكِ القدامى من ذلك: ﴿**هذان خصمان اختصموا في ربّهم فالذين قطعت لهم ثياب من نار يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم**﴾ (الحج 19) ﴿**يا أيّها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً**﴾ (الممتحنة 21). ...وإنّه مطلوب من أهل الذكر (اللغويون) أن يجتهدوا في قضايا اللغة فكما جاز الاجتهاد في الفقه فَلِمَ لا يجوز في اللغة، وعلى القائمين على اللغة أن يجتهدوا في تطوير هذه اللغة بالابتعاد عن التعصّب، وعدم الركون إلى الأقوال المجحفة من مثل: هذا ما قال به الأولون، أو لا توجد في قواعد سيبويه... فيجب أن نسمح لأمثال هذه التعابير أن ترى نور الاستعمال: قال ذلك كسفير بلده/ صادق الوزير على القرار الاستعجالي / سافرت المديرة في مُهِمّة خارج الوطن/ سارت العلاقات خطوة خطوة/حبّذا لو صبرت عليّ/ هبْ أنّي فعلت كذا/ عاش الشاعر الأحداث/ مهما عملت فلن أؤاخذك/ ناقشنا نفس الموضوع، وتوصلنا إلى عكس النتائج/ استهدفت من هذه الخطّة زيادة الفائدة/ ما دمت مسؤولاً فأنت رئيساً...

الخاتمة:

يقول أحد الشعراء:

لكلّ قوم لسانٌ يُعرفون به   إن لم يصونوه لم يُعرف لهم نسبُ

لن يدرك المجدَ شعبٌ ما له لغةٌ   تحوطها دولةٌ أسيافها قُضُبُ

إنّ اللغة العربية تشكو أزمة ضمير الإنسان العربي، ولكنّها لغة ككلّ اللغات تقبل التطوّر والرقي والنهوض بها يشترط أن تحيا على أقلام الكتّاب والأدباء والشعراء والعلماء والصحافيين وبالاستعمال الحيّ تنمو العلوم والفنون وتغتني، وإنّ اللغة ترتبط بناطقيها صعوداً وانحداراً، ورقي اللغة يبدأ من الروضة إلى الجامعة، في ظلّ شبكة من الأطر العاملة على التنسيق بينها، ولا نستبعد في ذلك الصرامة المطلوبة من أجل المحافظة على اللغة باعتبارها بطاقة تعريف الشخص، وهذا ما يجب أن تجسّده القوانين الصارمة التي لا تقبل قليلاً من التسامح، ويحضرني في هذا الموقف ذلك النائب في البرلمان الفرنسي الذي قال: إنّنا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين والذين يسرقون ويقتلون، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يُفسدون اللغة.

وأعود ثانية لأقول: إنّ اللسان هو الإنسان، وإنّ اللغة من خلال الثقافة، والثقافة من خلال اللغة، وهو الأمر الوحيد الذي به يتحقّق الانتصار أو الانهزام، فنحن في عصر أصبح فيه الرامي مرمياً والقنّاص فريسة، ومن هنا، فإنّه سيظلّ هذا الكلام كلاماً، لا يخرج عن التنظير ما لم تؤخذ المسؤولية المناسبة لضخامة المشكلة اللغوية، وما لم ترقَ قضية اللغة إلى مستوى الحياة أو الموت التي تتطلّب التضحية وما لم تعلن الأمة العربية تعبئة كاملة، وفيها يتجنّد المجتمع المدني في جمعيات أهلية لحماية اللغة العربية والدفاع عنها. فنحن في معركة اللغة العربية التي تتشعّب مكامنها إلى:

- مكمن المدرسة وما يلحق من مؤسّسات التربية والتعليم.
- مكمن الإنتاج الفكري والإبداع.
- مكمن وسائل الإعلام.

هي مكامن ثلاثة سيتحدّد فيها، وفي تقاطعها مصير اللغة العربية كأداة تداول وكخطاب منتج، وعندما تتضافر هذه المكامن يعود للمجتمع وئامه، ويتصالح مع نفسه. والمصالحة مع النفس هي أن يؤدّي المواطن ما عليه من واجبات تجاه لغته التي هي هويّته وركنه الأساس.

وإنّ ما يُثار عن تقاعس دور الإعلام في القضية اللغوية، مفرط فيه لدرجة المبالغة فالمسألة نظام تشعّبت أطرافه، وكثرت عُقَدُه، فما يسجّل على لغة الصِّحافة من نقائص سببها أطراف كوّنت هذه الصِّحافة ولم تعمل على ترقية لغتها، ومن خلال هذا يتبيّن لنا خطأ الطرح، ومزايدة القول (أنقذوا اللغة العربية من الصحافيين) لأنّ الصِّحافة في عمومها عملت على ترقيتها في كثير من مواقعها، بل أمدّتها بقاموس كبير من الألفاظ الحضارية، وعبّرت بأساليب راقية عن مستجدات العصر وطعّمتها بأنماط حديثة بعثت فيها الحياة من جديد، ولنكن صادقين بأنّ عربية اليوم ليست عربية الستينيات، فهي أكثر رقياً وسلاسة وسلامة، ويعود الفضل في ذلك لشبكة من الأجهزة العاملة على ترقية اللغة العربية، ولغة الصِّحافة أحد الأطراف الفاعلة في هذه الترقية. وقد عبّر عن ذلك أصدق التعبير الشاعر والصحافي الجزائري أبو اليقظان:

إنّ الصحافةَ للشعوب حياةُ   والشعبُ من غير اللسان مواتُ
فهي اللسانُ المفصّحُ الذي   ببيانه تُتدارك الغاياتُ

وأختم هذا الموضوع بطرح إشكاليات جديدة ذات العلاقة بالموضوع، وتكمن في الإجابة عن هذه الأسئلة:

1. ممّن ننقذ اللغة العربية في وقتنا المعاصر؟
2. من الجاني على هذه اللغة في هذا الوقت؟
3. هل يموت سيبويه وتحيا اللغة العربية؟

الهوامش

1. عبد اللطيف أحمد الشويرف : "الضعف العام في اللغة العربية (مظاهره–آثاره–علاجه) حولية مجمع طرابلس. ليبيا : 2003، المجلد الأول، العدد 1، ص 37–65.

2. رئاسة الجمهورية السورية، الموسوعة العربية، ط1. سورية: 2005، المجلد الثاني عشر، ص 59.

3 . جرى أن نسمع (لغة الصّحافة) بفتح الصاد، والصواب كما جاء في معجم الوسيط أن تكون الصاد مكسورة، لأنّ الصِّحافة حرفة تطلق على ممتهن جامع للأخبار ينشرها في صحيفة أو مجلة، فهي كلمة محدثة. الصَّحّاف: من يصنع الصِّحاف، ومن يشتغل ببيعها/ الصِّحَفي: من يأخذ العلم من الصحيفة لا عن معلم/ الصحيفة: ما يكتب فيه من ورق ونحوه، ويطلق على المكتوب فيه. ومن هنا فتصاغ على وزن (فِعالة) مثل: نِجارة/ حِلاقة/ حِدادة... كما نقول: الكِتابة/ العِمادة... والنسبة إليها نقول: الصِّحافي. وهذا الوزن قياسي. كما تأتي كلمة الصِّحافة بمعنى المنشورات التي تتمّ طباعتها وتداولها، وتأتي بمعنى أشمل فيراد منها الوظيفة التي تؤديها في المجتمع. ويظهر أن الخطأ جاء بفعل التوهّم عند بعض الظانين بأنّه مثل: العَمالة الأجنبية/ البَسالة الخارقة... وهي ليست من أفعال المِهَن.

– يمكن التذكير ببعض الكتابات التي عالجت هذه الإشكالية، مثل:

* إصلاح ما تغلط فيه العامة/ ما تلحن فيه العامة.

* ظهور كتب كثيرة منها كتاب: درة الغوّاص في أوهام الخواص، للحريري 516 هـ. وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي 501 هـ / تقويم اللسان لابن الجوزي 597 هـ.

* عبد العزيز مطر: أحاديث إذاعية في الأخطاء الشائعة/ يوسف الصيداوي وبرنامجه اللغوي في إذاعة دمشق بعنوان: اللغة والناس/ تثقيف اللسان العربي في إذاعة القاهرة/ ثقافتنا اللغوية: إبراهيم بن مراد في إذاعة تونس/ خاطِب الناس بما يفهمون في إذاعة قطر.

* إبراهيم اليازجي في كتابه: لغة الجرائد. وفي أصله مقالات تصويبية صدرت في مجلة الضياء وكان فيها للأخطاء اللغوية التي تظهر في الصحف نصيب وافر/ كتب أسعد داغر في إصلاح لغة الدواوين في مجلة المضمار/ كتاب محمد سليم الجندي وعنوانه: إصلاح الفاسد من لغة الجرائد. إلى جانب: أخطاؤنا في الصحف والدواوين/ إصلاح الفاسد

من لغة الجرائد/ مغالط الكتّاب ومناهج الصواب/ عثرات اللسان/ لغة الجرائد/ الأخطاء اللغوية.

* نحو وعي لغوي/ معجم الأخطاء الشائعة/ الكتابة الصحيحة/ تذكرة الكتاب/ قل ولا تقل.

... وكلّ هذه المؤلّفات أثارت حركة نشطة في ميدان التأليف اللغوي، أضف إلى ذلك أنّ هذه الحركة يلمس في بعضها الدعوة إلى التقريب بين المحكية والفصحى، فهناك من انتصر لمثل هذا الطرح، وهناك من يرفض مثل الذي يَرُدّ على إبراهيم اليازجي، ويعنون كتابه: دفع الأوهام؛ وهذا الكتاب يحمل أربعين موضعاً يردّ فيه على أوهام اليازجي باعتماد الدليل اللغوي.

4. يمكن التذكير ببعض الكتابات التي عالجت هذه الإشكالية، مثل:

* إصلاح ما تغلط فيه العامة/ ما تلحن فيه العامة.

* ظهور كتب كثيرة منها كتاب: درة الغوّاص في أوهام الخواص، للحريري 516 هـ. وتثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي 501 هـ/ تقويم اللسان لابن الجوزي 597 هـ.

* عبد العزيز مطر: أحاديث إذاعية في الأخطاء الشائعة/ يوسف الصيداوي وبرنامجه اللغوي في إذاعة دمشق بعنوان: اللغة والناس/ تثقيف اللسان العربي في إذاعة القاهرة/ ثقافتنا اللغوية: إبراهيم بن مراد في إذاعة تونس/ خاطِب الناس بما يفهمون في إذاعة قطر.

* إبراهيم اليازجي في كتابه: لغة الجرائد. وفي أصله مقالات تصويبية صدرت في مجلة الضياء وكان فيها للأخطاء اللغوية التي تظهر في الصحف نصيب وافر/ كتب أسعد داغر في إصلاح لغة الدواوين في مجلة المضمار/ كتاب محمد سليم الجندي وعنوانه: إصلاح الفاسد من لغة الجرائد. إلى جانب: أخطاؤنا في الصحف والدواوين/ إصلاح الفاسد من لغة الجرائد/ مغالط الكتّاب ومناهج الصواب/ عثرات اللسان/ لغة الجرائد/ الأخطاء اللغوية.

* نحو وعي لغوي/ معجم الأخطاء الشائعة/ الكتابة الصحيحة/ تذكرة الكتاب/ قل ولا تقل.

وكلّ هذه المؤلّفات أثارت حركة نشطة في ميدان التأليف اللغوي، أضف إلى ذلك أنّ هذه الحركة يلمس في بعضها الدعوة إلى التقريب بين المحكية والفصحى، فهناك من انتصر

لمثل هذا الطرح، وهناك من يرفض مثل الذي يَرُدّ على إبراهيم اليازجي، ويعنون كتابه: دفع الأوهام؛ وهذا الكتاب يحمل أربعين موضعاً يردّ فيه على أوهام اليازجي باعتماد الدليل اللغوي.

5. عد إلى "دفاعاً عن لغة الإعلام" محاضرة ألقيت في اليوم الدراسي حول: دور وسائل الإعلام في نشر وترقية اللغة العربية في : 15 يوليو 2002. نشرت المقالة في: مجلة المجلس الأعلى للغة العربية: الجزائر: 2004، عدد خاص: دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها، ص 107-126.

6. وفاء كامل فايد، المجامع العربية وقضايا اللغة. القاهرة: 2004، عالم الكتب، ص 349348.

7. يوسف الخليفة أبو بكر و أحمد محمد أحمد أبكر "تحليل الأخطاء اللغوية في بعض النشرات الإخبارية في الإذاعة السودانية" مجلة مجمع اللغة العربية السوداني. الخرطوم: 2000 العدد 4، ص 117.

8. محمد العدناني، معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، ط 1. لبنان: مكتبة لبنان، المقدمة.

9. عبد النّبي أصطيف "مسخ الكلمات: العبودية للآخر في لغة الإعلام العربي" محاضرة قدمت بمجمع اللغة العربية بدمشق: دمشق: 14-17 تشرين الثاني 2005، المؤتمر الرابع لمجمع اللغة العربية.

10. أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية أهميتها-وسائل تنميتها- مجلة عالم المعرفة. الكويت: 1996، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، رقم 212، ص 18.

11. أنجزت الدراسة الجامعية الموسومة : المجتمع الجزائري ووسائل الإعلام المعرّبة (مذكرة التخرّج) في قسم علم النفس بجامعة مولود معمري، بتيزي وزو، سنة 2004.

12. الفصل الرابع، العدد 48. 2000 Langue : une guerre à mort ; revue Panoramique. Paris

13. "في قضايا الاستعمال اللغوي في البرامج الإذاعية والتلفزيونية العربية" محاضرة ألقاها

في مجمع اللغة العربية بدمشق : 2005، المؤتمر الرابع للمجمع اللغوي، 14–17 تشرين الثاني 2005.

14. إبراهيم السامرائي "مع المجلات العربية ومسألة التصحيح اللغوي" مجلة البحوث والدراسات العربية. بغداد: 1988، العدد 14، ص 10/ 23/ 24.

15. لا أخفي بأنّ الصحافيين المذيعين بالتلفزة أشدّ حرصاً على اللغة، ولكن في بعض الأحيان يُفجع المرء مما يسمع من عربية لا أساس لها؛ تأتي من المراسلين بالمحطات الجهوية، ومن بعض المراسلين المرافقين لتغطية زيارة وزير أو حدث من الأحداث، أو من المراسلين بالخارج. ولأنّ أمر الأخطاء يكاد يستفحل، ويعني هذا أن الصحافة ستفقد مسوّغات وجودها، بل إنّ ذلك مدعاة لتنمية أوجه التناقض اللغوي، وتفتح الباب للتحريض والاتّجاهات اللغوية المتنافرة.

16. مجمع اللغة العربية، كتاب الألفاظ والأساليب، إعداد وتعليق: محمد شوقي أمين + مصطفى حجازي. القاهرة: 1977، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الجزء الأول 16–32.

17. عبد الكريم اليافي، مباهج اللغة والأدب. سورية: 2003، منشورات وزارة الثقافة، ص 76.

18. يوسف الصيداوي، اللغة والناس. لبنان: 1996، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ص 259–260.

19. مجمع اللغة العربية، كتاب الألفاظ والأساليب، (القرارات التي صدرت في الدورات من الثانية والأربعين إلى التاسعة والأربعين) جمع وتعليق: محمد شوقي أمين. القاهرة : 1985، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص 141.

20. ناصر الدين الأسد، تحقيقات لغوية، ط 1. الأردن: 2003، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ص 109.

21. مجمع اللغة العربية، كتاب الألفاظ والأساليب (من الدورة الخامسة والثلاثين إلى الدورة الحادية والأربعين) ص 84.

22. محمد العدناني، معجم الأخطاء اللغوية المعاصرة، ص 235.

23. نبيل عبد الفتّاح وآخرون، المنظمات الأهلية العربية والمحكومية قضايا وإشكاليات وحالات. القاهرة : 2004، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

24. محمود إبراقن، المبرق قاموس موسوعي للإعلام والاتّصال. الجزائر: 2004، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ص 368.

25. محمد سويسي "نظرات لغوية في معاني بعض الصوتيات: من وحي العولمة" مجلة مجمع اللغة العربية. دمشق: 2004، المجلد التاسع والسبعون، الجزء الثاني، ص 398395.

26. فاروق شوشة، لغتنا الجميلة، ط 3. القاهرة : 1982، المطبعة الفنية، ص 85.

27. الجامعة الأمريكية "الفكر العربي في مائة سنة" بيروت: 1960، بحوث مؤتمر الدراسات العربية، ص 192.

28. ع. فاروق شوشة، لغتنا الجميلة، ص 112.

29. محمد الكتاني "أثر الصحافة ووسائل الإعلام في تطوّر اللغة العربية: سلبيات الوضع وإيجابياته" المغرب: 1993 مطبوعات الأكاديمية الملكية المغربية، عدد (قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب) ص 195.

30. محمد داود التنير، ألفاظ عامية فصيحة، ط 1. بيروت: 1987، دار الشروق، ص 11.

31. هادي نهر "آراء حول إعادة وصف اللغة العربية ألسنياً". تونس: الجامعة التونسية سلسلة الدراسات اللسانية مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، ص 126.

32. علماً أنّ الشاعر ذا الرمة عاش في العصر الأموي، وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان وقال عنه أبو عمرو بن العلاء: إنّ امرىء القيس أول الشعراء، وذا الرمة آخرهم.

33. "عدّة المصحح اللغوي" مجلة التعريب. سورية: 2004، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، العدد 27، ص 41-58.

آثار أصولية في خصائص ابن جني

د. محمد الحباس
(جامعة الجزائر)

تعتبر العلوم الإسلامية كلا واحدا لا يمكن فصل بعضه عن بعض، وذلك لأنها نشأت في زمن واحد، وفي مكان واحد، ولغاية واحدة هي حفظ وفهم الكتاب والسنة، ومن بين هذه العلوم –التي كانت عندهم تسمى علوم الوسائل– النحو العربي، فقد نشأ هذا العلم في أحضان الدراسات الإسلامية فعد جزء منها، لدرجة أن الأصوليين اشترطوه ضمن ما اشترطوا في الفقيه المجتهد، كما اشترطه علماء القراءات بكيفية من الكيفيات عندما جعلوا من شروط القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لوجه من أوجه العربية، ولا يتأتى ذلك للقارئ إلا أن يكون ملما بطرف من علوم العربية، بل إننا وجدنا من أئمة القراء أئمة في اللغة والنحو مثل أبي عمرو البصري والكسائي الكوفي.

وإذا كان هذا هو شأن العلوم الإسلامية بالنسبة إلى العلوم اللغوية فإننا لا نستغرب أن نجد تأثيرا وتأثرا بينهما، كما حدث بين النحو العربي وأصوله وبين علم أصول الفقه. لقد حدث تأثر النحو العربي بالأصول في زمن مبكر جدا، أي منذ النشأة الأولى لعلم النحو، وقد تجلى هذا عند عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي كان أشد تجريدا للقياس من عيسى بن عمر

وأبي عمرو بن العلاء[1]، متبعا نهج الأصوليين والفقهاء. وهذا لا يعني أن النحو كان متأثرا فقط دون أن يكون مؤثرا في هذه العلوم ، بل كان بينها أخذ وعطاء ، ولكن تأثير الفقه وأصوله في النحو كان أكثر جلاء على اعتبار أن هذه العلوم الشرعية كانت هي الأسبق، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كانت أهميتها في الدرجة الأولى قياسا بالعلوم اللغوية.

ومن النحاة الأصوليين الأوائل المشهود لهم بالتفوق والأصالة والإبداع الإمام النحوي ابن جني صاحب كتاب الخصائص الذي يعتبر فريدا في بابه منذ أن ألفه صاحبه إلى يومنا هذا، فقد ضمنه صاحبه علوما وأبوابا أصولية في النحو العربي لم يسبق إلى ترتيبها أحد قبله، وقد كان مبدعا في هذا الشأن، حيث قال عن سبب تأليفه لهذا الكتاب ما نصه : "وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه. فأما كتاب أصول أبي بكر[2] فلم يلم فيه بما نحن عليه، إلا حرفا أو حرفين في أوله، وقد تُعُلق عليه به، وسنقول في معناه.

على أن أبا الحسن[3] قد كان صنف في شيء من المقاييس كتيّبا، إذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أنا نبنا عنه فيه، وكفيناه كلفة التعب به، وكافأنه على لطيف ما أولناه من علومه المسوقة إلينا، المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا، حتى دعا ذلك أقواما نزُرَت معرفة حقائق هذا العلم حظوظهم، وتأخرت عن إدراكه أقدامهم، إلى الطعن عليه، والقدح في احتجاجاته وعلله، وسترى ذلك مشروحا في الفصول بإذن الله"[4].

فابن جني –كما ترى– يصرح بنفسه على أنه كان السباق لوضع علم أصول النحو، وقد صدق، إذ يعتبر في هذا كالإمام الشافعي في وضعه لعلم أصول الفقه، وهذا لا يعني أنهما لم يعتمدا على من سبقهما، ولكنهما كانا أول من ألف مؤلفا مستقلا في هذين العلمين، فاعتبرا واضعين لهما. ويشير ابن جني في نصه هذا على أنه أراد أن يقتفي آثار علماء الفقه والكلام في وضع أصوله، ولذا أردنا في هذه المقالة أن ننبه على الآثار الأصولية في كتاب الخصائص، وما أكثرها! ولكننا سنقتصر على الآثار الكبرى التي تعتبر ركائز لهذا العلم.

إن المطلع على كتاب الخصائص ليحس من أول وهلة أن صاحبه تشبع بالعلوم الإسلامية، خاصة منها أصول الفقه وأصول الكلام، يظهر ذلك جليا من خلال النص الذي ذكرناه آنفا، وكذا من خلال أبواب الكتاب، مثل باب علل العربية أكلامية هي أم فقهية[5]، وباب تخصيص العلل[6]، وباب الاستحسان[7]، وباب إجماع أهل العربية متى يكون حجة[8]، وباب تعارض السماع والقياس[9]، الذي يشبه تعارض النص والاجتهاد عند الفقهاء، وباب بقاء الحكم مع زوال العلة[10]، وباب في أن العلة إذا لم تتعد لم تصح[11]، وباب في دور الاعتلال[12]، وباب في تركب المذاهب[13]، وغيرها كثير. ولا يفوتنا هنا أن نؤكد ما ذكرناه آنفا من أن التأثر والتأثير كان متبادلا ولم يكن من جانب واحد، إلا أن تأثر النحاة بالفقهاء والأصوليين كان أكثر.

إن عملية التأثر هذه تتجلى خاصة في أصلين من أصول النحو والفقه، هما السماع والقياس، في مقابل النص والاجتهاد عند الفقهاء والأصوليين.

وقد أفاض ابن جني في هذين الأصلين في كتابه الخصائص، كما رأينا من الأبواب التي سردناها قبل قليل. ومن هذه الأبواب نذكر:

باب ذكر علل العربية أكلامية هي أم فقهية[14]؟

يجيب ابن جني في هذا الباب بأن علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء، ويذكر السبب بأن علل المتكلمين تعتمد على العقل، بينما علل الفقهاء تعتمد على النقل، الذي لا يسعنا إلا أن نسلم به، لأنه من الشارع الحكيم الذي لا يسأل عما يفعل، وأغلب علل الفقهاء من هذا النوع، مثل مناسك الحج والعمرة وأعمال الطهور والصلاة والصيام، وغيرها من تكاليف الشرع التي تغيب فيها الحكمة عن أذهان الناس إلا ما ذكره الشارع الحكيم منها، إذ ليس مطلوبا منا معرفة علل الأحكام الشرعية، ولهذا فقد جعل ابن جني علل النحو أقرب إلى علل المتكلمين، لأنهم يحاولون دائما أن يجدوا علل الأحكام النحوية، لأن المتكلمين كذلك يفعلون، ثم يفيض في ذكر أمثلة تبين اهتمام النحويين بإيجاد العلل النحوية، مثل السبب في رفع الفاعل ونصب المفعول، والسبب في انقلاب واو نحو ميزان وميعاد ياء لثقل الواو الساكنة بعد الكسرة، وكذا العلة في العكس أي قلب الياء واوا في نحو : موسر وموقن لسكونها وانضمام ما قبلها، "وهذا –كما تراه– أمر يدعو الحس إليه، ويحدو طلب الاستخفاف عليه. وإذا كانت الحال المأخوذ بها، المصير بالقياس إليها حسية طبيعية، فناهيك بها ولا معدل بك عنها"[15].

ثم يجيب ابن جني على إشكالية وجود بعض التعليلات لبعض الأحكام، كحد الزنى لغير المحصن وتشديده للمحصن، وذلك حفظا للأنساب، وكذلك إيجاب الحج على المستطيع لما في ذلك من تكليف المشقة ليستحق عليها المثوبة، وغيرها من الأحكام التي تجري مجرى علل النحو، يجيب ابن جني عن هذا التساؤل انطلاقا من فكره الاعتزالي الذي يرى أن العقل يقبح ويحسن قبل الشرع، حيث يقول : "ما كانت هذه حاله من علل الفقه فأمر لم يستفد من طريق الفقه، ولا يخص حديث الفرض والشرع، بل هو قائم في النفوس قبل ورود الشريعة به، ألا ترى أن الجاهلية الجهلاء كانت تحصن فروج مفارشها، وإذا شك الرجل منهم في بعض ولده لم يلحقه به، خلقا قادت إليه الأنفة والطبيعة ، ولم يقتضه نص ولا شريعة"[16].

ثم يجيب على إشكالية أخرى وهي أن الكثير من الظواهر اللغوية لا نجد لها تفسيرا ولا تعليلا، فهي من هذه الحيثية كالعلل الفقهية، ومن ذلك إهمال ما أهمل في اللغة وليس في القياس ما يدعو إلى تركه، وهو باب واسع لا يمكن الإحاطة بأمثلته، أما الجواب عن هذا فيرجعه ابن جني إلى القاعدة السابقة في قلب الواو ياء أو العكس وهي طلب الخفة، والدليل على ذلك أن الرباعي والخماسي أكثره مهمل لهذه العلة، وقد أكثروا من استعمال الثلاثي لاعتداله، فهو وسط بين الأحادي والثنائي من جهة وبين الرباعي والخماسي من جهة ثانية ، هذا جوابه الأول عن هذا التساؤل، أما الجواب الثاني فهو أنه لا يدعي: "أن علل أهل العربية في سمت العلل الكلامية البتة، بل ندعي أنها أقرب إليها من العلل الفقهية"[17].

فأنت ترى معي كيف أن ابن جني كان يخوض في العلل النحوية وطرفه يلحظ العلاقة بين هذه العلل والعلل الكلامية والفقهية، حتى دعاه هذا اللحظ إلى عقد هذه المقارنة الشيقة بين العلل الثلاث، وملاحظة أن العلل النحوية أقرب إلى الكلامية منها إلى العلل الفقهية. وما كان لابن جني أن يخوض في هذا الغمار لولا أنه كان متشبعا بالثقافة الفقهية والأصولية وكذا الكلامية ، وقد كان معتزليا شهد على نفسه بذلك في الكثير من أبواب كتابه الخصائص[18] وغيره من كتبه الأخرى.

ومن هذا يمكن القول بأن العلل النحوية تقف موقفا وسطا بين العلل الفقهية والعلل الكلامية، فهي أقوى –في نظره– من العلل الفقهية لكنها دون العلل الكلامية، ويرى سعيد الأفغاني أن النحو العربي كان محاولة لتقليد الفقهاء، وهي محاولة ناقصة ومتعثرة، وكانت عللهم مستنبطة من علل الفقهاء من جهة، ومن علل المتكلمين من جهة أخرى[19]، لكن هذا الإطلاق يحتاج إلى تقييد، فنحن لا ننكر أن النحاة قد تأثروا كثيرا –في عللهم خاصة– بالفقهاء والمتكلمين، لكننا لا ننفي عنهم أي إبداع، بل إن التأثير كان أيضا موجودا كما كان التأثر، لكنهم من حيث الأسبقية قد سبقهم الفقهاء والمتكلمون لهذا.

2. باب في تخصيص العلل[20]:

يقول محمد علي النجار محقق كتاب الخصائص : "هذا الباب مستعار في العربية من أصول الفقه، ومحل تخصيص العلل أن يتخلف الحكم مع وجود العلة. ومن أمثلة هذا في الفقه أن يعلل الربا بالطعم، فيورد على هذا

العرايا، وهي بيع الرطب بالتمر، والعنب بالزبيب، ففيها الطعم، والتعاوض فيها –مع جهل التماثل– ليس بحرام في مقدار معين مبين في الفروع. فقد وجدت العلة وتخلف الحكم. ويختلف الفقهاء في هذا : فمنهم من يراه قدحا في العلة، ويسميه نقضا، ومنهم من لا يراه نقضا، ويعود به على العلة بالتخصيص"[21].

فتخصيص العلل إذن أخذه ابن جني مباشرة من أصول الفقه وطبقه على النحو العربي. وحدّه –كما رأينا– تخلف الحكم مع وجود العلة، لوجود علة أخرى أقوى من العلة الأولى ، لأن علل النحويين –وإن كانت أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين– فإنها ليست مطابقة لها، لأنها إنما تبنى على مبدإ الخفة والفرق، ولو تكلف متكلف نقضها لكان ذلك ممكنا، وإن كان على غير قياس. وذلك نحو نصب الفاعل ورفع المفعول، والجر بحروف الجزم، والرفع بحروف الجر وتصحيح الواو في ميزان وميعاد وقال وغيرها .لكن علل المتكلمين ليس شيء منها يمكن نقضه، إذ لا يتصور اجتماع البياض والسواد في المحل الواحد في الوقت الواحد، ولا كون الجسم ساكنا متحركا في وقت واحد.

ويمكن تقسيم علل النحويين في هذا الشأن إلى قسمين :

أ. قسم ملحق بعلل المتكلمين، لا يمكن نقضه بحال، مثل قلب الألف ياء لانكسار ما قبلها، وقلبها واوا لانضمام ما قبلها، نحو : ضورب وقراطيس.

ب. قسم يمكن نقضه، وهي العلل التي يدخلها التخصيص، نحو تصحيح الواو في نحو : حيوة، وتخصيص الياء والواو في نحو : رميا وغزوا، وهناك

سبب في مخالفة الحكم للعلة في هذه المثل، ففي حيوة إنما صحت الواو لأننا لو قلبناها ألفا لوجب تحريك الباء قبلها فتصبح حياة، فيلتبس الأمر بين حياة وحيوة، وصحت الياء والواو في رميا وغزوا لأننا إذا قلبناه ألفا يجتمع عندنا ألفان، فتحذف إحداهما فتصبح الكلمتان : رمى وغزا ، فيختلط الفعل المسند إلى المفرد مع المسند إلى المثنى.

ويرى ابن جني أنه للخروج من إشكال تخصيص العلة يجب أن نزيد في الوصف حتى نوفي العلة حقها، فالعلة في قلب الياء والواو ألفا هي تحركهما وانفتاح ما قبلهما، ولكن –كما رأينا– هناك أمثلة خرجت عن هذه القاعدة لعلل أخرى ، ولذا وجب الاحتياط في وصف هذه العلة فنقول مثلا : "إنهما متى تحركتا حركة لازمة وانفتح ما قبلهما وعري الموضع من اللبس أو أن يكون في معنى ما لا بد من صحة الياء والواو فيه أو أن يحرج على الصحة منبهة على أصل بابه، فإنهما يقلبان ألفا"[22].

هذا ما رآه ابن جني، أما الفقهاء فقد اعتبروا هذه الزيادة في الوصف أمرا قبيحا، والمقصود بالزيادة زيادة المستثنيات من الأحكام المتعلقة بتلك العلة، كأن يقول : إن علة القتل العمد العدوان، ما عدا قتل الوالد لولده، عند من يقول إن الأبوة مانعة من القصاص، وقد نص الغزالي على أن هذه الزيادة أمر قبيح[23].

وقد وقع خلاف كبير بين الفقهاء في قضية تخصيص العلل، حيث اعتبره بعضهم نقضا للعلة، وأما الذين جوزوا التخصيص فلم يعتبروا ذلك نقضا، كتخلف العموم فإنه يخصص العموم بما وراءه[24].

وذهب قوم إلى أن العلة إذا كانت مظنونة انتقضت، وإذا كانت منصوصا عليها تخصصت ولم تنتقض.

وهناك من فصل فذكر أنه إذا ثبت أن الحكم المتأخر مستثنى لا يعتبر ذلك قدحا في العلة، سواء كانت مقطوعة أم مظنونة.

وقد رد ابن جني على من زعم أن التخصيص نقض للعلة، لأنه لا فرق عندهم بين خوِف وهيِب وبين حوِل وصيِد، حيث أن الياء والواو في كل تحركتا وانفتح ما قبلهما ، فكان يجب أن يقع الإعلال في حوِل وصيِد تماما كما وقع في خاف وهاب ، ثم أجاب ابن جني عن هذا الإشكال بقوله : "فإن العرب –فيما أخذناه عنها، وعرفناه من تصرف مذاهبها– عنايتها بمعانيها أقوى من عنايتها بألفاظها،... أولا تعلم عاجلا إلى أن تصير إلى ذلك الباب آجلا، أن سبب إصلاحها ألفاظها، وطردها إياها على المثل والأحذية التي قننتها آجلا، وقصرتها عليها، إنما لتحصين المعنى وتشريفه ، والإبانة عنه وتصويره ..."[25].

فالخلاف الذي حدث بين الفقهاء في مسألة تخصيص العلل حدث أيضا بين النحاة، وقد أجاب ابن جني على هذا، وكان له الباع الطويل في الحجاج والدفاع عن هذه الظاهرة الفقهية النحوية في آن واحد .

3. باب في أن العلة إذا لم تتعد لم تصح :

جواب ابن جني عن السؤال القائل : هل العلة القاصرة صحيحة؟ جوابه جاء من عنوان الباب، ثم بحث له عن الأدلة فقال : "من ذلك قول من اعتل لبناء (كم) و(من) و(ما) و(إذ) ونحو ذلك بأن هذه الأسماء لما كانت على

حرفين شابهت في ذلك ما جاء من الحروف على حرفين، نحو : (هل) و(بل) و(قد)، قال : فلما شابهت الحروف من هذا الموضع، وجب بناؤها، كما أن الحروف مبنية. وهذه علة غير متعدية، وذلك أنه كان يجب على هذا أن يبنى ما كان من الأسماء أيضا على حرفين نحو : (يد) و(أب) و(دم) وفم) و(حر) و(هن)، ونحو ذلك"[26].

ولا شك أن النحاة في هذه القضية متفقون على أن العلة القاصرة لا تصلح للقياس، إذ لا يعقل أن يلحق الفرع بالأصل وليس بينهما الجامع الذي هو الركن الرابع من أركان القياس. إلا أن اختلافهم –كالأصوليين– كان حول اعتبار العلة القاصرة في الأصل علة صحيحة أو غير صحيحة. فقال قوم إنها باطلة، لأن العلة إنما تراد للتعدية، وهذه غير متعدية، فلا فائدة فيها. فالحكم ثابت في هذه الحال بالنص لا بالعلة[27]. وقد رأينا أن ابن جني ممن يقول بإبطال العلة القاصرة.

أما عند الفقهاء والأصوليين فقد اتفقوا أيضا على عدم جواز العلة القياس بالعلة القاصرة، ولكنهم اختلفوا في اعتبارها ، فذهب قوم إلى عدم اعتبارها معللين رأيهم بثلاثة أشياء :

1. أن علل الشرع أمارات ، والعلة القاصرة ليست أمارة .

2. أن الأصل عدم العمل بالظن ، وإنما جوز لضرورة العمل بالأدلة الظنية ، والعلة القاصرة لا عمل لها .

3. أن العلة القاصرة لا فائدة فيها ما دامت لا تصلح للقياس .

لكن المصححين –ومنهم المالكية والشافعية– قد ذكروا فوائد لها منها :

1. أنها تقوي الحكم بإظهار حكمته.
2. أنها يعلم بسببها امتناع القياس لكونها قاصرة على محلها[28].

4. باب في حكم المعلول بعلتين :

اختلف الفقهاء والأصوليون في هذا ، فذهب فريق إلى المنع مطلقا، كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين الجويني، وذهب آخرون إلى التجويز مطلقا، ومنهم من فصل بين المنصوصة فجوزها، ومنع المستنبطة، كالإمام الغزالي[29]، واختار الآمدي المنع مطلقا[30].

والمقصود بالمعلول بعلتين أن تشترك العلتان في الحكم في وقت واحد، أما إذا اختلفتا في الوقت فلا خلاف في الجواز. إذ يمكن أن يكون الحكم ناتجا عن علل كثيرة، كنواقض الوضوء مثلا، فكل واحد منها ناقض، أما إذا اجتمع أكثر من ناقض في وقت واحد فهذا هو محل النزاع، هل يكون الحكم معلا بإحداها أم يكون معلا بها جميعا[31]. وقد تكون العلة أقوى من الأخرى فتقدم على أختها، وذلك كاجتماع الرضاع مع النسب في تحريم المرأة، فيقدم النسب على الرضاع.

ومن أدلة الرافضين لتعليل الحكم بعلتين قولهم بأن هذه العلل الفقهية مشبهة بالعلل العقلية، والعلل العقلية لا يثبت الحكم معها إلا بعلة واحدة[32].

هذه هي آراء الفقهاء والأصوليين في هذه المسألة، أما النحاة فتناولوها كل حسب اتجاهه، فذهب ابن الأنباري مذهب الفقهاء والأصوليين، حيث ذكر الاختلاف فيها، وسبب هذا الاختلاف هو كون العلل النحوية من جنس

العلل العقلية[33]. وذهب فريق إلى جواز ذلك وضرب لنا مثلا بكون الفاعل يتنزل منزلة الجزء من الفعل بعلل أوصلها إلى عشر.

أما السيوطي فلم يزد على أن ذكر رأي ابن الأنباري وابن جني[34]، وأما ابن جني فقد تناول القضية وقسمها إلى قسمين :

قسم لا نظير له، وهو القسم الذي تجتمع فيه علتان مستغن كل منهما عن الأخرى في التأثير، وذلك مثل قلب الواو ياء وإدغامها في ياء المتلكم، نحو : مسلمِيَّ، فعلة القلب هنا اثنتان، مستغنية إحداهما عن الأخرى، أما الأولى فهي اجتماع الواو والياء، وسبق الأولى منهما بالسكون، والثانية أن ياء المتكلم تكسر ما قبلها البتة إذا كان صحيحا، نحو : هذا غلامي[35].

أما النوع الثاني فهو الذي لا تستقل فيه العلتان في إثبات الحكم، بل يجب اجتماعهما، كالعلل المذكورة في الممنوع من الصرف، حيث أن الواحدة منها لا تقوى على منعه، إلا إذا اجتمعت علتان، كالعلمية والتأنيث، والعلمية والعجمة، والعلمية ووزن الفعل، وغيرها[36].

ومما نلاحظه في كلام النحاة –وخاصة في كلام ابن جني– أنه يقبل التعليل بعلتين في الحكم الواحد، ولا يناقشه مناقشة الأصوليين والفقهاء المعتمدة على الجدل العقلي المحض، كما وجدناه عند الآمدي، وكذلك عند ابن الأنباري من النحاة، إذ لم يقس ابن جني العلل النحوية على العلل العقلية، في عدم اجتماع علتين في المحل الواحد في الوقت الواحد، رغم أنه في باب آخر ذكر أن علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين[37]. وذلك راجع إلى ملاحظته الفرق بين

العلتين الكلامية والنحوية، إذا يقول في نفس الباب : "فأول ذلك أنا لسنا ندعي أن علل أهل العربية في سمت العلل الكلامية البتة، بل ندعي أنها أقرب إليها من العلل الفقهية"[38]. وهذه ميزة امتاز بها النحاة الأولون كابن جني عن المتأخرين كابن الأنباري والسيوطي، فرغم أن ابن جني متأثر بأصول الفقه والكلام –كما صرح بذلك في مقدمة كتابه[39]– فإنه يحفظ دائما للنحو طبيعته التي يختلف فيها في بعض الأحيان عن الفقه والكلام.

5. باب في تعارض السماع والقياس[40] :

تناول هذا الباب كل من النحاة الأصوليين، حيث أن القياس هو المصدر الرابع عند الفقهاء، فإذا تعارض مع ما سبقه من مصادر التشريع الإسلامي، فإن القاعدة العامة تقول بترك القياس والأخذ بالنص، طبعا بعد العجز عن الجمع، لأن الجمع بين الأدلة هو المقدم، انطلاقا من القاعدة القائلة : إعمال الدليل أولى من إهماله.

لكن قاعدة ترجيح النص على القياس ليست مطردة، ذلك لأن نصوص الشريعة ليست على درجة واحدة من حيث القوة والضعف الناتجين عن اختلاف الدلالة والثبوت من حيث القطعية والظنية في كل.

فإذا عرفنا هذا عرفنا أن النصوص ليست كلها في درجة واحدة من حيث القوة، ولهذا إذا عارضها قياس فإنهما يتجاذبان، فأيهما كان الأقوى أخذ به . هذا عند من يقول بإمكانية التعارض والترجيح .

والمجمع عليه عند الأصوليين هو أن النص –إذا كان قطعي الثبوت قطعي الدلالة– فلا يعارض بقياس، وهذا هو المقصود بالقاعدة المذكورة :

لا اجتهاد مع النص، أما النصوص المظنونة فقد وقع فيها خلاف ، وانقسم علماء الأصول حيالها إلى ثلاثة أقسام :

أ. ذهبت جماعة منهم إلى إنكار المعارضة مطلقا، سواء كان النص قطعيا أم ظنيا، وإلى هذا ذهب أحمد والشافعي والمشهور عن أبي حنيفة.

ب. وذهبت جماعة أخرى إلى أن القياس يعارض الظني ولا يعارض القطعي ، فإذا عارض النص القطعي فهو قياس فاسد.

ج. وذهبت جماعة ثالثة إلى استحالة المعارضة، وأمارة القياس الفاسد هي معارضته للنصوص. والفرق بين الأول والثالث نظري فقط، أما في العمل فهما سواء، فالرأي الثالث لا يعتبر القياس المعارض للنص قياس مطلقا، بل هو ظاهر الفساد بهذه المعارضة. أما الرأي الأول فيرى أن القياس صحيح إلا أنه مرجوح بالنص[41].

أما ابن جني والنحاة الآخرون فقد تعرضوا لهذه المسألة حتى أفرد لها ابن جني بابا خاصا كما رأينا، إلا أن أحكامهم في هذا الباب كانت مختلفة إلى حد ما عن أحكام الفقهاء والأصوليين ، وذلك لاختلاف طبيعة العلمين. حيث كانت أحكامهم تختلف تبعا لاختلاف المسموع، وكذا قوة القياس، وقد قسموا هذا التعارض إلى ثلاثة أقسام :

– القسم الأول : معارضة القياس للمطرد في الاستعمال : حكموا في هذا النوع بأن يستعمل المطرد في الاستعمال ، لكن لا يتعدى حكمه إلى غيره، وهذا من باب احترامهم للسماع ، وذلك نحو : استحوذ واستنوق واستصوب ، فإنك تنطق بها كما جاءت إلا أنك لا تتخذها أصلا يقاس

عليه غيره ، فلا تقول في استقام : استقوم قياسا على استحوذ[42]، فأنت ترى أنهم أخذوا بالسماع والقياس معا ، فهم يستعملون ما سمع كما هو ، ثم هم يقيسون في بقية المثل التي لم يرد فيها سماع قياسا يخالف ما ورد به السماع الشاذ عنه.

– القسم الثاني : معارضة القياس للشاذ في الاستعمال : نحو قول بعض العرب القلائل : مقوول في مقول، فإن الحكم في هذه الحال أن تجري القياس في كل وتفضله على السماع، فتعل في كل جريا على القاعدة المطردة في هذا الباب. فتقول : مقول ومبيع ومصون ومدوف. وسبب تقوية القياس على السماع في هذه المثل هو أن هذا السماع شاذ عندهم ، إذ كان عامة العرب يعلون مثل هذه الصيغ، فكان هذا هو القياس، وهو في نفس الوقت استعمال شائع ، فكيف يغلب شاذ في الاستعمال شائعا فيه ومطردا في القياس .

– القسم الثالث : معارضة القياس لسماع مقيس على أصل آخر، وفي هذا النوع يقول ابن جني : "واعلم إذا أداك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه، فإن سمعت من آخر ما أجزته، فأنت فيه مخير، تستعمل أيهما شئت، فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت، كنت على ما أجمعوا عليه البتة، وأعددت ما كان قياسك أداك إليه لشاعر مولد، أو ساجع، أو لضرورة، لأنه على قياس كلامهم، بذلك أوصى أبو الحسن "[43].

فأنت ترى أن ابن جني يقرر أصلا من أصول النحو العربي، وهو أن السماع إذا خالف القياس، وجب الأخذ به، وترك القياس، إلا إذا عضد القياس سماع آخر، فأنت فيه بالخيار، كما كنت مخيرا في اتباعك للحجازيين أو التميميين في (ليس) المنقوض نفيها بإلا لأن كلا القياسين معضد بالسماع.

من كل ما تقدم يتبين لنا أن قاعدة الفقهاء والأصوليين القائلة : لا اجتهاد مع النص، هي نفسها عند النحاة، إذ لا قياس مع السماع، لكن مع التفصيل الذي رأيناه عند الفريقين. فهذه القاعدة تنطبق، –كما رأينا عند الفقهاء– على النص قطعي الثبوت والدلالة، وتنطبق أيضا عند النحاة على السماع المطرد غير المنقوض بسماع آخر، كرفع الفاعل ونصب المفعول والجر بحروف الجر والجزم بحروف الجزم والنصب بحروف النصب، فهذه القواعد جاءت مطردة ولا يمكن بحال أن يعارضها قياس مهما قوي. وكذلك الشأن إذا كثر السماع وقوي القياس المناقض له، وجب اتباع السماع الكثير. "ولذلك قدمت اللغة الحجازية على التميمية، لأن الأولى أكثر استعمالا، ولذا نزل بها القرآن الكريم[44]، وإن كانت التميمية أقوى قياسا، فمتى رابك في الحجازية ريب من تقديم أو تأخير أو نقض نفي[45] فزعت إذ ذاك إلى التميمية[46]. وما عدا هذين الأصلين فالحرب سجال بين السماع والقياس.

6. باب القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجة؟

عرفه الفقهاء بأنه : "اتفاق جملة من أهل الحل والعقد من أمة محمد – صلى الله عليه وسلم– في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع"[47] أما ابن جني فلم يعرفه، وقد يكون ذلك استغناء بتعريف الأصوليين له، والإجماع عنده هو إجماع أهل المصرين البصرة والكوفة. والإجماع عند ابن جني يختلف عنه عند الفقهاء ، فهو عند الفقهاء يأتي في الدرجة الثالثة بعد الكتاب والسنة أي قبل القياس، أما عند ابن جني فالقياس يسبق الإجماع، يقول في هذا : "اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص، فأما إذا لم يعط يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه"[48]. ولا نجد أحدا من النحاة –غير ابن جني– تحدث عن الإجماع في النحو غير السيوطي، فابن الأنباري جعل أدلة النحو ثلاثة : سماعا وقياسا واستصحاب حال.

غير أن السيوطي ذكر في كتاب الاقتراح رتبته قبل القياس ، أي بعد السماع مباشرة[49]، وهذه إشارة منه إلى أنه يعتبره في الدرجة الثانية بعد السماع . ولعل السيوطي إنما فعل ذلك اقتداء بترتيب الأصوليين ، إذ كثيرا ما نجد عنده هذه النزعة إلى تقليد الفقهاء والحذو حذوهم ، ومع ذلك فقد أورد كلام ابن جني ولم يناقشه رغم أنه يخالف رأيه في هذا الترتيب. ثم فرق ابن جني بين الإجماع في الشرع والإجماع في النحو ، فذكر أن الإجماع في الشرع حجة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ

عَلَى ظَلاَلَةٍ"[50]. أما الإجماع في النحو فلا يستند إلى مثل هذا الدليل، ولذا فمخالفته يسيرة متى وجد العالم من نفسه الحجة على المخالفة، "فكل من فرق له عن علة صحيحة وطريق نهجة كان خليل نفسه، وأبا عمرو فكره"[51].

لكن هذا لا يعني أن ابن جني يجيز لكل واحد مهما كان أن يخالف ما أجمع عليه النحاة قديما، بل لا يكون ذلك إلا من العلماء الذين رسخت أقدامهم في هذا العلم وأطالوا النظر فيه، فليس عليهم جناح أن يخالفوا بعض ما أجمع عليه الأولون، وقد فعل ابن جني هذا حيث رأى رأيا خاصا به خالف به إجماع الأقدمين في تخريجهم عبارة : "هذا جحر ضب خربٍ" على أن جر خرب خطأ من العرب، وكان حقها الرفع، أما هو فقد رأى رأيا آخر، يقول : "وأما أنا فعندي أن في القرآن مثل هذا الموضع نيفا على ألف موضع. وذلك على أنه على حذف المضاف لا غير ... وتلخيص هذا أن أصله : هذا جحر ضب خربٍ جحرُه، فيجري (خرب) وصفا على (ضب) وإن كان في الحقيقة للجحر. كما تقول : مررت برجل قائمٍ أبوه"[52].

وقد حصر ابن جني حجية الإجماع –على ضعفه– في النحو دون الصرف والصوتيات، لأنه يتحاكم فيها إلى النفس الحس، لا إلى إجماع أهل العربية، يقول في باب (محل الحركات من الحروف) : "وأما الآخر فأكثر ما في هذا أن يكون حقيقة عند القوم، ولو أرادوه واعتقدوه وذهبوا إليه لما كان دليلا على موضع الخلاف، وذلك أن هذا موضع يتحاكم فيه إلى النفس والحس، ولا يرجع فيه إلى إجماع، ولا إلى سابق سنة، ولا قديم ملة، **ألا ترى**

أن إجماع النحويين في هذا ونحوه لا يكون حجة، لأن كل واحد منهم إنما يردك ويرجع بك إلى التأمل والطبع، لا إلى التبعية والشرع"[53].

ولله در ابن جني كيف يشقق المعاني، ويذهب بك إلى الأغوار البعيدة، فهو يرى في هذا الرأي أن الصرف والصوتيات إنما تجري مجرى العلوم الدقيقة التي لا تعتمد على النقل والإجماع إنما تعتمد على التجربة الحسية التي يمكن لأي واحد أن يلحظها متى توفرت له الوسائل والإمكانات. على خلاف قواعد النحو التي تجري في معظمها على النقل المسموع من الفصحاء، والنقل الصحيح فيه هو الحجة فضلا عن الإجماع.

7. باب في الاستحسان[54]

الاستحسان عند الأصوليين هو : "أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها، لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأول"[55] فالاستحسان بهذا التعريف ليس هو استحسان العقل أو النفس للشيء، وإنما هو ترك القاعدة المشهورة إلى حكم آخر، يجعل الخروج عن القاعدة أقرب إلى الشرع من القاعدة المطردة، فيكون الاعتماد عليه أقوى استدلالا في المسألة من القياس.

ومثال الاستحسان المقبول عند الفقهاء أن القياس يوجب أن يكون الشهود عدولا في كل قضية معروضة للنظر بين يدي القاضي ، ولكن إذا كان القاضي في بلد لا يوجد فيه عدول، فإنه يجب عليه أن يقبل شهادة من يوثق بقوله في الجملة، حتى لا تضيع الأموال والدماء.

هذا عند الفقهاء، أما عند النحاة فلم نجد من تحدث عن الاستحسان سوى ابن جني، حيث يقول فيه : "وجماعه أن علته غير مستحكمة، إلا أن فيه ضربا من الاتساع والتصرف، من ذلك ترك الأخف إلى الأثقل من غير ضرورة ، نحو قولهم : (الفتوى والبقوى والتقوى والشروى) ونحو ذلك ، ألا تراهم قلبوا الياء هنا واوا من غير استحكام علة، غير أنهم أرادوا الفرق بين الاسم والصفة ، وهذه ليست علة معتدة. ألا تعلم كيف يشارك الاسم الصفة في أشياء كثيرة لا يوجبون على أنفسهم الفرق بينهما. من ذلك قولهم في تكسير (حسن): (حسان)، فهذا كجبل وجبال ... ولسنا ندفع أن يكونا قد فصلوا بين الاسم والصفة في أشياء غير هذه، إلا أن جميع ذلك إنما هو استحسان لا عن ضرورة علة ، وليس بجار مجرى رفع الفاعل، ونصب المفعول، ألا ترى أنه لو كان الفرق بينهما واجبا لجاء في جميع الباب، كما أن رفع الفاعل ونصب المفعول منقاد في جميع الباب"[56].

نلاحظ هنا النسبة بين الاستحسان في الفقه والنحو، فكلمات مثل : التقوى والفتوى، كان المتبادر إلى الذهن ألا يجري فيها إعلال، ولكن عارض هذا الأمر الجلي أمر يدعو إلى الإعلال، وهو الفرق بين الاسم والصفة. ولا شك أن ابن جني راعى هذا التشابه بين الموضوعين فسماه استحسانا قياسا على الاستحسان في الفقه.

المصادر والمراجع

1.الآمدي، (علي بن محمد) الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1402 هجرية.

2. ابن الأنباري (أبو البركات) لمع الأدلة في علم أصول النحو والإغراب في جدل الإعراب، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1968.

3. ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ، بدون تاريخ.

4. ابن حزم (محمد)، الإحكام في أصول الأحكام ، تحقيق أحمد عبد العزيز، مكتبة عاطف، 1978.

5. ابن السراج (أبو بكر)، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى، 1985.

6. ابن ماجة (محمد بن يزيد)، السنن، ترقيم عبد الباقي.

7. أبو زهرة (محمد)، أصول الفقه، دار الفكر العربي، 1985.

8. أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأولى، 1976.

9. السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد محمد قاسم، مكتبة السعادة ، الطبعة الأولى، 1976.

10. الشنقيطي (محمد الأمين)، مذكرة أصول الفقه، الدار السلفية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1391 هجرية.

11. الغزالي (أبو حامد)، المستصفى من علم الأصول، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

الهوامش

1 . أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، 20.

2. هو أبو بكر بن السراج، صاحب كتاب الأصول النحو.

3. هو سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، تلميذ سيبويه، وهو الذي أخرج كتابه إلى الوجود عن طريق تلميذيه، أبي عمرو الجرمي وأبي عثمان المازني.

4. الخصائص / 1 / 2 – 3.

5. الخصائص / 1 / 48.

6. نفسه / 1 / 144.

7. نفسه / 1 / 133.

8. نفسه / 1 / 189.

9. نفسه / 1 / 117.

10. نفسه / 3 / 175.

11. نفسه / 1 / 169.

12. نفسه 1 / 183.
13. نفسه / 3 / 71.
14. نفسه / 1 / 48.
15. نفسه/ 1 / 49.
16. نفسه/ 1 / 50 –51.
17. نفسه/ 1 / 51 وما بعدها.
18. مثلما نجده في باب ما يؤمنه علم العربية من العقائد الدينية، حيث يؤول الصفات على طريق المعتزلة، كصفة اليد والساق ، وغيرهما.
19. سعيد الأفغاني، مقدمة الإغراب في جدل الإعراب، لابن الأنباري، 19.
20. الخصائص / 1 / 144.
21. نفسه / 1 / 144، هامش رقم 4.
22. نفسه / 1 / 147.
23. المستصفى / 2 / 336 . 337.
24. الغزالي ، المستصفى / 2 / 336.
25. الخصائص / 1 / 150.
26. نفسه / 1 / 169.
27. السيوطي، الاقتراح / 153.
28. الغزالي، المستصفى / 2 / 345. والمذكرة للشنقيطي، 277.
29. المستصفى، 2 / 342.
30. الإحكام في أصول الأحكام / 3 / 236. والمستصفى / 2 / 342. والوصول إلى الأصول للشيرازي، 269.
31. الشنقيطي، المذكرة، 281.
32. المستصفى / 2 / 341.
33. لمع الأدلة، 117.
34 . الاقتراح، 127.

35. الخصائص / 1 / 174.

36. نفسه / 1 / 177.

37.نفسه / 1 / 48.

38. نفسه/ 1 / 48.

39. نفسه / 1 / 2.

40. نفسه/ 1 / 117.

41. أبو زهرة، أصول الفقه، 237. وابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، مجلد 2 / 1207.

42. الخصائص / 1 / 99.

43. نفسه / 1 / 125-126.

44. إشارة إلى قوله تعالى في سورة يوسف –عليه السلام– الآية 31 : ﴿**وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً**﴾.

45. كقوله تعالى : ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ آل عمران، 144.

46. الخصائص / 1 / 124.

47. الآمدي، الإحكام / 1 196.

48. الخصائص / 1 / 189.

49. ص 88.

50. سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، رقم 3950.

51. الخصائص / 1 / 190.

52. نفسه / 1 / 191 - 192.

53. نفسه / 2 / 326.

54. يقول محمد علي النجار محقق كتاب الخصائص : " الاستحسان من مصطلح أصول الفقه، وهو أحد الأدلة عند الحنفية .

55. مذكرة الشنقيطي، 167. وأصول أبي زهرة، 245. وإحكام الآمدي / 4 / 157.

56 الخصائص / 1 / 133 . 134.

التكامل والانفصام في ضوء التراث اللغوي العربي واللسانيات الحديثة

أ. د. عبد الجليل مرتاض
(جامعة تلمسان)

لا أحد من المطلعين يتجادل مع آخر بأن جماع التراث اللغوي لم يرووا اللغة العربية لذاتها ومن أجل ذاتها، وهو يَيْقَنُ يَقَناً أنهم رَوَوْا ذلك التراث وسيلة وعلماً لتفسير القرآن وتقعيد القواعد وإنشاء صرح لساني تطبيقي، وكان منهجهم في كل ذلك منهج تحرّ والتزام، غير أن ذلك لم يُغْرِهم بالتزمت أو التعصّب في كل حال لِما سما فكراً، واطرد لفظاً، ونحن نعلم ما يزخر به هذا التراث من مستويات ذات درجات متباينة في رفعتها وفصاحتها وأصالة استعمالاتها.

ويجدر بهؤلاء المطلعين التفاتةً ألا يأخذهم سهو في الإشارة إلى أنه يجب أن نفرق "بين هذه القواعد علومًا اصطلاحية وكونها وظائف لسانية ذات غاية بنيوية معينة بكل ما يدخل فيها ويحيط بها من عناصر مختلفة، إذ العربي أي عربي كان يدرك تمام الإدراك البنية العميقة لهذه الأشكال كلما سمعها أو أرسلها بهذا الشكل أو ذاك مثلما ندرك نحن اليوم البنية العميقة لعاميتنا حقيقة ومجازاً وصورة،... والعربي كان أدرك لفصحاه من إدراكنا نحن لعاميتنا،...

ولذلك نلاحظ جليا أن عاميتنا كلما كانت أقرب إلى الفصحى أمها كنا نحن أكثر قدرة وكفاءة فيما نرومه من توصلات لغوية،... وأمَا ما يعرف بالفوارق اللهجية بين القبائل العربية وما خلّفته في مختلف تصرفاتنا اللغوية، فلا يعدّ في تقديرنا إلا أداءات لسانية متعددة تشكل في نهاية أمرها غرضا تواصلياً واحداً.

إن العادات والتقاليد المتوارثة في إطار محيط لغوي سوسيو–اجتماعي وثقافي ذي أصل واحد وما صحب ذلك كلّه من سلوك لساني متماثل قائم على أنماط متناظرة في الأداء، والتخاطب والنسج البنيوي لمن أهم العوامل التي نهضت خير نهوض بدورها في الحفاظ على سيرورة اللغة العربية وقواعدها التاريخية.

ولا يغرّنا أي تباه وتبجّح إذا ما سمحنا لأنفسنا بأن نُلمِح إلى عمق التراث اللغوي وبعده في العربية، فهو سجّل لساني شامل ومتكامل وعريق ظلت العادات اللسانية الشعبية تسيّره وتكيّفه وتصونه إلى أن ورثتنا إياه بفضل مدونتها الشفهية التي كانت تقوم مقام المدونة المكتوبة وتنوب منابها، وفي تقديرنا أنّ ما وجد من قلة أو عدول عن معيارية تمثّلها كثرة لا يمثل إلا عادات وتقاليد لسانية متوارثة بين فئات متكلمة هنا وهناك.

وفي هذا الاطار ينبغي ألا نغترّ كثيرا بقول أبي عمر وبن العلاء: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا"[1]، لأن أبا عمرو الذي كان أوسع العلماء علماً في عصره بكلام العرب ولغتها وغريبها لا يريد إلا الفروق العامة التي لاحظها بين لغتي الشعر الفني والقرآن من جهة، وبين بعض مظاهر لهمة حمير وأقاصي اليمن من جهة أخرى، ولعله قصد

بذلك البقايا اللهجية الحميرية العتيقة مقارنة لها بالعربية التي كانت في عهده، وإلا فكيف تفسّر رواية أبي عمرو ظواهر لغوية من اليمن نفسه؟[2].

ومما لا يساورنا فيه أدنى شك أن الدرس اللغوي لدى العرب نشأ نشوءا متكاملاً، ولم يعرف بوادر التجزؤ والانفصام إلا في فترة تالية على هذه النشأة لا تقل في تقديرنا عن قرن من الزمن، ومن أجل هذا التكامل الكلي المتقدم والانفصام التجزئي المتأخر تطالعنا الروايات القديمة، وعلى تعدّدها واختلافها، بمصطلح "العربية أو "علم العربية" بدل مصطلحات أخرى تدعى "نحوا" أو "صرفا" أو "بلاغة" أو شيئا من ذلك مما عُرِف لاحقاً، ولذلك تواترت الروايات حول أبي الأسود الدؤلي (69 ه) بإطلاق مفاهيم متماثلة[3]:

- "وهو أول من أسس العربية".
- "أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود"

ويظهر أن الرعيل الأول من علماء العربية ولا سيما تلامذة أبي الأسود واجهتهم منذ البداية إشكالات داخلية تتعلق بعناصر لسانية موجودة في بعض الاستعمالات الخطابية المتبنّاة من فئات لغوية اجتماعية لم يكن من السهل القفز فوقها أو قبولها ودمجها، ويظهر مع ذلك أنهم لم يتناولوا كل ما يدخل في كلام العرب العام مجتزئين بما عاد يسمى بعد عقود من الزمن بالأكثر أو الأكثرية، ويبدو أن عيسى بن عمر الثقفي ونظيره أبا عمرو بن العلاء كانا أول من بتّا في هذه المسألة، فالأول رأى أن يضع مؤلّفه على الأكثر، ويسمّي ماعدا ذلك لغات، ولعل لفظي "الجامع" و"المكمّل" المنسوبين بقوة إلى الرجل لا يشيران إلا إلى ذلك، والثاني لما سئل: "كيف تصنع فيما

خالفتك فيه العرب وهو حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات"[4].

وإشارتنا إلى نشأة الدرس اللغوي العربي كلاًّ متكاملاً لا يعني أن القولَ إلا من يغيب عنه الإلمام الواسع بهذا التراث اللساني الصلد، بل مما وقفنا عليه واستنتجناه في أعمال لنا أخرى أن كلمة "النحو" ظلت مغيّبة إلى عقود متأخرة من الزمن، لا يقول هذا القولَ إلا من يغيب عنه الإلمام الواسع بهذا التراث اللساني الصلد، بل مما وقفنا عليه واستنتجناه في أعمال لنا أخرى أن كلمة "النحو" بدأت تنتشر منذ بداية القرن الثاني الهجري على الأقل، من ذلك أن رجلاً قال للحسن البصري: "يا أبو سعيد! فقال له: كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول: يا أبا سعيد!"[5]، مما جعل المصدر نفسه ينقل لنا أن الحسن يقول: "تعلموا الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان"[6]، وفي الفترة نفسها ظهرت تلك المشادات الجدلية بين عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (117 هـ) والشاعر الفرزدق في بعض التراكيب النحوية التي كان من المفروض أن يرفعها فكسرها هروباً من لحن عروضي فوقع في لحن نحوي، الأمر الذي جعل عبد الله يقول للشاعر: "وكذلك قياس النحو في هذا الموضع"[7].

وزعموا أن الفرزدق قال لمجادله: "والله لأهجونّك ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحويين أبداً"[8]، فهجاه ببيته المشهور:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عباد الله مولى مواليا

وبكلمة شاملة، فإننا لا نشك قط، بالنظر إلى ما لدينا من معطيات مادية، في أن العرب قد عرفوا هذا المصطلح النحوي منذ الفترة المذكورة،

وأضحوا يسمون هذه القواعد الوظيفية نحواً، ومن يشتغلون به نحوياً، ويجمعونه على نحويين جمع مذكر سالما أو نحاة على جمع التكسير[9]، ولا أدل على هذا من ورود هذا المصطلح صراحة لدى سيبويه الذي تجعل بعض الوثائق وفاته سنة 161 هـ : "هذا باب منه استكرهه النحويون"[10]، "وإلا خالف جميع العرب والنحويين"[11]، "وإنما ذكرنا هذا، لأن أناساً من النحويين يفرّقون بين التنوين وغير التنوين"[12].

ولعلنا لسنا في حاجة من المزيد إلى التدليل على هذه المسألة، ولكن الذي نرجّحه أن سيبويه لم يخالف أحداً ممن سبقوه أو عاصروه في وضع مصطلح مركب لو كان بلغ سَمْعَه أو عِلْمَهُ مصطلح آخر كان متداولاً فعلاً بين النحاة من اساتذته وأقرانه البصريين، بدليل الاصطلاحات التي أدخلت من ورثته على هذه المصطلحات المركبة بشكل خاص، حتى وإن بقيت عناصر منها متداولة إلى وقتنا هذا في كتبنا التعليمية كمثل تسميته لـ"إذا الشرطية" بـ "ظرف لما يستقبل من الدهر" خلافاً لـ: "إذ" التي هي عنده "ظرف لما مضى من الدهر"،...فضلاً عن مصطلحات نحوية أخرى انفرد بها سيبويه.

ولسنا هنا بصدد التأريخ للنحو العربي أو حتى الدفاع عن أصالته من عدمها، فهذا موضوع آخر لا يخرج من كل من دخل فيه بنتيجة ترضي الجميع، ولكن هدف إثارتنا لكلمة النحو في ذاتها ولذاتها، لأن هذه الكلمة في بداية أمرها وعلى مسار قرنين من الزمن على الأقل ظلت العناصر اللسانية كلها تنضوي تحتها انضواء تكاملياً، وكل ما تمرد عنها لاحقا انبثق

عن مجالها، وظل في سيرورته وتطوره عالة عليها ومديناً إليها على الصورة البصرية الأولى.

ولم يعد يخامرنا تردّد في أن السلطة القاهرة لتلك الأبوّة النحوية المقدّسة على كل العناصر اللسانية في اللغة العربية كان مردّها أساساً إلى شبكة العلاقة الداخلية للبنية الدلالية في اللغة العربية، تلك البنية التي لا يكون لها معنى إلا على مدى تركيبها كلها وبتشارك العناصر اللسانية جميعها دون التقليل من أهمية عنصر فيها، فما الحركات الدؤلية من فتح وضم وكسر وتنوين إلا ظواهر صوتية تعليمية مساعدة، أما ما يكمن من بنىً تحت هذه الصوائت القصيرة فهو شيء آخر، إنها البنية الدلالية كلها.

ويأتي العقد الأول من القرن العشرين ليؤكد على لسان دي سوسور دواعي البنية الكلية التي اتسم بها النحو العربي القديم: "تمتزج صفات الوحدة مع الوحدة ذاتها، وفي اللغة كما في أية منظومة أعراضية أن ما يميز علامة ما، إنما هو كل ما يشكّلها،...ولما كانت اللغة على ما هي عليه، فإننا لن نجد فيها شيئا بسيطاً مهما كان الجانب الذي ندخل به إليها، إذ إننا نجد دائما وفي كل موضع ذلك التوازن الواحد معقداً بين عبارات يحكم بعضها بعضاً..."[13].

ولا يفوتنا، بهذه المناسبة، أن نشير إلى أن الدرس اللغوي في الفترة الخليلية والسيبويهية كان قد بلغ ذروته اللسانية ولم يعد العجز عجز مصطلح على نحو هذه المصطلحات اللسانية العربية الحديثة المشوّهة، بل انتقل الدارسون إلى التمازج العلمي لتوظيف كل العناصر اللسانية العامة،

وذهبوا بها أبعد مذهب لا نكاد نجد أشياء منه اليوم إلا فيما نطّلع عليه من نظريات لسانية عالمية، وحسبنا هنا مثالاً على ما قد يوهمه البعض إدعاء أن نورد تحليل سيبويه، البيتَ الشعريّ الشهير لامرئ القيس (طويل).

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفاني، ولم أطلب، قليل من المال

يفسّر موقع الرفع لكلمة "ليل" بقوله: "فإنما رفع قليل لأنه لم يجعل القليل مطلوباً، وإنما كان المطلوب عنده الملك، وجعل القليل كافياً، ولو لم يرد ذلك ونصب فسد المعنى"[14]، ومما يؤسف له أن النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه غيّروا وحوّروا بعض المصطلحات النحوية العامة وأبعدوها عن دقة علاقتها بما تشير إليه من تخصيص أو تعميم دلاليّين.

وبالنظر إلى هذا التكامل المتراصّ الذي يشدّ بعضه بعضاً بالنسبة لمخلّفاتنا التراثية التي تتماثل لنا في أشكال لغوية ومواد أدبية وخطابات كلامية، فقد بات مشروعاً لنا أن نُحْدِث علماً مستوحى من هذا التراث المتداخل تارة والمنفصم أخرى يمكن أن يدعى علم اللهجات الأدبي ليتكفّل بدراسة هذه الأشكال اللغوية التراثية دراسة علمية مستقلة، وكنا في مناسبة أخرى دعونا إلى هذا الموضوع، وقلنا: "علم اللهجات الأدبي هي الدراسة العلمية للأساليب الأدبية التي لا يمكن للمتكلم أو المتلقي أن يغيرها أو يحوّرها وإلا فسد المعنى أو ضؤلت الدلالة وبردت"[15]، وأضفت قولي: "إن الزعم باستحداث علم لهجات أدبي مستقل بات أكثر من ضرورة ملحة بغية تنوير الأجيال العربية بماضي تراثها الأدبي وكنوزها اللغوية الموؤودة، لأن هذه الأشكال اللسانية العربية القديمة نجد القدماء متنازعين فيها، وكل فريق

يرى أنها من جنس حقله، ولذلك نجد كتب التراجم والطبقات النقدية والأدبية زاخرة بتراكيب لغوية كثيراً ما حوّلتهم عن اهتمام موضوعهم الذي رصدوا جهدهم له منذ البداية، مثلما نملك في تراثنا كتبا في التراجم والطبقات اللغوية لا تخلو من تخمة أساليب أدبية صرف،...فمن هنا أضحى لزاماً أن يولد ولادة شرعية مثل هذا الجنس تلافياً للاختلاط، وتنمية لكل حقل في ميدانه، وإحساساً للجيل العربي المثقف المعاصر الذي غدا ينفر من مثل هذه الأشكال اللسانية القديمة التي لا تتنافى في شيء مع ما جدّ في أحدث النظريات اللغوية الجديدة، بل إننا لنرى أن غير قليل من هذه التراكيب اللغوية العربية القديمة يؤازرنا أحياناً على فهم بعض المعطيات الواردة في النظريات اللسانية الجديدة"[16].

وكان الجاحظ فيما يبدو أسبق الدارسين إلى التنبيه على أن هناك أضرباً من الخطابات والنصوص لا يمكن إعرابها أو تحويرها إلا إذا جرت على أفواه أبطال مثقفين أو علماء لم يكن بدّ من تفصيحها: "وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً، أو كلاماً غير معرب، ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك، لأن الإعراب يبغّض هذا الباب، ويخرجه من حده"[17]، وسبق الجاحظ أبو زيد الأنصاري (215 هـ) إلى هذه الإشارة البعيدة "والمثل بمنزلة الإشارة، وإنما يعلم المراد به على هيئته، فإن غيّر فسدت الدلالة وبطل المعنى"[18].

ودعوتنا إلى الالتفات إلى هذا الحقل الذي نمارسه في تراثنا عمليا ونتغاضى عنه نظريا دعوة من باب الاقتناع بأن العلاقات التركيبية والترابطية

والتطورات الدلالية والعادات الخطابية البلاغية من ترميز وتصريح وإيجاز وإطناب وتحويل الخطاب من جهة إلى جهة بطرق غالباً مالا تكون في حسبان المنتج نفسه وحدها لا تكفي بتبليغ الرسالة في كل موقف من مواقف الاتصال إذا لم يعضد وينضّد هذه الظواهر والتصرفات الكلامية أداة لسانية جديدة يجب أن تنبثق من هذا التراث اللغوي نفسه الذي لم يوصد أمامنا أبواب المراجعة والمقابلة والاجتهاد في ضوء ماجد من حقول دراسية قد تؤازره على عطاء أكثر، وسخاء أوفر.

وعلم اللهجات الأدبي الذي نتصوره ميدان واسع لا يحتفل بمستوى دون مستوى "فهناك التطورات الدلالية، إذ كثيرا ما نحسب أن كلمات عامية أو أجنبية وهي عربية صَلِيبةً، وثمت تراكيب نتداولها في خطابنا الشفهي، وربما لا نجرؤ على توظيفها في انتاجاتنا الكتابية"[19] ظناً منا أنها عامية أو سوقية وكان ابن مكي الصقلي ممن أشار إلى هذه الظاهرة في جزيرته: "وصار كثير من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون، وكثير من العامة يصيبون وهم لا يشعرون، فربما سخر المخطئ من المصيب، وعنده أنه قد ظفر بأوفر نصيب، وتساوى الناس في الخطإ واللحن إلا قليلاً"[20].

ومما لا شك فيه أن الرعيل المبكر ومن بعده من خلف كانوا يعرفون مستويات لغوية أكثر اتساعا بالنسبة للغة العربية وتراثها الأدبي ونصها القرآني، وأضيق استعمالا بالنسبة للمتكلمين، وبين كل مناسبة وأخرى كانت تطالعنا تكلمات أو مستويات أو قراءات تدل على سلوك لساني طبع عليه هؤلاء المتكلمون العفويون السليقيون، ومن هذا القبيل وهو باب واسع، أن

ابن أبي اسحاق كان يقرأ: "يَا لَيْتَناَ نُرَدُّ وَلاَ نُكذِّبَ بِآياَتِ ربِّناَ ونَكوُنَ من المؤمنين" بنصب "نكذب"، وكان يقرأ: "الزاني والزانية"، "السارق والسارقة" بالنصب في كل منهما على خلاف ما قرأ به القرأَةُ[21]، ومثل عبد الله عيسى بن عمر الذي كان جريئا على النصب، حيث كان يقرأ: "هؤلاء بناتي هنّ أظهر لكم" بنصب "أظهر" خلافاً لما عليه النحويون أجمعون، ولربما قرأت به القرأة عملاً بأن أبا عمرو كان ممن ينكر هذه القراءة، وهو قارئ ونحوي ولغوي جميعا، ولربما وجدنا قارئين يتفقان قراءة ويختلفان تأويلاً، من ذلك أن كلا من عيسى بن عمر وأبا عمرو كان يقرأ ﴿**ياجبالُ أوِّبِي معه والطير**﴾ (سورة سبأ 10) بنصب "الطير"، لكن عيسى يرى أن النصب بتقدير النداء وأبا عمرو على تقدير إضمار: "وسخّرنا الطير" ذاهبا أنه لو كان على النداء لكان رفعا، ولذلك لا نعجب من قول الأصمعي الذي سمع أبا عمرو يقول: "لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ به لقرأت حرف كذا وحرف كذا"[22]، بمعنى أن الرجل كان يعرف مستويات لغوية أكثر مما هو مألوف ومعتاد بين الناس عامتهم وخاصتهم ومن ثم لا نندهش كثيرا حين هاجم اللغويون والنحاة الفرزدق في تركيبه الشعري المشهور:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مُسْحَتًا أو مجلّفُ

من طمأنة أبي عمرو للشاعر بقوله: "أصبت هو جائز على المعنى على أنه لم يبق سواه"[23]، وتراثنا يعج بنصوص وتراكيب تصب في الاتجاه نفسه لا تغيب عن المختصين والمهتمين بهذا التراث اللغوي الذي ساده الوهن والضعف يوم بدأ الانفصام يمس جوهره البنيوي الداخلي.

وإشارة إلى ما سبقت الإشارة إليه أن تراثنا اللغوي يقوم على التكامل أكثر مما يقوم على الانفصام، بل لا نحس في أنفسنا شططاً إذا قلنا إن أغلب شواهد العربية في القواعد والخطاب والتفسير وتخريج أحكام لغوية ودينية يتسم بظاهرة التكامل أكثر مما يتصف بظاهرة الانفصام، لأن النظام اللساني في لغة متصرفة كالعربية نظام مكوّن من عناصر يكمّل بعضها بعضاً، ويقوم سابقها على تاليها، وتاليها على سابقها، ولا يفهم معنى تركيب فيها إلا على مدى بنيته الكلية بما تفرزه علاقة كل عنصر فيها بعلاقة صنوه.

فأي تركيب لا يتشكل من عناصر صوتية وفونولوجية ومورفولوجية ومعجمية ودلالية يرأسها جميعاً العنصر أو المستوى التركيبي، ومن هذه العناصر مجتمعة تنتج فضاءات تبليغية أو إيداعية صار بعضها مدركاً لدينا، وبعضها الآخر لا يزال مستخفيا عنا وعن إدراكنا المحدود، فقد ننخدع بتماثل البنيات اللغوية أحياناً بدعوى أن الفرد لا يبدع خارج لغته الطبيعية، ولكننا لا ننخدع إطلاقا بمدى تباين العلاقات فيما بينها، ولربما كان دي سوسور أول من حاول أن يعالج هذه الإشكالية بطريقة أكثر عمقاً وأقرب فهماً إلى أذهاننا حين ميّز تمييزاً رائعاً بين العلاقة التركيبية والعلاقة الترابطية ذاهبا إلى أنه بقدر ما يكون من علاقات بين العبارات توجد علاقات مختلفة، والفرق بين العلاقتين التركيبية والترابطية أو الأولى حضورية قائمة على عبارتين أو أكثر، والثانية يشكلها ترابط أو تداع ذهني غيابي منتهيا إلى أن قيمة "الكل

هي في أجزائه كما أن قيمة الأجزاء تتأتى من مكانتها في هذا الكل أو ذاك"[24].

ونظرا لكون قيمة الكل في كل مستوى من مستويات تأليفه، فإن التراكيب القرآنية والشعرية السابق ذِكرُها تباين علماء ضليعون في ثقافة لغتهم الطبيعية في طرائق وصولهم إلى تِبْيانِ مفاهيمها الدلالية التي لا تتضح إلا من خلال بناها العميقة، هذه البنى التي قد تتعدد من خلال بنية سطحية واحدة، أو هذه الأخيرة لا تضطلع سطحيا بتبيانها في كل مقام أو خطاب، لأن الخطاب اللغوي إذا كان مسؤولا عن إفهامنا شيئا، فإنه غير معنيّ ضرورة بتحديد ماهية هذا الشيء، نتذكر ما كان يلام به أبو تمام، ونتذكر قول العقاد لخصومه "أنا لا أكتب للكسالى" والإشكال لم يكن ليستحق كل تلك الضجات النقدية لو وظف المتلقون عناصر لغوية تكاملية ظاهرية وضمنية معا، فنحن إذا سمعنا:

"يَعِدُ عُمَرُ مَرْيَمَ بالمجيء"

فإننا نعرف سطحياً أن عمر سيوفي بوعده لا محالة، ولكننا لا نستطيع أن نعرف تحديداً ما هو الشيء أو الهدية التي يحملها معه إلى مريم، كل ما نعرفه مجيء عمر، وهذا الضرب من التحليل أكثر تجريداً من القواعد النحوية البنيوية التي تتموقع وحسب على المستوى السطحي، ومن ثم، فإن كل تركيب ينبغي أن يحلّل في مستوييه: العميق أو التحتي والسطحي، وهو تحليل ضروري للوصول إلى تفسير دلالي، لأن "البنية السطحية غير ملائمة كليا ولا مطابقة عموما لتمثيل العلاقات النحوية الدلالية، والتقديرات السابقة لكل من عيسى بن عمر وأبي عمرو وتقديرات تتعلق بالبنية العميقة

لا البنية السطحية، وعليه فالحركات الإعرابية كصوائت قصيرة لا ننكر وظائفها تعني ما هو مستتر وكامن ضمنياً فيها، وعلى هذا نجد معظم اللسانيين النفسانيين يميل بهم الظن إلى أن المعطيات التجريبية كافية لإثبات أن البنية العميقة لها واقع سيكولوجي لا ينفصل عن تصرف المتكلم ظاهرياً والمنعكس آلياً في سلوك لساني ضمني.

ومنذ ظهور اللسانيات التاريخية قبل قرنين أضحى الغربيون ينظرون إلى مكوّنات الوصف اللغوي في لحظة محددة من تاريخها ضمن ثلاثة مجالات تنطلق مما هو أكثر خارجياً، إلى ما هو أكثر قربا من المعنى، وهي[25]:

1. الوسائل المادية للتعبير شفهياً أو كتابياً، شعبياً أو رسمياً، لهجياً أو أدبياً.

2. النحو، وكان يضم عندهم بابين أو مستويين:

أ. المورفلوجيا التي تعالج الكلمات بمعزل عن علاقاتها في الجملة، وهذا الصنف عندهم يمثل ما يسمى أقسام الخطاب من اسم وفعل ونحوهما.

ب. التركيب (السانتك) ويعالج التنسيق بين الكلمات داخل الجملة.

3. المعجم (اللكسيك)، ويبين المعاني الذي تتضمنها المفردات.

ومع ما تعرّض له هذا التقسيم أو الوصف الغربي التقليدي من انتقادات لاحقة، خاصة من لسانيّي القرن العشرين، فإن النبهاء من اللسانيين يرفضون رفضاً قاطعاً فصل المورفولوجيا عن التركيب (السانتكس)، فالأولى تشكل البناء للكلمات، والثانية مجموعة من القواعد أو الأنظمة التي ترأس تنظيمها، حتى إن أنطوان ماييه كان يرى أن أية محاولة للتمييز بين المورفولوجيا والترتيب (السانتكس) إنما هو تمييز أحمق، لأن ما يعدّ في لغة ما داخلاً في المورفولوجيا

كثيراً ما يكون في لغة أخرى من موضوعات التركيب (السانتكس)، فوظيفة الترتيب في جملة فرنسية مثل:

- PAUL FRAPP PIERRE

هي الوظيفة نفسها التي تؤديها وظيفة الإعراب في جملة عربية مثل:

- زيد يضرب عمرًا.

ويشاطر دي سوسور أنطوان ماييه بأن ما يتفق على تسميته بالقواعد إنما يعني في الآن ذاته التركيب (السانتكس) والمورفلوجيا معاً، وفصل أحد المستويين عن الآخر فصل وهمي، يقول بصريح العبارة: "إن المورفلوجيا لسانياً ليس لها هدف متميزحقيقي ومستقل، ولا تستطيع أن تكوّن وحدها علماً أو فرعاً مميزاً عن التركيب (السانتكس)"[26].

وبإمكاننا اليوم الوقوف على التراث اللغوي العربي لنتيقّن من مدى تكامل مستويي التركيب (السانتكس) والمورفلوجيا من عدمها، وهل كانت التواصلات اللغوية الطبيعية والتعليمية تتم منفصمة أم متكاملة؟

كل مطلع على المستويات الخلفية لهذا التراث وخباياه لا يتردّد من خلال إحالته على عينات لسانية أصيلة شمولية مثل كتاب سيبويه ليعلم علم اليقين أن الدرس اللساني العربي نشأ أول ما نشأ مترابطاً غير مفكك الأجزاء، لأن عملية التركيب عند العرب سبقت عملية التحليل، هذا التركيب الذي يعدّ اللسانيون المحدثون الجملة النمط الأفضل له مقرّين أن (الجملة تنتمي إلى الكلام، بينما تنتمي التراكيب إلى اللغة، يعني أن التراكيب ظاهرة لسانية جمعية، والجمل ظاهرة كلامية فردية، أضف إلى ذلك أن علمنة العربية

كانت تخضع الوضع العلمي للقواعد إلى النصوص أي إلى المتكلمين دون رسم حدود لطبقاتهم الاجتماعية خلافاً للقواعد الغربية القروسطية وإلى غاية عصر النهضة التي كانت تخضع النصوص أو المتكلمين إليها.

والتحليل في العربية والذي كنا أشرنا إليه كان تحليلا شبه آلي سنده في ذلك الجبلة والكفاءة والسمع الذي يعدّه ابن خلدون أبا الملكات في الاكتساب اللغوي، وليس معنى هذا أن الرعيل المبكر من أولئك اللغويين العرب لم يكونوا يدركون بنيويا تلك الفروق وتلك الحدود وتلك العناصر التي تتعاضد كلها في تكوين البنية، لكن ما نعنيه أن ذلك الدرس نهض أول ما نهض على الاستقراء الكلي ثم ما عتّم أَنْ عَقِبَهُ المنهج التحليلي التفكيكي.

والإقرار السابق بنسبة الجملة إلى الكلام، وهو إقرار "معزو إلى دي سوسور، قال به بعض العرب قبله بقرون ألم يقولوا إن "واضع اللغة لم يضع الجمل كما وضع المفردات، بل ترك الجمل إلى اختيار المتكلم، يُبيِّن ذلك لك أن حال الجمل لو كانت حال المفردات لكان استعمال الجمل فهم معانيها متوقفا على نقدها عن العرب"[27].مردفين القول "ولهذا لم يتكلم أهل اللغة في المركبات ولا في تأليفها، وإنما تكلموا في وضع المفردات، وما ذاك إلا لأنّ الأمر موكول إلى المتكلم بها"[28]، وهل قال دي سوسور غير هذا؟ ألم يقل: "إن الجملة هي النمط الأفضل للتركيب غير أنها تنتمي إلى الكلام لا إلى اللغة"؟[29] ألم يقل: "يجب أن نسند إلى اللغة لا إلى الكلام جميع أنواع التراكيب المبنية"[30].

وإذا كنا لا نريد أن ندخل هنا في جدل يبعدنا عما نحن بصدده بشأن الرأي العربي المعارض الذي كان يتعجب من إجازة وجود تركيب ما في لغة

من اللغات من غير أن يسمع من ذلك التركيب نظائر، فإن علماء اللسان العربي القدامى كانوا يرون أن علم النحو موضوعه كليه خلافاً لعلم اللغة الذي موضوعه أشياء جزئية، أي كل بنية نحوية هي في الآن ذاته بنية لغوية، وكل ماهو نحو مفترض فيه أن يكون تصريفا ولغة واشتقاقا، ومع أهمية دراسة هذه العناصر مستقلة من الناحية الشكلية والمنهجية بمعزل عن النحو، فإننا لا نغتر بقول بعضهم: "و أما التصريف فإن من فاته علمه فاته المُعظَم" بدعوى أننا نقول: وجد، وهي كلمة مبهمة، فإذا صرفنا أفصحنا، لأنا نقول في المال: وُجْداً، وفي الضالَّة: وجداناً، وفي الغضب: مَوْجِدة، وفي الحزن: وَجْداً.

ويقال القاسط من الفعل الثلاثي للجائر، والمقسط من الرباعي للعادل، تحوّل المعنى بالتصريف من حالة مغايرة، وهذه الدراسة على هذا النحو إنما هي دراسة معجمية اشتقاقية دلالية إذا كانت إفرادية، ومتى رُكِّبَت غدت تركيبية (سانتكسية)، وكذلك سائر الأبواب من جمع وزيادة وسوابق ولواحق وحشو...ونجد في صدر كتاب التصريف للمازني (236 هـ) أن التصريف وسيطة بين النحو واللغة وهما يتجاذبانه، وأهم ما فيه أن التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق على أن التصريف يتكفل بما هو ثابت من الكلم، والنحو ينهض بما هو متغير فيه[31].

وتشييد سيبويه إنجازه الضخم الذي لو اجتزأنا به في مراحلنا التعليمية درجة درجة لكان خيراً للعربية ومتعلميها مما ألف بعده من تراكمات نحوية جافة كثيراً ما نفّرت العربي من عربيته فما بالك بالمتعلم الأجنبي، أقيم في

جوهره على ثلاثة محاور جامعة مانعة: التركيب الفعلي، والتركيب الاسمي، والتركيب الحرفي، وهذه التراكيب عالجها تأليفاً ونظماً، ولم تخل من حضور مشروع للعنصر المورفولوجي، ولكن سيبويه أبى قبل نهاية إنجازه إلا أن يلتفت إلى بيان ما أسماه "التصريف والفعل" ليشرّحه تشريحاً مستقلاً إفرادياً استقصاء لما في العربية المستعملة من أوزان وأشكال وصفات واشتقاقات، مما جعله يعرض الصيغ المورفولوجية ثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية، متحدّثاً عن الزوائد واللواحق التي لا تضاف إلى وحدة عبثا، بل ليُعلَم ما تعني[32].

ويمكن القول إن ابن خلدون كان خاتمة البحث اللغوي الذي نجده يتميز عنده بالشمول القائم على عناصر متداعبة يكمّل بعضها بعضاً، وهذه العناصر يتوزع كل واحد منها إلى مستويات عامة ومستويات فرعية "وهو يدرك المعرفة اللسانية بمنظورين، منظور داخلي يشمل البنية اللسانية أداة للعمل والتعامل معبّراً عنها عادة بأشكال خارجية تمشياً مع ذهنية العصر وذوقه... بمعنى أنّ ابن خلدون ينطلق في تعريفه للعلوم اللسانية من مفهوم عملي أشمل، وعملي متصل باللغة لذاتها من خلال ما تقوم به من وظائف اجتماعية من أعلى مستوى مثل التواصلات الأدبية والرسمية إلى أدنى مستوى مثل التفاعلات والتعاملات الشعبية اليومية الآنية"[33]، علما بأن علوم اللسان العربي لدى ابن خلدون أربعة أركان: النحو واللغة والبيان والأدب ويمكن أن يضاف إلى هذه الأركان الأربعة ثلاثة أركان أخرى على الأقل: الدلال والديالكتولوجية والخط.

ومما يسجّل لابن خلدون من فضل أنه تعامل مع علمي اللغة والنحو تعاملاً داخلياً لا خارجياً حيث أعطى الأولوية لما يترتب عن التراكيب المتحركة من وظائف متباينة غير أنه لم ينج من مطب تجلى في مبالغته في تلك المفاضلة المفرطة "بين علمي النحو واللغة، فهو لم يكتف بتقديم علم اللغة على علم النحو فقط، بل تمادى في جزمه بأن النحو أهم من اللغة، وهو جزم يعود إلى علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين، نجده لدى ابن فارس في "صاحبيه"، وعند ابن جني في "خصائصه"، وحتى لدى عبد القاهر في "دلائله".

والواقع أنه "لا فضل لعلم على آخر، وليس هناك عنصر أهم من عنصر ولكن من ناحية التشكيل لأي تركيب يمكن قبول اتجاه ابن خلدون بكثير من الرضى، لأن ما قد يسمى بالواقعة النحوية يتماثل لنا آليا في كل تركيب"[34]، وهذا ما أشار إليه دي سوسور لاحقاً: "إن كل عبارة إنما لها حضور عبر الواقعة النحوية"[35]، أضف إلى ما سبقت الإشارة إليه من استحالة فضل العناصر بعضها عن بعض لأداء تواصل أداء سليماً ما جدّ قبل عقود خلت في حقل التركيب (السانتكس) البنيوي الذي يشير إلى رفض ثلاثي عام: رفض الحذف أو الإضمار، رفض اعتبارات المستوى الدلالي على حساب العناصر الأخرى، وأخيراً رفض التمييز بين التركيب (السانتكس) والمورفلوجيا، وعليه فاللسانيون المعاصرون يرفضون هذه الانشطارات بين عناصر الوحدات اللسانية، وركّزوا على وجه الخصوص الرفض القاطع للفصل بين علمي النحو والصرف مثل قول هلمسليف: "إن التركيب (السانتكس) البنيوي لا يكون معقولاً إلا إذا تخلى عن الانشطار الذي يفصله

تقليديا عن المورفلوجيا مع اختراق الحواجز الكتيمة (Cloisons étanches) بين هاتين المادتين، والاعتراف بأن سر النحوية (Mélanisme grammatical) كامل في لعبة الاستعمال المؤلف بين الأنماط المورفلوجية بالتعاقد مع العلاقات التركيبية (السانتكسية")[36].

ونريد أن نختم هذا العمل مع ما يسودنا من اعتقاد جازم باستحالة فصم عنصر عن عنصر آخر أياً كان نوعه وقيمته خلال عملية التواصل بين المتكلم والمتلقي المفترض فيهما سلفا أنهما ينتميان إلى زاد أو وضع لساني مشترك واحد، وإلا حصل ما حصل من سوء تفاهم حتى بين السليقيين في إطار لغة واحدة، فكلنا يذكر تلك الرواية التي نسجت حولها حكايات، والمتعلقة بوقوع بنت أبي الأسود في لحن أسلوبي متعجبة من شدة الحرفي صورة استفهام، وسواء أصحّت هذه الرواية أم لم تصحّ فإنها تؤكد عدم التهاون بفصم العناصر خلال عملية الكلام أو التلقي بين باث لرسالة ومتلقيها.

وفضلا عن التواضع اللغوي المشترك فعلى المتلقي أن يكون أشد حرصاً على الالتفات والانتباه لما يُبَثّ له من مرسلات، تذكرون –مثلاً– مطلع قصيدة جرير :

أتصحو أم فؤادك غير صاح   عشية همَّ صحبك بالرواحّ؟

ولولا قوله اللاحق:

ألستم خير مَنْ ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح؟

لظلّ الخليفة مستنكرا غاضباً، والمطلعون على بعض الاستعمالات الخطابية المحلية يعرفون ما جاء في الحديث "بأن قوماً من جهينة جاؤوا بأسير إلى النبي

(ε)، وهو يرتعد من البرد، فقال عليه السلام، ادْفؤُهُ بغير همز على لغته فذهبوا به فقتلوه، وإنما أراد عليه السلام: أدفئوه من البرد، وهم فهموا: أُدفوه من دفوت الجريح أدفوه دَفواً إذا أجهزت عليه[37]، واعتبر ذلك القتل خطأ بدليل أن النبي(ε) قد ودى ذلك القتيل.

وأما تحريف "مستوى تركيبي (سانتكسي) أو مورفلوجي على سبيل الجهل أو الالتباس أو اللامبالاة، فلا يختلف أحد مع الآخر في أن التورط في مثل هذا الانحراف من المتكلم قد يقوده حتماً إلى الالتباس والغموض أو إلى فهم خاطئ لدى المتلقي، ولسنا بحاجة إلى الاتيان بالشواهد الغزيرة من أجل إثبات هذه القضية، فهي حوارات مشهورة منذ صدر الإسلام بين العرب أنفسهم، ثم بين العرب والأعاجم في وقت لاحق إلى درجة أن بعضا من هذه الحوادث المشوبة باللحن أضحت أو تحولت إلى ملح ونوادر"[38].

مراجع البحث:

1. البخلاء: الجاحظ، ط: 1960، دار صادر للطباعة والنشر بيروت.

2. بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب

د.عبد الجليل مرتاض، دار الأشرف، بيروت، ط: 1988.

3. تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكي الصقلي، تحقيق د.عبد العزيز مطر، دار المعارف، مصر.

4. طبقات فحول الشعراء، ابن سلام، تحقيق د.محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

5. طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط: 1973، دار المعارف، مصر.

6. العربية بين الطبع والتطبيع، د.عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) 1993.

7. الكتاب سيبويه، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار القلم، القاهرة.

8. مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث، د.عبد الجليل مرتاض، دار ثالة (الجزائر)، ط: 2003.

9. اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، د.عبد الجليل مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع (وهران)، ط: 2003.

10. محاضرات في الألسنية العامة، ف. دي سوسور، ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان، بيروت، ط: 1984.

11. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين ذهبي، تحقيق، جاء الحق، دار الكتب، القاهرة.

12. المزهر، السيوطي، تحقيق، جاء المولى وآخرون، مط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

13. مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق، أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، بيروت.

14. المنصف لكتاب التصريف، المازني وشرح ابن جني، تحقيق، ابراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مط.مصطفى البابي، القاهرة، ط: 1954.

15. الموشح المرزباني، تحقيق، محمد البجاوي، دار النهضة، مصر، ط: 1965.

16. نور القبس، المرزباني واختصارا اليغموري، تحقيق، رودولف زلهايم، دار النشر فرانتس فيسباندن، ط: 1964.

17. النوادر في اللغة، أبو زيد الأنصاري، المطبعة الكاتوليكية بيروت، ط: 1994.

18. مجلة اللغة العربية (المجلس الأعلى للغة العربية)، العدد الثامن صيف 2003 (الجزائر).

19 .Dictionnaire encyclopédique des seieures du langage, édition du seuil Paris.

20. Cour de liguistique générale FERDINAND de saussure, ENAG 1990 Alger.

21.Dictionnaire de didactique des langues, R.GALISSON / D.COSTE HACHETTE, 1976.

22. Dictionnaire de linguistique, JEAN DUBOIS, librairie larousse, Paris.

---

1. راجع: العربية بين الطبع والتطبيع ص: 21-25.
2. طبقات الشعراء لابن سالم: 11/1.
3. انظر المزهر: 548/2 وطبقات ابن سلام: 14/1.
4. على سبيل المثال انظر طبقات النحويين واللغويين ص: 21 وما بعدها.
5. المصدر السابق ص: 39.
6. نور القبس ص: 3.
7. نفسه ص: 5-6.
8. مراتب النحويين ص: 31.
9. انظر بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب ص: 121.
10. انظر الكتاب: 334/1.
11. السابق ص: 367-368.
12. نفسه ص: 19/2.
13. محاضرات في الألسنية العامة ص: 147.
14. الكتاب: 33/1.
15. اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي ص: 113.
16. نفسه ص: 114.
17. البخلاء ص: 50.
18. النوادر ص: 122.
19. اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي ص : 117.
20. تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص: 43-44.
21. انظر طبقات النحويين واللغويين ص: 33.
22. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: 85/1.
23. الموشح ص: 161.

24. محاضرات في الألسنية العامة ص: 155.

25. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage P :71.

26. Cours de linguistique générale P :214.

27. المزهر: 40/1.

28. نفسه: 40-43.

29. محاضرات في الألسنية العامة ص: 150-151.

30. نفسه ص: 151.

31. راجع المنصف: 1/ 2-5.

32. انظر الكتاب: 251/4.

33. ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث عدد: 8 صيف 2003 (مجلة اللغة العربية) ص: 86-87.

34. المرجع السابق ص: 88-89.

35. محاضرات في الألسنية العامة ص: 147.

36. مجلة اللغة العربية "العدد السابق" ص: 89.

37. انظر اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي ص: 123.

38. السابق ص: 124.

واقع تدريس القواعد النحوية في مراحل التعليم العام
"دراسة تقويمية"

د. محمد صاري
(جامعة عنابة)

مقدمة

يواجه تعليم اللغة العربية في عصرنا مشكلات تربوية حادة لعل أبرزها تعقيدا وتذبذبا مسألة القواعد النحوية وتدريسها. فهي مادة جوهرية ولها فوائد عملية تدفع المربين وتشجعهم على تثبيتها عند بناء المناهج والمقررات. وعلى الرغم من الجهود التربوية المبذولة لتقريبها من عقل التلميذ فإن النتائج المحصلة –في تدريس هذه المادة– لا تعكس حقيقة ما يخصص لها من زمن وجهد.

وما يلاحظ على تلك الجهود أنها لم تستطع الإفلات من قيود التقليد رغم وعيها الظاهر بإشكالية الموضوع. فالقديم لا يفقد سلطانه على العقول والنفوس بسهولة مهما وجه له من نقد.

ومما لا شك فيه أن أسبابا عديدة ساهمت بنسب متفاوتة في خلق أزمة النحو في المجال التربوي، لعل أهمها يكمن في الضعف الذي عليه نسبة كبيرة

من المدرسين، والنقص الفادح في تكوينهم العلمي والديداكتيكي، وانعدام العناية بالتدريب أثناء الخدمة، وضعف التأطير، وعقم طرائق التدريس مقارنة بما يجري في تعليم اللغات عند الغربيين، وهو الباعث الذي دفعنا، في هذه الدراسة، إلى تحليل الممارسات الصفية (أو ما يعرف عادة بطرائق التدريس وأساليبه) وتقويمها في ضوء علم تدريس اللغات.

ولكي لا نقع في ترديد حديث جاء ذكره في أكثر المراجع والكتب، حاولنا تجنب دراسة المشكلة القديمة المتجددة التي يطرحها المربون العرب إلى حد الآن، وتتمثل في اختيار طريقة من الطرائق الثلاث في تدريس مادة النحو :

أ. طريقة النصوص ثم الأمثلة.

ب. طريقة الأمثلة ثم القاعدة.

ج. طريقة القاعدة ثم الأمثلة.

إن طرح الإشكالية بهذه الكيفية التقليدية حلقة مفرغة لا تؤدي إلى نتيجة، ووجه التقليد في هذا الطرح، كما يرى بعض اللسانيين، أنه :

1. يحصر الاختيار في الطريقتين الاستقرائية والقياسية ويتجاهل الاتجاهات الحالية في تدريس النحو كخيار، وعلى رأس هذه الاتجاهات النحو البنوي ونحو النص.

2. يهمل إهمالا كبيرا مسألة التدريب والتطبيق التي تعد الجوهر في تدريس اللغة عامة والنحو على وجه الخصوص، وهيهات أن ينجح تدريس النحو دون تدريب وتطبيق.

وبناء على هذا، تأتي أهمية الدراسة التي سنحاول من خلالها تحليل العناصر الأساسية الآتية :

- منهجية العرض والخطاب النحوي للمعلم.
- طبيعة الأمثلة المستثمرة في الشرح والتدريب.
- الوسائل المعينة في تدريس القواعد.
- منهجية الترسيخ ونوعية التدريبات.
- استثمار مبادئ التعليمية في تجديد النظرة إلى تدريس النحو.

2. منهجية العرض والخطاب النحوي للمعلم :

يلاحظ "بلومفيلد " plofield أن الطرائق التعليمية الشديدة التباين في تصميمها النظري، قليلة الاختلاف من الناحية الإجرائية، أي عند التطبيق الفعلي لها داخل القسم[1]. وتظهر هذه الحقيقة النسبية بوضوح على مستوى المنهجية المتبعة في تدريس الموضوعات النحوية واستخلاص القواعد في مراحل التعليم العام[2] فرغم الاختلاف الواضح في المناهج والمقررات النحوية المدرسية التي تم إعدادها في كل قطر من الأقطار العربية تكاد تكون الطريقة التي يستعملها المربون لتبليغ المادة التعليمية واحدة في جانبها الإجرائي[3]. فهي طريقة تعتمد على العرض المباشر لموضوعات النحو، ولا تخرج غالبا عن إطار العادة والروتين.

أما الخطوات الأساسية لهذه الطريقة الشائعة، فإنها لا تخرج عن حالة من الحالات الآتية:

- عرض النص ثم الأسئلة ثم الشرح و المناقشة ثم القاعدة ثم التدريبات[4].
- أو عرض النص ثم التوضيح ثم الخلاصة ثم التدريب.

- أو الأمثلة ثم الشرح ثم القاعدة ثم التدريبات.
- أو اقرأ ثم لاحظ ثم اعرف ثم طَبِّق[5]

ومعلوم أن هذه الخطوات، وإن اختلفت تسميتها من كتاب إلى كتاب آخر، هي من صميم الطريقة الاستقرائية أو الاستنباطية (الكلاسيكية)[6] التي تقوم على عرض النص الذي تُستخرج منه الأمثلة لتُناقش، وتُستنبط منها الأحكام النحوية التي تُجري عليها تطبيقات فورية، ثم تُستخلص القواعد الكلية النهائية. ويتلو ذلك اقتراح تمرينات تطبيقية غالبًا ما تكون نظرية لا علاقة لها بالتعبير بشكليه الشفوي والكتابي.

فحصص النحو تنطلق عادة من نصوص، أو مقتطفات قصيرة تلائم عقول التلاميذ في لفظها ومعناها، ثم تُقرأ في بداية الحصة المقررة قراءة سريعة من الأستاذ ثم من تلميذ أو تلميذين، يُفسَّر أثناءها ما غمُض من الألفاظ، و تُطرح فيها مجموعة من الأسئلة دون أن ينقلب ذلك إلى درس في تفسير النصوص ؛ فهناك سؤال أو اثنان لفهم النص، وآخر لمراجعة ما تقدَّم في الحصة السابقة. و السؤال الأخير يوضع من أجل تهيئة الأذهان للدرس الجديد[7].

وفي هذه المرحلة يكلف التلاميذ بالقراءة والملاحظة ثم باستخراج الأمثلة، وكتابتها على السبورة مرتبة وفق ما تقتضيه طبيعة الدرس وعناصره. فهذه الأمثلة تتوفر عادة على العناصر النحوية أو الصرفية المستهدفة من الدرس.

وفي مرحلة "اعرف" تناقش الأمثلة مناقشة متدرجة، تتناول البحث عن أوجه الشبه والاختلاف بين الأمثلة النموذجية، فتُعقد الموازنات الأفقية منها

والعمودية، وتستخرج القاعدة جزءًا جزءًا بمساءلة التلاميذ وإشراكهم وتوجيههم في عمليات الاستنباط والاستقراء. ويختم المعلم تحليله، عادة، بتلخيص وجيز لجملة ما استخلصه هو وتلاميذه من أحكام وقواعد[8].

وتظهر في هذه المراحل أهمية الخطاب النحوي للمعلم ونوعيته[9]، فمن خلال سعى المدرسين المستمر لتقريب المعلومات النحوية إلى أذهان التلاميذ وتكييفها بلغة سهلة واضحة، يُكثر بعضهم من الشروح والتفاصيل والمصطلحات والشكليات التي لا تُغني ولا تنفع، فيتحول الخطاب مع ذلك الشرح والتكييف، أحيانا، إلى خطاب غامض مختلف عن النص المكتوب الذي ورد في مذكرة المعلم أو كتاب التلميذ[10].

وفي مرحلة "طبق"، يُكلَّف التلاميذ عقب كل درس بإنجاز مجموعة من التمارين التطبيقية في القسم بالقدر الذي يسمح به الوقت.

وعلى الرغم من العدد المقبول جدًا من التدريبات المتنوعة التي تُذيّل بها دروس النحو في بعض الكتب الحديثة، إلا أنه من الصعب التوفيق بين ضيق الوقت المخصص للتطبيق، وإجراء كل التمرينات المبرمجة عقب الدرس في الحصة الواحدة.

فالمعلم، غالبا، لا يكفيه الوقت لإجراء ما ينبغي إجراؤه من تدريبات وتطبيقات لتثبيت المعلومات والمكتسبات. لأن الحصة المبرمجة للدرس الواحد لا يتعدى زمنها ساعة واحدة، وجزء كبير منها يمضي في التمهيد والعرض والشرح والاستخلاص.

ولذا، فإن المعلم يعمل على إجراء ما تيسر منها، لأنه غير ملزم بإنجازها كلها[11]. ومعلوم أن ما يسمح به الوقت لا يتسع في الحالات القصوى لحل أكثر من تمرين واحد أو اثنين.

إن أهم التقنيات أو الأساليب التي يتدرب عليها التلاميذ، في مثل هذه الخطوات المذكورة سابقا (اقرأ، لاحظ، اعرف، طبق)، لا تخرج عن عمليات التحديد (Identification) أو التصنيف (Classification) أو التنظيم (Systématisation) أو التطبيق (Application) أو التعميم (Généralisation)، هذا ما أثبتته بعض البحوث الميدانية التي تتبعت دروس القواعد عند مجموعة من المدرسين، والرسم البياني الآتي يوضح ذلك[12] :

مجموعة المهارات الأساسية في تدريس مادة النحو عند المعلمين							
تقنيات تدريس النحو	المعلمون						
	1	2	3	4	5	6	7
تحديد	x	x	x	x	x	x	
تصنيف		x		x	x	x	
تنظيم		x	x				x
تطبيق						x	x
تعميم	x		x				

من خلال فحص هذا الجدول يمكن أن نستنتج ما يلي :

1. اختلاف المهارات أو التقنيات الموظفة في تدريس النحو من مدرس إلى مدرس آخر، وهو ما يدفعنا إلى القول أن النتائج المحققة في دروس النحو خاصة، واللغة العربية عامة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بكفاءة المعلم وتكوينه وخبرته، وقلما ترتبط بالطريقة التعليمية كمفهوم نظري مجرد[13].

2. غياب الأسلوب العملي الإجرائي في تدريس مادة النحو، علمًا أن أفضل أشكال تعليمها هي التي تتعدى حدود استيعاب المعلومات أو تحديدها أو حفظها، إلى تنمية القدرة على تطبيقها وممارستها في المنطوق والمكتوب.

فهناك فرق بين أن يتدرب التلميذ على أساليب الاستفهام تدريبًا عمليًا عن طريق توجيهه من قبل المعلم إلى طرح نماذج من الأسئلة مثل:

- متى تقلع الطائرة ؟ - ماذا تحتاج لسفرك ؟
- متى تصل الطائرة ؟ - هل ختمت جواز السفر ؟
- كم الساعة الآن ؟ - هل لديك زيادة في الوزن ؟
- إلى أين تسافر ؟ - كيف تشعر الآن ؟...

وبين أن نشرح له نظريا أسلوب الاستفهام وأدواته ومعنى كل منها، ومجال استخدامها، وإعرابها[14]...

ويبدو أثر التلقين، وقلة جدواه بوضوح عند معاينة الفعل البيداغوجي داخل القسم، فكلما أنْعمَنَّا النظر في الخطاب النحوي الذي يُنتجه المدرسون لاحظنا أنه خطاب يركز على المعرفة النظرية للقواعد، ولا يعطي للتدريب بقسميه الشفوي والكتابي، ما يستحقه من عناية، كما لا يعطي للتلميذ فرصة كبيرة أو كافية للتدريب والممارسة. فهم المعلم سرد معلومات الدرس، وإنهاء المقرر، ولذلك نجده، عمليًا، هو المتكلم الوحيد.

فهو الذي يقوم بإعداد التلاميذ وتهيئتهم، وهو الذي يقوم بعرض المادة الجديدة عليهم، وهو الذي يناقش ويشرح ويسأل ويطالب بالمقارنة، ويقود

التلاميذ إلى اكتشاف القاعدة من الأمثلة والنصوص بطريقة سلبية، دون توفير التقنيات والأساليب اللازمة لامتلاكها والتحكم فيها نطقا وكتابة. مما يؤدي إلى تقليص فرص تعرض المتعلم للتراكيب النحوية في استعمالاتها العفوية (أي الجانب البنوي الإجرائي للغة).

إن اللجوء المستبد من قبل المعلم إلى العرض الصريح، و التعريف النظري بالقواعد النحوية[15]، والتهاون في آن واحد بالعمل الترسيخي المنظم المستمر الذي يجعل المتعلم يدرك بنفسه هيئات التراكيب، وما يحتويه الكلام من المباني والمعاني بدون وساطة التعريفات المجردة[16]، لدليل واضح على التأثير السلبي للطريقة التعليمية بالتصورات المشوهة[17] التي مازال كثير من المعلمين والمربين يحملونها عن طبيعة اللغة، بل عن طبيعة القاعدة النحوية والغرض من تدريسها[18].

وخلاصة القول في واقع الطريقة التعليمية المتبعة في تدريس مادة النحو، أنه لا يوجد أي تطوير، فالاتجاه التقليدي هو المسيطر، لذلك لم نسجل ابتكارات أو تجديدات عملية على مستوى تأدية المعلم جديرة بالإشارة إليها.

وإلى حد الآن لا توجد محاولات حديثة تتبنى تطبيق نتائج البحث اللساني التربوي التي ظهرت بعض آثارها في صياغة الأهداف، وبناء المناهج وتخطيطها[19]. هذا، وتشير التحريات الميدانية التي قام بها بعض الباحثين إلى أن ضعف الطريقة وقلة نجاعتها، ونقص كفاءة المعلم، وإهمال الجانب التطبيقي في النحو هي من أهم الأسباب التي أدت إلى فشل تدريس النحو[20].

3. نوعية الأمثلة والنصوص :

ونعني بذلك عينة الأمثلة والنصوص التوضيحية التي ينبغي أن توفر لها العناصر النحوية والصرفية المستهدفة من درس القواعد، هل هي متنوعة وهادفة وتوجيهية؟ هل هي قديمة أم معاصرة؟ وهل هناك تطابق وانسجام بينهما وبين بيئة التلميذ ومستواه اللغوي والعقلي...؟[21].

إن تعليم اللغة من الوجهة الحديثة، ممارسة واستعمال، إذ يتوقف تقدم التلميذ ونموه فيها على نوعية الأمثلة التي تعرض عليه (كما وكيفًا). فهناك أمثلة حية ونصوص شيقة، يقود الارتياض عليها، لا محالة، إلى تربية الملكة وثرائها. وهناك أمثلة جافة لا تزيد أسلوب التلميذ إلا تحجرًا. وعليه فإن الاهتمام بالنماذج الأصيلة، والأمثلة الحية التي تربط المتعلم بلغة العصر والحياة، والإكثار منها، تساعد المتعلم على تحسين تعبيره، وإثراء رصيده اللغوي، وذلك بالتفاعل معها، والاقتباس من تراكيبها وأساليبها ومضامينها.

ومن يعد إلى كتب النحو المدرسي الحديثة، يلمس تفاوتًا واضحا في اختيار الأمثلة والنصوص، فهي متنوعة تجمع بين الأمثلة الهادفة، والآيات التوجيهية، والنصوص النثرية والشعرية القديمة والحديثة[22]، التي تلائم على العموم بيئة المتعلم، ومستواه اللغوي والعقلي.

هذا من ناحية الوثائق المكتوبة (الكتب المدرسية)، أما على مستوى الممارسة الصفّية (داخل القسم) فإن الواقع يثبت أن هناك فقرًا كبيرًا وعجزًا

هائلا في إنتاج الأمثلة، ومحاكاة النماذج المقدمة في مرحلتي العرض والشرح، لا سيما عند التلاميذ. فالكثرة المطلقة من الأمثلة التي يوظفها المعلمون غرضها الأول والأخير الاستشهاد وخدمة القاعدة وليس خدمة التعبير بشكليه الشفوي والكتابي. فهي أمثلة لا تعين التلميذ على إثراء رصيده اللغوي، وترقية تعبيره. يرددها التلاميذ والمعلمون ترديدًا مملاً في أغلب حصص القواعد، يعوزها جمال التعبير وشرف المعنى، ولا تخرج في كثير من الأحيان عن : ضرب موسى عيسى، وزيد في الدار، و في الدار زيد، و قتل الرجُل الولد، و أكل الولد التفاحة، وشرح المعلم الدرس...

فهذه أمثلة تقليدية جافة، غير توجيهية، وتفتقر إلى التنوع في المضمون الثقافي والحضاري، اُختيرت في عصر يختلف عن عصرنا ولأهداف تخالف أهدافنا[23] و عليه فمن الإساءة إلى النحو، و إلى اللغة العربية أن يظل الدارسون ؛ معلمون ومتعلمون متمسكين بتلك النماذج المصطنعة الجوفاء، ومعتمدين عليها في التعليم.

ويجتهد بعض المدرسين في تنويع الأمثلة وإثرائها، فيحاولون التحرر من قيود النماذج التي تضمنتها الكتب المقررة، ولكن كثيرًا ما يجد معلم اللغة العربية نفسه، ودون ما شعور منه، أسير الأمثلة التقليدية الموروثة، فلا يستطيع التخلص منها، والخروج عنها، وإن اجتهد وحاول ذلك، وقد يأتي بعضهم بأمثلة غير مستقيمة[24]، وهذا دليل واضح على قلة الزاد اللغوي والمعرفي والثقافي لبعض المعلمين.

4. الوسائل المعينة المستخدمة في تعليمية النحو :

تعد الوسائل التعليمية جزءاً لا يتجزأ من المناهج الدراسية، فهي كما تؤكد البحوث والتجارب وسائط تربوية وأدوات توضيحية مفيدة جدًا، و بخاصة إذا أحسن المربون اختيارها وتوظيفها[25].

فبالإضافة إلى مساهمتها الإيجابية في تثبيت المعلومات، وتسهيل عملية استرجاعها، توضح المفاهيم، وتشخص الحقائق، وتوفر الجهد، فتجعل المفاهيم المجردة لدى الدارسين محسوسة، والمعقدة بسيطة، والغامضة قريبة... ولذا يرى بعض اللسانيين أن أحسن الطرق التربوية لتحصيل النحو النظري، وتفادي النص المسهب الذي يصعب حفظه، هي التي تقدم معلوماته وقوانينه على شكل رسوم بيانية بسيطة، يشار فيها إلى العلاقات والعمليات بالرموز[26] والجداول والسهام والأقواس والمشجرات[27] والألوان. فما هي منزلة الوسائل التربوية المعينة في دروس القواعد؟

من بين الصعوبات الكبيرة التي يواجهها معلم اللغة العربية في تدريسه لمادة النحو، عدم توفر الكتاب المدرسي الجيد[28]، في محيط يزخر بالوسائل والمعينات المختلفة. فالواقع يثبت أن كتب النحو ومقرراته تعاني من فقر كبير في الوسائط التربوية مقارنة بكتب النحو في اللغات الأجنبية التي تظهر في صورة عصرية جذابة[29].

فالشكل التقليدي المنفر لكتب النحو المدرسية أفقدها كثيرًا من الجاذبية والتشويق لدى الدارسين، معلمين و متعلمين. فصورة الكتاب، عمومًا، لا تفتح شهية التلميذ ولا تُغريه بالاطلاع عليه، والاستزادة من معلوماته، ولا يستطيع المتعلم استغلاله و الاطلاع عليه ومراجعته بمفرده. فهو كتاب رديء من حيث

الإخراج والطباعة. والمعروف أن شكل الكتاب له دور كبير في الفهم، وفي جذب الدارسين إليه، أو انصرافهم عنه.

وعلى العموم فإن التحريات الميدانية التي قام بها بعض الباحثين حول كتب النحو المدرسي في الوطن العربي أثبتت أن هناك ضحالة وفقرًا واضحًا في الرسوم والجداول والصور والألوان[30]، والجدول الآتي يوضح ذلك :

الوسائل المعينة في كتب القواعد النحوية في بعض الأقطار العربية في مراحل التعليم العام

الأقطار العربية	المرحلة	الكتاب	نوعية الوسائل المعينة في الكتب
الأردن	ابتدائي إعدادي ثانوي	5 _ _	صور غير ملونة في النص، وبعض الصور في التدريبات لا وسائل معينة في كتبها لا وسائل معينة في كتبها
تونس	ابتدائي ثانوي	_ 1 2 3 – 4	لا وسيلة معينة صور غير ملونة في بداية كل درس، والأمثلة لونت بالأحمر، وبعض المفردات في القاعدة وبعض الكلمات في التمرينات لونت كذلك بالأحمر. لا وسائل معينة.
الجزائر	متوسطة ثانوي	_ _	لا وسائل معينة. لا وسائل معينة.
الأقطار العربية	**المرحلة**	**الكتاب**	**نوعية الوسائل المعينة في الكتب**

سورية	ابتدائي إعدادي ثانوي	5 6 _ _	صور غير ملونة في النص، وبعض الصور في التدريبات بعض الجداول لا وسائل معينة لا وسائل معينة
العراق	إعدادي	_	لا وسائل معينة
مصر	ابتدائي إعدادي ثانوي	_ _ _	صور غير ملونة لا وسائل معينة لا وسائل معينة
المغرب	ثانوي	_	لا وسائل معينة

يتضح من خلال الجدول السابق أن الوسائط التربوية المعينة في كتب النحو المدرسي المقررة بمراحل التعليم العام تتمثل في :

1. الخطوط الحمراء التي وظفتها بعض الكتب لتمييز الشاهد أو العناصر النحوية والصرفية المستهدفة من الدرس، أو لتأطير القاعدة[31].

2. الصور غير الملونة التي تلازم نص الانطلاق في بعض الكتب أو التمارين اللغوية. وللإشارة فإن بعض هذه الصور مبهمة غامضة لا معنى لها، و ليس لها أية فائدة تربوية في الدرس[32].

ومن الحقائق التي ينبغي الإشارة إليها ونحن بصدد الحديث عن منزلة الوسائط التربوية من دروس النحو، أن شكل تلك الدروس في بعض الكتب الحديثة جدًا لم يعرف تجديدًا ملحوظًا منذ عقود، نستنتج ذلك من خلال موازنة سريعة لموضوع واحد هو "باب المفرد والمثنى والجمع " في مقررين نحويين مختلفين، الأول قديم، والآخر معاصر، هما:

– كتاب الصرف العربي لتلاميذ السنوات الأولى والثانية والثالثة من التعليم الثانوي[33]، (طبع سنة 1967).

– كتاب قواعد اللغة العربية للسنة السابعة أساسي (نشر سنة 1999–2000)[(34)].

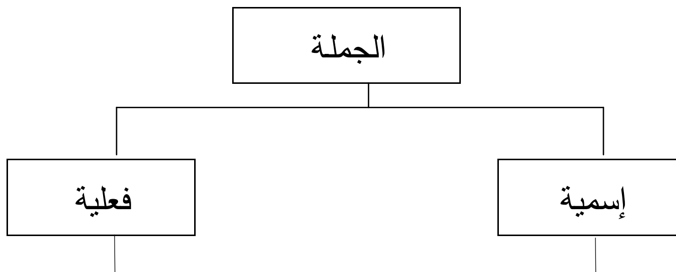
وليس غرضنا إجراء دراسة تقابلية بين الدرسين من حيث المستوى والمحتوى[35]، إنما أردنا التنبيه إلى نقطة جِدّ مهمة تتمثل في الملاحظة التالية: أن الدرس المقتبس من الكتاب المقرر في الستينيات لا يختلف في شكله اختلافًا جوهريًا عن الدرس الذي ورد في المقرر الحديث، فلا نلاحظ أي تجديد أو تطوير على مستوى وسائل الإيضاح التربوية. فلا وجود للألوان التي تميز القاعدة الجزئية أو الكلية، أو العناصر النحوية والصرفية المستهدفة من الدرس، ولا وجود للأسهم والأقواس المساعدة على تبيين العلاقات، ولا وجود للصور والجداول والمشجرات التي تقرب موضوعات النحو وتلخصها. وباختصار لا وجود للوسائل المعينة التي ترسخ المفاهيم وتثير التشويق.

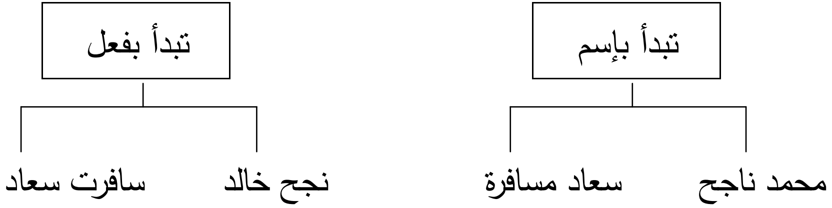
والمتصفح لهذين الموضوعين المتشابهين يتعذر عليه التمييز بسهولة بين الوثيقة القديمة و الوثيقة الجديدة، لا سيما إذا نظرنا إلى الخطة العامة المقترحة في كل درس (إقرأ – لاحظ – اعرف – طبق). و بناء على ذلك يمكن أن نقول : " لا يستطيع باحث موضوعي أن يجد تقاربًا بين مستوى الكثير من كتب تعليم العربية، ومستوى كتب تعليم اللغة الفرنسية أو الألمانية أو الإسبانية على سبيل المثال. سواء من حيث المواقف التي تدور

حولها الدروس أم من حيث نوع المادة المقدمة، أم طريقة عرض هذه المادة، أم حتى شكل الكتاب وإخراجه"[36].

وللإشارة فإن النقص الواضح في استخدام الوسائل المعينة في تدريس مادة القواعد لا يلاحظ على مستوى الكتاب المدرسي فحسب. بل إننا نلمس، أيضًا وبوضوح، فقرًا في التقنيات والوسائل على مستوى الفعل البيداغوجي داخل القسم[37]. فمعلم اللغة العربية لا يملك في تدريس مادة النحو سوى الكتاب المدرسي والسبورة، ولذا فإن الضرورة تحتم عليه، باعتباره أكثر العناصر أهمية في الوسط التربوي، البحث عن الوسائل التي تساهم في تسهيل تعليم مادته، وبلوغ أقصى عدد ممكن من أهدافه. لأن وظيفة المعلم لا تتوقف عند حدود نقل المعلومات وتوصيل المعارف، بل الأهم من ذلك تمكين التلميذ من اكتشافها والقدرة على تنظيمها والتحكم فيها.

ولكي يجعل معلم اللغة العربية العناصر النحوية تترسخ لمدة أطول ينبغي عليه أن يجتهد لتوفير مزيد من الوسائل والتقنيات. فما يمنع مدرس القواعد من إعداد بعض الرسوم و الجداول البسيطة التي تلخص القاعدة أو القواعد الأساسية المستهدفة من الدرس، وتوضح الترابط بين العناصر أو الموضوعات، كأن يختم مثلا درس "الجملة" برسم ملون كالآتي[38] :





وبعد أن يدرك التلاميذ هذه القاعدة في صورتها السطحية جدًا يُقدم لهم النوعين (الجملة الاسمية والفعلية) على شكل جدول استبدالي كما يلي:

		العاقل	
يجتهد		الذكي	
ينجح	التلميذ	المجدّ	
يسافر	الرجل	المتفوق	↕
......	الولد	....	
	الأستاذ		
	....		

	العاقل		
التلميذ	الذكي		
الرجل	المجدّ	يجتهد	
الولد	المتفوق	ينجح	↕
الأستاذ	....	يسافر	
....		....	

....

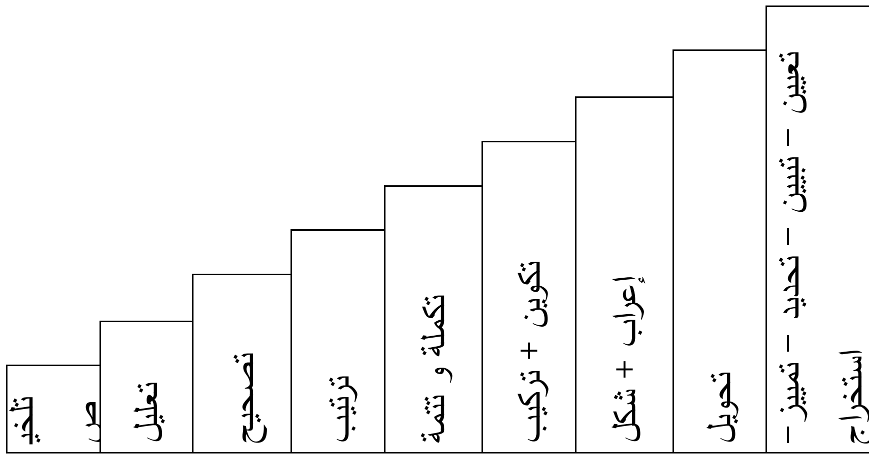
وللإشارة، فإن الجداول التحويلية والتفريعية، التي تقوم على العمليات الحملية (حمل الشيء على نظيره) بين الجمل الأصول (النواة) والجمل المتفرعة عنها، هي كل شيء في تدريس مادة القواعد النحوية.

إن هناك علاقة وطيدة ببن نجاح المعلم في مادة معينة ومستوى اهتمامه بها. وما يلاحظ على الأغلبية المطلقة من مدرسي اللغة العربية حاليًا أنهم أبعد من أن يكونوا مستعدين لأداء هذا الدور[39] المتمثل في التجديد المستمر في دروسهم شكلا ومضمونا. فالضعف اللغوي الذي هو عليه نسبة كبيرة منهم، والنقص الفادح في تكوينهم العلمي والبيداغوجي، وانعدام العناية بالتدريب المستمر أثناء الخدمة (الدورات التحسينية) وضعف التأطير والتوجيه...كلها مُعوَّقات تمنع من الإبداع والتجديد المستمر.

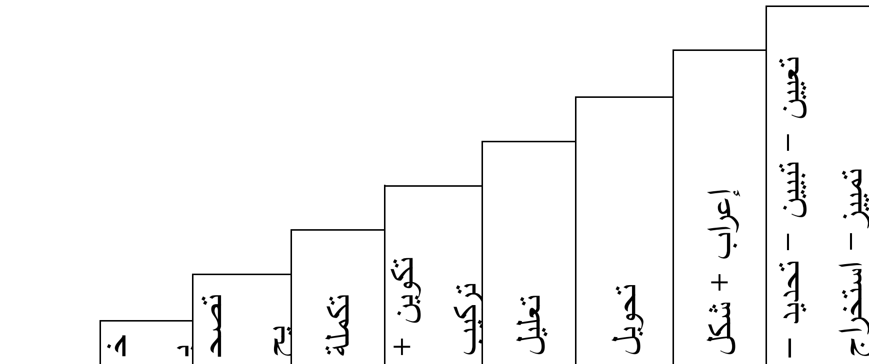
5. التمارين ومنهجية الترسيخ[40] :

التمارين اللغوية نشاط تربوي أساسي لا يمكن الاستغناء عنه في أي طريقة تعليمية، مهما كانت منطلقاتها واختياراتها اللسانية والمنهجية[41]. فهي الطريق الطبيعي والمختصر لتكوين الآليات أو المهارات الصحيحة، والأداة المفيدة جدًا لقياس مردود التعليم ونتائجه. كما أنها وسيلة للكشف عن نواحي القوة والضعف عند المتعلمين. فهي، باختصار، المحرك الأساسي في تعليم اللغة واكتسابها[42]، لأنها تمثل الجانب العملي الإجرائي الذي يُعد أهم خطوة في تنفيذ الدرس[43].

إن اطلاعنا على حصيلة التمارين التي تضمنتها كتب النحو المقررة في مراحل التعليم العام أثبتت لنا شيوع أنواع كثيرة أهمها : التعيين والتبيين، والتمييز، والتحديد، والاستخراج، والتحويل، والإعراب، والشكل، والتكوين، والتركيب، والتكملة والتتمة، والترتيب، والتصحيح، والتعليل والتلخيص[44]. فمثلا في كتاب السنة السابعة أساسي نلاحظ أن تمارين القواعد تشيع بحسب الترتيب الآتي[45] :



ويختلف هذا الترتيب اختلافًا طفيفًا في كتاب السنة الثامنة أساسي إذ نلاحظ أن شيوع التمارين جاءت على الشكل التالي[46] :



								ترتيب

والجدير بالملاحظة في التمارين التي احتوتها كتب النحو المدرسي[47] هو اشتمالها على نماذج جديدة لم تكن موجودة في المقررات القديمة[48]. وتظهر هذه التمارين بوضوح على مستوى مرحلة "عبِّر"، وهي خطوة إجرائية في درس القواعد[49]، تتضمَّن مجموعة من التمارين الحديثة[50] التي تهدف كما يقرر المؤلفون[51]، إلى تحقيق أهم أهداف تدريس النحو، وهو خدمة التعبير بشكليه المنطوق والمكتوب[52]. وتتمثل هذه المجموعة في النماذج الآتية :

5 .1. تمرين صحح الخطأ :

في هذا النوع من التدريبات، يتعمَّد مؤلف الكتاب ارتكاب أخطاء نحوية أو صرفية أو إملائية، ثم يُطلب من التلميذ اكتشافها وتصحيحها مثال[53] :
"صحح الجمل التالية بوضع المفعول به في موضعه اللائق به" :

1. تريد أيَّ كأس ؟
2. أصابَ جرَب شديد الأسدَ.
3. خَيَّرْتُ نفسي الأمور الأربعة التي يطلب الناس إيَّاها.

5. 2. تمرين البحث في المنجد :

الهدف من هذا النوع من التمرينات تهيئة التلاميذ لاستعمال المعجم، وتعويدهم على ذلك. كأن يُطلب من المتعلم أن يستعين بالمعجم ويبحث عن صيغ معينة أو كلمات، مثل :

استعن بالمعجم في البحث عن مضارع الأفعال التالية : (جَمَدَ، سَرَقَ، طَرِبَ، شَهِدَ، لَمَعَ)، ومن ذلك أيضا، البحث في المنجد عن مصادر الأفعال التالية (هَجَرَ، فَاتَ، سَرِعَ، سَاقَ، نَزَل)[54].

5. 3. تمرين التلخيص :

يندرج هذا النوع ضمن تمارين "تحضير شرح النص" أو "تحليل النص والتعليق عليه"، ويأتي دائمًا في نهاية التدريبات التي تذيَّل بها الدروس، إذ يكلف المتعلم بتلخيص نص الانطلاق (نص، حوار، قصة) في جمل محدودة[55].

5. 4. تخيلّ :

في هذا النوع من التمارين الإنتاجية يُطلب من المتعلم أن يتصور أقصى عدد ممكن من الأسئلة والأجوبة التي يمكن أن تجري في مقام معيَّن، ومن ذلك :

– ذهبت إلى حانوت لتشتري أدوات مدرسية، أو موادَّ منزلية، تخيَّلْ الأسئلة والأجوبة المناسبة لها.

– تخيَّل سؤالاً وجوابًا للأشخاص الموجودين بين قوسين : (الابن – الأب) (الأم – ابنتها)، (التاجر – المشتري)، (القاضي – المتهم) (المعلم – التلميذ)، مثل:

– الأب : أين كنت ؟

– الابن : كنت عند جدَّتي[56].

هذا النموذج الوظيفي التواصلي مفيد جدًا في تمرّس المتعلمين على الجانب المنطوق من اللغة، ولكننا لم نجد له أثرًا يذكر إلا في الدرس الأول من كتاب قواعد اللغة العربية للسنة السابعة أساسي[57]، ولا يُعلم سبب اختفائه وحذفه بعد ذلك.

5. 5. النقد :

لا يستطيع أحد أن ينكر التحسينات التي أُدخلت على مستوى التدريبات في كتابي قواعد اللغة العربية للسنة السابعة و الثامنة على الخصوص إذ نلاحظ، من حيث الكم، زيادة معتبرة في عدد التمارين التي ذُيّلت بها دروس النحو، حيث تجاوزت عشرة نماذج في كل درس، في حين بقيت على حالها في مقررات أخرى[58]. أما من حيت الكيف، فهنالك تنويع[59] في التمرينات على مستوى الدرس الواحد، وكذلك على مستوى عدد الدروس التي تكوَّن المنهاج. فلا نكاد نعثر على النماذج نفسها في كل الدروس، بل هناك تغيير ملحوظ في الشكل و المضمون، من درس إلى آخر. ونشير من ناحية أخرى إلى أن نتائج التحسينات المذكورة سابقًا محدودة جدًا مقارنة مع النقائص و العيوب التي مازالت تميز مناهج النحو عامة، و التدريبات اللغوية خاصة، إذ يلاحظ عليها :

أ. تعقيد و غموض، أحيانا، على مستوى الأسئلة والتعليمات[60].

ب. إهمال لمقياس التدرج في ترتيبها، فالتمرينات في المقررات تبدأ عادة بالشكل التحليلي، ويشمل كل تدريب منها على عمليات و صعوبات متعددة.

ج. اهتمام مفرط بالأنواع التحليلية التركيبية. فقد أثبتت لنا عمليات الإحصاء أن تمارين التعيين و التحديد والتمييز والتعليل والإعراب، تحتل الصدارة في بعض المقررات المدرسية[61]، والجدول الآتي يوضح ذلك :

نوع التمرين	تعيين /تمييز تبيين	تعليل	تحويل	تكوين	إعراب	تكملة	شكل
عدد التمارين	34	29	23	18	13	8	2
النسبة المئوية	% 26,77	% 22,83	% 18,11	% 14,17	% 10,23	% 6,29	% 1,57

يتضح لنا من خلا الجدول، غياب الأنواع الجديدة من التمارين كالتمارين البنوية (Les exercices structuraux) والتمارين التواصلية (Les exercices communicatfes). وتمارين الألعاب اللغوية Les exercices de (jeux)[62]... ويعني هذا أن الطابع التقليدي ما زال قائماً على مستوى الإعداد و التخطيط. ويظهر بوضوح على مستوى التنفيذ، أي على مستوى تأدية المعلم لتلك التمرينات داخل القسم. فقد لوحظ فقر كبير لدى المدرسين من حيت الأساليب والإجراءات والتقنيات الحديثة التي أُدخلت منذ عهد قريب على التمارين اللغوية بشكل عام. فعلى الرغم من اشتمال بعض الكتب المدرسية على مجموعة مفيدة جدًا من التمارين التقليدية كالتحويل مثلا، إلا أننا لم نسجل ابتكارات جديدة على مستوى إجراء المدرس لها.

فَفُرَصُ التمرُّس التي تُتاح للمتعلم قليلة، والكم الذي يقدم له كذلك ضَئيل جدًا، وحتى هذا الكم الضئيل، هدفه اختبار المعرفة النظرية لدى المتعلمين، ولذلك لاحظنا اهتماما مفرطًا داخل القسم، ببعض الأنواع على حساب أنواع أخرى أهم. فالتمارين المعروضة في الصف، جلها كتابي تحليلي، يُجرَى بطريقة فردية، الاهتمام فيها قائم على تحديد العناصر وتمييزها وليس على تنمية مهارة التبليغ، و لذلك كانت نتائجها العملية ضعيفة المستوى، قليلة الغنى، لا سيما في الجانب الوظيفي الاستعمالي للغة العربية.

إن الخطأ الذي تقع فيه معظم البرامج المدرسية، بما فيها طريقة المعلم، هو الإصرار على حشوها بالدروس النظرية التي تنتهي بالمتعلم إلى معرفة قواعد النحو دون اكتساب اللغة، ثم نسيان الطابع التطبيقي الذي يضمن للطفل اكتسابا ناجعا للغة المنشأ في محيطها الاجتماعي[63].

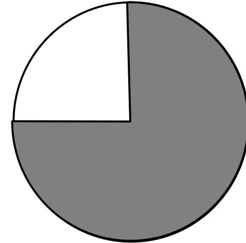
وبصورة عامة يوجد تقصير وتهاون بالعمل الترسيخي المنظم المستمر، مع أن المرحلة الترسيخية هي من أهم المراحل وأخطرها في عملية الاكتساب والتعلم. وقد أشار "ابن خلدون" إلى نتائج هذا التقصير على الملكة اللسانية. فقال، مقارنًا، بين ثلاثة أنواع من تعليم الملكة اللسانية؛ تعليم المشارقة وتعليم المغاربة وتعليم الأندلسيين: "... وأما المخالطون لكتب المتأخرين، العارية من ذلك (أي شواهد العرب وأمثالها). إلا من القوانين النحوية، مجردة عن أشعار العرب و كلامهم، فقلَّما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو ينتبهون بشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم حَصلوا على رُتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه، وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب

إلى تحصيل هذه الملكة و تعليمها ممن سواهم، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم. والتفقه في كثير من التراكيب في مجالس تعليمهم (...) و أما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية و غيرهم، فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا، و قطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب، إلا إن أعربوا شاهدًا أو رجحوا (معنى) من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتركيبه. فأصبحت صناعة العربية (عندهم) كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية والجدل، وبَعُدَت عن مناحي اللسان وملكته (...) وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه، وتمييز أساليبه، **وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان**"[64].

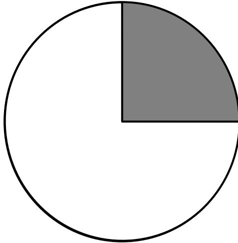
المران يُولِّد القياس وينميه ويثبته عند المتعلم. ومعلوم أن اللغة كلها قياس، ولا يمكن تصور لغة بدون قياس. فالولد الصغير يتعلم اللغة بالسماع والمحاكاة، ويستنبط القواعد بمقارنة الأمثلة بعضها ببعض. والعربي الفصيح الذي لا يعرف القراءة والكتابة والمدرسة يُجيد لُغته لأنه يقيس ويقارن، وبذلك يرفع الفاعل وينصب المفعول، ويؤنث المؤنث، ويذكر المذكر، ولولا القياس لما تعلم أحد منا لغته الأصلية التي يستعملها يوميًا. وما نسميه سجية هو في الحقيقة قياس عفوي لا نشعر به.

ونظرًا لأهمية المران المنظم في تثبيت مثل النحو وأنماطه وتنمية القياس فإن اللسانيين يذهبون إلى أن قسطه من الدرس يجب أن يكون أوفر بكثير من حصتي العرض والإيصال[65]، كما في الرسم الآتي :

ما هو كائن



ما ينبغي أن يكون





الحصة المخصصة للعرض والشرح (حصة المعلم)

الحصة المخصصة للتمرين (حصة المتعلم)

يمكن القول، انطلاقًا من هذا المخطط، بأن هناك فرقًا شاسعًا بين طريقة تختم درس القواعد ببعض التمارين، وطريقة ثانية تؤسس درس القواعد (من أوله إلى نهايته) على التمارين[66].

6. خلاصـة :

إن أهم ما نستخلصه من خلال تحليلنا للمنهجية المتبعة في تدريس مادة النحو، وواقع تأدية المعلم لها داخل القسم، هو الفجوة الكبيرة بين الأهداف السلوكية المنشودة والمتمثلة في خدمة التعبير بشكليه الشفوي والكتابي[67]، والنتائج المحققة على أرض الواقع التي تشير إلى عكس ذلك.

فالواقع يثبت أن الطريقة المتبعة في تدريس مادة القواعد لا تخرج عن العرض المباشر، و الدليل على ذلك الخطاب النحوي للمدرسين داخل القسم، الذي يظهر من خلاله التركيز على الجانب المعرفي النظري، والتهاون بالجانب المهاري الوظيفي، علمًا أن أفضل أشكال تعليم النحو هي تلك التي تتعدى حدود الحفظ والاستيعاب للمعلومات، والقدرة على تحليلها وتفكيكها إلى تنمية القدرة على

توظيفها و ممارستها في الخطاب والتبليغ، وهيهات أن تنجح دراسة النحو دون تدريب وتطبيق!

إن اللجوء المستبد من قبل المعلم إلى العرض الصريح، والتعريف النظري بالقواعد النحوية، و التهاون في آن واحد بالعمل الترسيخي المنظم المستمر الذي يجعل التلميذ يدرك بنفسه هيئات التركيب (مواقع المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والمجزومات...)، وما يحتويه الكلام من المباني والمعاني بدون وساطة التعريفات المجردة لدليل واضح على التأثر السلبي للطريقة التعليمية بالتصورات المشوهة التي مازال كثير من المربين والمدرسين يحملونها عن طبيعة النحو والغرض من تدريسه، علمًا أن وضوح هذا الهدف له أهمية كبيرة في جعل تعليم النحو أكثر فائدة وأقل عناء بالنسبة للمعلمين والمتعلمين.

وباختصار، فإننا لم نلاحظ تغييرات جذرية على مستوى منهجية العرض، وإجراء التدريبات، واختيار الأمثلة، وتوظيف الوسائل والمعينات، وشروح المعلم... والتغييرات التي حدثت على مستوى تلك العناصر، سطحية جدًا، مست الجانب الشكلي ولم تصل إلى الجوهر.

الهوامش

---

1. بلومفيلد، اللغة، عن : H. Besse / R. Galisson ; polémique en didactique ; P.114.

2. لا يوجد اتفاق على نقطة البداية في تدريس القواعد النحوية، ولا يوجد أيضًا اتفاق من حيث بداية تخصيص كتاب مستقل لهذه المادة. فبعض البلدان العربة تبدأ في تدريس القواعد بطرق سطحية جدًا ابتداء من السنة الثالثة، وبعضها من السنة الرابعة، وأخرى

من السنة الخامسة والسادسة، وكذلك كتاب القواعد المستقل فبعض الدول تخصص كتابًا للنحو ابتداء من السنة الثالثة وأخرى من السنة الرابعة، والجزائر مثلا تخصص كتابًا مستقلا بداية من السنة السادسة. وهناك من يؤجل ذلك إلى السنة الأولى إعدادي. انظر، محمود أحمد السيد، تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص: 160 – 164.

3. المرجع السابق، ص : 114 – 119.

4. انظر على سبيل المثال، المختار في القواعد والبلاغة والعروض، السنة الأولى والثانية ثانوي، المعهد التربوي الوطني، الجزائر.

5. انظر على سبيل المثال، مقرر النحو العربي من خلال النصوص للسنة الأولى من التعليم الثانوي وزارة التربية القومية، نشر الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1986.

6. تُعرف هذه الطريقة في الأوساط التربوية باسم "طريقة هربارت" المربي الألماني الذي حدد لها مراحل السير التي سُميت بخطوات "هربارت" الأربع وهي : المقدمة أو التمهيد، الربط أو الموازنة، الاستنباط ثم التطبيق. وقد جاء بعد "هربارت" نفر من تلاميذه المربين فجعلوها خمس خطوات، هي المقدمة والعرض والربط والاستنباط والتطبيق. إن هذه الطريقة التي لم يتجاوزها التعليم عندنا، تُعد طريقة تقليدية جدًا بالنسبة للدول المتقدمة التي هجرتها منذ زمن بعيد.لمزيد من المعلومات انظر د. حسن شحاتة، المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1998، ص : 104–107. وعبد الحميد فايد، رائد التربية العامة وأصول التدريس، دار الكتاب اللبناني، ط 2، بيروت 1975، ص: 55–56.

7. انظر مقرر اللغة العربية للسنة السابعة أساسي، تأليف مجموعة من الأساتذة، المعهد التربوي الوطني، الجزائر 1999–2000، ص: 4.

8. المرجع نفسه.

9. الواقع أن البحوث التي تناولت موضوع الخطاب النحوي للمعلم داخل القسم نادرة إن لم تكن معدومة. وللإشارة فإن هذا الموضوع الميداني جدير بالدراسة والبحث. انظر :
Claude Germain/Hubert Séguin ; Le point sur la grammaire, CLE International, paris;1998; P166.

10. لاحظ بعض الباحثين أن الخطاب النحوي المنطوق عند بعض المعلمين يختلف عن النص المكتوب. يقع المدرس في ذلك وهو يسعى إلى التبسيط والتوضيح والتكييف... انظر المرجع نفسه، ص : 165 – 166.

11. وردت هذه الملاحظة في كتاب السنة السابعة أساسي بعد تعديله، انظر ص5.

12. Claude Germain; Hubert Seguin, Le point sur la grammaire, P157-158.

13 H. Besse / R. Galisson, polémique en didactique, CLE International, paris; p:114.

14. د/ رشدي أحمد طعيمة، دليل عمل في إعداد المواد التعليمية لبرامج تعليم العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1985، ص 186.

15. معظم معلمي اللغة العربية، لا يدركون بدقة ما هو أساسي جوهري في تعليم مادة النحو وما هو ثانوي و هامشي، ذلك أن التكوين العلمي والبيداغوجي الذي تلقَّاه معلم اللغة العربية لا يؤهله للقيام بتلك العملية، هذا ما أقرته معظم الأجوبة التي تحصلنا عليها من خلال السؤال الذي طرحناه على مجموعة من المدرسين: هل تعتقدون أن أساتذة اللغة العربية ومعلميها يدركون بدقة ما هو أساسي في تعليم النحو، و ما هو ثانوي و هامشي؟

16. د. الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات، العدد 4، الجزائر، 1973–1974، ص : 67–68.

17 W.F.Mackey; Principes de didactique analytique; P27.

18 Claude Germain /Hubert Seguin Le point sur la grammaire, P:199.

19. الواقع أن الشعور بقصور طرق التعليم عن تحقيق الأهداف المنشودة من مادة النحو، هو شعور موجود لدى كثير من المربين العرب، فقد انتهت بعض الدراسات الاستطلاعية في مادة النحو أن 68,2 % من المعلمين يرون ضرورة تغيير منهجه. انظر، د. رشدي أحمد طعيمة، الأسس العامة لمناهج تعليم اللغة العربية، إعدادها، تطويرها، تقويمها، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1998، ص 37.

20. د. أمين الكخن، دليل أبحاث ميدانية في تعليم اللغة العربية في مرحلة التعليم الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1992، ص: 52–82.

21. د. محمود أحمد السيد، تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية، ص: 122- 128.

22. على الرغم من الثراء الموجود في الأمثلة والنصوص في بعض الكتب النحوية، إلا أنها في بعض الأحيان تبدو أكثر من المستوى اللغوي والعقلي للتلميذ، ففي درس الفعل اللازم والمتعدي الموجه للمرحلة الابتدائية، نجد إلى جانب الأمثلة المعاصرة البسيطة التي وردت في ... الدرس "كمَنَحَ المعلم المتفوق جائزة" و"نام الولد" و"أنبأ المدير المتفوق نجاحه مضمونًا"، نجد إلى جانب ذلك أمثلة صعبة كالآية (**وإذْ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب**)، والبيت الشعري :

نَسَجَتْ عليها العنكبوتُ خيوطَها   وَكَسَا الغبار غلالة تَكْسُوهَا.

وهو بيت " لأبي ماضي " يصف آلة موسيقية. فكيف يستطيع تلميذ المرحلة الابتدائية أن يدرك معنى البيت أو الآية. انظر : الكتاب المرجع في قواعد اللغة العربية لمراحل التعليم العام، تأليف مجموعة من الأساتذة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1996، ص 54.

23. لقد كان الغرض من كثير من الأمثلة التراثية القديمة استنباط القاعدة أو تأييد رأي أو مذهب وليس التعليم.

24. من ذلك مثلا قول بعضهم عند تدريس المفعول المطلق أو أسلوب الاستفهام : كتب الأستاذ الدرس كتابة، ورفع البطل الجمْل رفعًا، و أَ جَاءَ زيد أم عمرو و أ نجح خالد أم مصطفى... فهذه الأساليب و ما شابهها غير مستقيمة.

25. د. عبد الفتاح البجة، أصول تدريس العربية. بين النظرية و الممارسة، المرحلة الأساسية الدنيا، دار الفكر، عمان 2000، ص 594.

26. د. الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، ص 72.

27. Fréderic François, L'enseignement et la diversité des grammaires, Hachette, Paris 1974, P209.219

28. هذا ما صرح به بعض المدرسين عندما أجرينا حوارًا معهم حول موضوع إشكالية تدريس النحو في مراحل التعليم العام.

29. انظر على سبيل المثال :

- M.L. Chalaran ; R. Roesh ; la grammaire autrement sensibilisation et pratique PUG (presses universitaires de Grenoble) ,2000
- D.ABRY / M.L. Chalaran ; la grammaire des premiers temps ; PUG, 2000

30. د. محمود أحمد السيد، تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية، ص: 129 – 130.

صرح لنا أحد المعلمين قائلاً : إن الفرق بين الكتاب الجيد والكتاب الرديء (طبعًا من حيث الإخراج) كالفرق بين الفيلم أو الشريط الملون وغير الملون (الأبيض والأسود).

31. انظر على سبيل المثال النحو العربي من خلال النصوص للسنة الأولى من التعليم الثانوي، تأليف مجموعة من المعلمين، وزارة التربية القومية، الشركة التونسية للتوزيع مارس 1986.

32. انظر : المرجع السابق وكذلك كتاب القواعد وتمارين اللغة للسنة السادسة من التعليم الأساسي، وزارة التربية الوطنية، الجزائر 1999،2000.

33. الدار التونسية للتوزيع، تونس 1967.

34. المعهد التربوي الوطني، الجزائر، 1999–2000.

35. انظر، محمد صاري، واقع المحتوى النحوي في الكتب والمقررات المدرسية؛ تحليل ونقد، مجلة التواصل، العدد 8، جامعة باجي مختار – عنابة، جوان 2001.

36. د. رشدي أحمد طعيمة، دليل عمل في إعداد المواد التعليمية لبرامج تعليم العربية، ص 32.

37. في حين نجد أن النحو يدرس حاليًا (في الدول المتقدمة) باستعمال جهاز الفيديو والنصوص الأصيلة. انظر : Marie -Christiane Fougerouse; L'enseignement de la grammaire en classe de français langue étrangère ; ELA; Didier N°122.Paris P.174

38. وَجَّه الباحث السؤال الآتي لمجموعة من المدرسين : ما رأيك لو استعان القائمون على إعداد برامج النحو وتنفيذها ببعض التقنيات المدعمة كالجداول والرسومات البيانية والمشجرات والألوان...الخ فكانت النتيجة، أن 74% من الإجابات تتوقع فائدة عظيمة وعصرنة في دروس النحو، لا سيما في مراحل التعليم العام.

39. ورد في جريدة (Liberté) الصادرة يوم 1 أفريل 2001 أن 77,3 % من أساتذة التعليم الأساسي لهم مستوى السنة الثالثة ثانوي، وأن 39,6 % يتمنون تغيير الوظيفة.

40. انظر العدد الخاص بالتمارين في مجلة، Etude de linguistique appliquée N° 48 ; oct/dec 1982

41 G.Vigner ; L'exercice en français langue étrangère ; Etude de linguistique appliquée N° 48 ; P71

42.كما يذهب إلى ذلك علماء النفس واللسانيون أمثال: "سكينر" و"بياجيه"و"روبير قاليسون "... انظر: H.Besse/ R.Porquier; grammaire et didactique des langues, LAL, Hatier, Didier, 1991 ; P123

43. فهي بالنسبة لأنصار النحو الضمني، وسيلة لتعويض الشروح النحوية المطولة التي أرهقت كاهل التلاميذ والمعلمين. انظر المرجع نفسه، ص 119.

44. انظر مقررات النحو التالية: مقرر السنة السابعة والثامنة والتاسعة أساسي والسنة الأولى والثانية ثانوي.

45. انظر كتاب قواعد اللغة العربية السنة السابعة أساسي.

46. انظر مقرر السنة الثامنة أساسي.

47. انظر المقررات المدرسية المذكورة سابقًا.

48. التي ظهرت في الستينات والسبعينيات والثمانينيات.

49. لأن الدرس في هذه المقررات مكون من خطوات مرتبة على التدرج التالي : (إقرأ ثم اعرف ثم حلل ثم عبِّر).

50. ولكنها قليلة جدًا، فمجموعها العام لا يفوق عن نسبة1 % من مجموع التمارين الواردة في الكتاب.

51. الواقع أن مرحلة عبِّر لا تشتمل على تمارين تخدم التعبيرين الكتابي والشفوي بقدر ما تشتمل على تمارين تخص التحليل والإعراب.

52.كتاب القواعد للسنة السابعة أساسي، المقدمة، ص 4.

53. كتاب قواعد اللغة العربية السنة السابعة أساسي، ص 22، كذلك انظر كتاب السنة الثامنة أساسي، ص : 32 – 66 – 101.

54. قواعد اللغة العربية، السنة السابعة، ص 38، وكذلك السنة الثامنة ص 40.

55. قواعد اللغة العربية السنة الثامنة ص 33، كذلك، السنة السابعة ص 22.

56. كتاب قواعد اللغة العربية السنة السابعة أساسي، ص: 9–10.

57.عثرنا على نموذج يشبهه إلى حد ما في كتاب السنة الثامنة، في درس العدد والمعدود، ويتمثل في الآتي : أجب عن الأسئلة التالية ولا تنس أن تكتب الأعداد بالحروف، كم بلغت من العمر ؟ كم لك من اخوة و أخوات ؟.... ص 182.

58. ففي كتاب المختار في القواعد و البلاغة و العروض للسنة الأولى والثانية ثانوي لا يتجاوز عدد التدريبات في أقصى الحالات أربعة أو خمسة.

59. منها إدراج بعض التمرينات التي تهدف إلى التعليم والترويح، تُعرف بتمارين الألعاب، ومن ذلك مثلا : كون بيت شعر بالكلمات المبعثرة التالية : [رديء – أهله – الشعر – يموتُ – مِنْ – قَبْل] [قائله – يبقى – وَجيِّده – وإن مات] السنة السابعة أساسي ص 53.

60. أي ما يكلف التلميذ القيام به، ومن ذلك مثلا قول المؤلف : "في الفقرة التالية كلمات تحتها خط، صُغْ منها صيغًا مختلفة لفظًا ومعنى"، وعندما نعود إلى الفقرة لا نجد الكلمات مسطرة بل نجدها مكتوبة بخط سميك. انظر مقرر السنة السابعة ص: 15، ومن ذلك أيضًا السؤال الآتي: "رُدّ البيت التالي إلى أصله بتحويل اسم المفعول إلى فعل مجهول، والفعل المجهول إلى اسم مفعول.

إن الرسول لسيف مستضاء به * قد هُنِّد من سيوف الله قد سُلَّ

وهذا قمة التعقيد والغموض. انظر مقرر السنة الثامنة، ص 148.

61. عبد الله بن كريد، أحمد حساني، المختار في القواعد و البلاغة والعروض، السنة الثانية ثانوي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر 1986–1987.

62. J.Louis Chiss / J. Filliolet ; Des changements théoriques dans la linguistique au renouveau de l'exercice de grammaire, Étude de linguistique appliquée ; N° 48. oct-dec 1982.

63. فوجود الطفل بكيفية عفوية ومتكررة في حال خطاب معينة تكثر فيها القرائن (اللغوية وغير اللغوية) يستنير بها في عمليتي الفهم والإفهام، يجعله يتحكم في هذه اللغة بكيفية عجيبة ليس لها مثيل إطلاقًا.

64. ابن خلدون، المقدمة، ج 2، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 730.

65. د. عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات، العدد 04، ص: 76،73.

66. من خلال حضورنا لدرسين في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة "ستندال" بقرونوبل (فرنسا) لاحظنا أن أستاذ مادة النحو والصرف يعطي الأولوية للجانب الشفاهي من اللغة، ويعتمد اعتمادًا كليًا على طريقة التدريبات، فلا يزود المتعلمين بالقاعدة إلا نادرًا، يتم ذلك بعد إجراء سلسلة من التدريبات المكثفة. وقد تبين لنا نجاعة هذه الطريقة من خلال إشرافي على تدريس مادة اللغة العربية للمغتربين والأجانب في مركز التعليم المكثف للغات بجامعة عنابة ما بين سنة (1987، 1990).

67 . انظر مقدمة المؤلفين في كتابي قواعد اللغة العربية السنة السابعة والثامنة أساسي، ص 4.

إشكالية اللغة العربية والعولمة في ضوء البنية اللغوية وكيميائية التحول

د. مها خيربك ناصر
(الجامعة اللبنانية)

أولاً: كلمة ومفتاح

ترتبط حياة المجتمعات والأمم بثوابت قيمية قابلة للتفاعل مع عناصر الحياة الخاضعة، في نظام تكوينها، إلى تفاعلات متنوعة في مختبر التواجد الإنساني، ويتكرّس المنتج الجديد والمغاير ثوابت قابلة بدورها للتحريض والتوليد، بغية الحصول على معرفة جديدة تتجاوز المألوف، وتسهم في خلق حضارة إنسانية متمايزة ببنية عامة ممهورة بالتواصل المعرفي بين الأمم، وبسمات خاصة بالمختبر البيئي الذي احتضن عناصر التجربة المعرفية الجديدة؛ لأنّ الحضارة ليست نتاج أمة معينة، بل هي نتاج تفاعل فكري إنساني متجذر في القدم، ومتحرك في الحاضر والمستقبل.

تترسخ المعرفة الجديدة، في أشكال لغوية، تختزل شكل المنتج الكيميائي الجديد، فتحفظ اللغة جوهر المنتج وتصونه، وتنقله من حقل معرفي إلى حقل معرفي آخر؛ ليكتسب من كل حقل أنماطاً متمايزة في الظاهر، ومتوحدة في جوهر معرفيّ كونيّ شامل.

بهذه البدهيات العلمية، الحضاريّة، الإنسانيّة تمّ إنتاج الحضارة (العربية–الإسلامية–العالمية) التي صهرت المعارف العلميّة، والفلسفيّة، والثقافيّة، والحضاريّة، عند أمم كثيرة، في مختبر البيئة الفكريّة الحضاريّة الجديدة، وسجّلت النتائج بلغة عربيّة أثبتت قدرة متفوقة على احتواء إبداعات العقل اللامحدود، فاغتنت اللغة العربية بمفردات غريبة عن التداول الاجتماعي، ولكنّها لم تكن غريبة عن طبيعة تكوينها وخصائصها ومميزاتها.

تأثرت الحركات الفكرية الجديدة بالكمون الإبداعي، والمخزون الثقافي عند الأمم التي ساهمت في انبعاث حضارة مغايرة، فلم يقف غير العرب، أو غير المسلمين، موقف الخوف أو المعاداة أو الرفض لأشكال الثقافة الجديدة، بل كانوا فاعلين ومنفعلين في مسارات الحركات الفكرية المتنوعة والمختلفة؛ معينهم في ذلك الدعوة الإسلامية الإنسانية، المفعمة بالقيم الأخلاقية والثقافية والمعرفية، والمتعالية على التمايز العنصري والعرقيّ (لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى والعمل الصالح). أضف إلى ذلك ثقة الآخر بمخزونه الفكري، وانتمائه القومي، فلم يتخل العلماء عن نسبهم؛ لأنّ الإسلام لم يدعُ إلى إلغاء الآخر، بل منح المبدعين حرية القول، والعمل، والجدل الفلسفي، وحرية الدين والمعتقد، كونه دعوة إنسانية غايتها تحرير الإنسان من أشكال العبودية المادية، والارتقاء بالنفس البشرية إلى عالم المثل.

يشهد العالم، منذ سنوات، ظاهرة العولمة، التي تنبئ، في رأي بعض المفكرين، بـ (أمركة العالم)، اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، وربما إلى تهميش الشعور بالانتماء القومي وإلغائه، مما دفع بالدول الأوروبية إلى خلق قوة

اقتصادية تقف في وجه العولمة الاقتصادية؛ فكانت ولادة السوق الأوربية المشتركة، لأنّ القوة تُعزّز بالوحدة الجماعية. ولكنّ هذه الدول ظلت محافظة على احترام اللغة القومية التي تشكّل الوعاء الحقيقيّ للمنتج الفكريّ الثقافيّ خلال قرون لا حصر لها، وسعت كل دولة إلى تعزيز لغتها القومية، داخل البلاد وخارجها، فدعمت مراكزها الثقافيّة المنتشرة في العالم، مادياً ومعنوياً، وحرصت على إقامة أنشطة وندوات ومؤتمرات تهدف إلى تعزيز اللغات القومية.

أمام هذا الهجوم العنيف والسريع للعولمة، وقفت المجتمعات العربية في حالة سكون ودفاع سلبي، فغزت العولمة بيوتنا فكرياً، وإعلاميا، واقتصادياً، على الرغم من توهم بعض الدارسين بابتعاد العولمة عن واقعنا العربي، فالمعطيات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية تعكس تسلل العولمة إلى معظم جوانب حياتنا، ابتداءً من الرغبة في سيطرة اللغة الإنكليزية على لغة العلم، وعلى لغة التواصل اليومية بين الكبار والصغار، وانتهاء بتحويلنا إلى مجتمع استهلاكي لمظاهر العولمة في مناحي الحياة جميعها.

جسّد الاعتزاز بالمنطوق الأجنبي حالة تغريب عن اللغة القومية، فعكس العجز عن إتقان لغة العصر شعوراً بالنقص، وإحساساً بالعجزعن مواكبة التطور العلميّ والتكنولوجيّ، وبلغت سيطرة اللغات الأجنبية في بعض البلدان العربية درجة يعجز معها المتعلم معرفة اللفظ العلميّ، أو الأدبيّ، أو التداوليّ اليوميّ في اللغة العربية، وصارت المعرفة باللغة العربية، عند بعضهم، مرادفة للجهل والأمية.

إن التسلح بإتقان لغة الآخر أمر ضروري تفرضه مقومات الحياة المعاصرة، من جهة، ويؤكد عليه التفاعل الحضاري والمعرفي بين شعوب العالم، من جهة أخرى، ولكن احتقار اللغة الأم ينذر بكارثة ضياع، وبفقدان الهوية؛ لأنّ التخلي عن الانتماء القومي، والتنكر للأصل يهدد بخسارة الذاكرة الثقافية للأمة، وغيابها عن مستويات الفاعلية الحضارية، ومن ثم عجز أفراد الأمة عن مواكبة الحركات الفكرية الفاعلة على مسرح الوجود، وتكون النتيجة فقدان الكيان الذاتيّ والمعنويّ للقومية العربية.

تثير هذه الإشكالية جدلاً دائما بين الطلاب وأساتذتهم، وبين المثقفين أنفسهم، وتظهر النتيجة شكلاً من الهروب من واجب المحافظة على الذات القومية، والتخلي عن العمل على تعزيز الانتماء، فتُلقى التهم على اللغة العربية، لأنّها، في رأي معظم المتعلمين، غير قادرة على مواكبة التطور العلميّ والحضاريّ، ولا تستوعب المصطلحات العلمية الحديثة، ولا تساعد على فهم النظريات العلمية المتطورة، وهي، في رأي بعض دارسي العلوم الإنسانية، عاجزة عن التفاعل مع النظريات الألسنية الحديثة.

يستطيع المفكر الموضوعي أن يتبين أهمية اللغة العربية في تكريس مقومات الحوار الحضاريّ المعاصر، وأن يتلمس الدور الذي جسدته اللغة العربية في صهر المعارف الإنسانية وتدوينها، وأن يثمّن فضل علمائها في ترسيخ التفاعل المعرفيّ، وفي التأكيد على أهميته في تحديد مسار الحركات الفكرية العالمية.

ثانياً: اللغة العربية في مختبرات التبادل المعرفيّ

تمثل اللغة، في إيقاعاتها الخارجية، المقروءة، والمسموعة، استنطاقا للمضمر من بوح النفس المحتجبة وراء سر مجهول، يدفع بالأنا المبدعة الواعية ذاتها إلى محاكمة ما تبطن، فيأتي الإفصاح رمزاً لمرموز يبقى محجوباً في شكله الأمثل، و الذي لا نرى منه إلا الصورة اللفظية نطقاً أو كتابة؛ لأنّ" للألفاظ دلالة على المعقولات في النفس باصطلاح ووضع وشريعة".[1]

ولما كانت النفس البشرية المتوحدة في الجوهر والمتباينة في الشكل والممارسة، تتأثر بعوامل كثيرة، فإنّ اللغة الحية خاضعة، أيضاً، إلى مؤثرات تتفاعل معها، فينتج تغيرات في أشكال البنية اللغوية، كونها انعكاساً صادقاً عن حالات النفس البشرية، وتجسيداً لأنماط المنتج المخبريّ الفكريّ، الذي يتخذ من اللغة وسيلة تبليغ تتبني عملية الإفصاح عن درجة العقل ومرتبته في فهم الظواهر، فإذا كانت الوسيلة عاجزة عن نقل، وإيصال ماهية الرسالة الصادرة عن مختبر التفاعل بين المعقولات والظواهر، بسبب ضعف في أدوات التفكير اللغوي، فسد المنتج التعبيريّ، وأفسد معه فحوى التجربة الإنسانية، ومن ثمّ تعطلت الطاقة الكمونيّة المعرفيّة، وشُلّت قيمة الحوار التوليديّ الهادف.

لم تخسر اللغة العربية، في زمن نهضة العرب، قيمتها الحواريّة، أو طاقاتها الاختزاليّة المعرفيّة، بل أثبتت، عبر تاريخها، قدرتها على نقل ما ينتجه الفكر الإنسانيّ، وتكريس المنتج قيماً معرفيّة، تختزل عمليات التلقي والتأثير، وانعكاساتهما في مظاهر الحياة السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة والفكريّة والفلسفيّة والعلميّة، فتميزت اللغة العربيّة بالخصوبة

والحيوية والنمو، والتطور المؤسس على الأصول، وكان لها من ذلك ميزة التخلي عن الألفاظ غير القادرة على التواصل الاجتماعي، وترك الفاسد غير الخاضع لسنة التطور والتحديث، أو تغيير الدلالة مع ما تفرضه سنة التطور الاجتماعيّ والعلميّ، ولقد أورد "السيوطي" في كتابه" المزهر" الكثير من الألفاظ التي تغيرت شكلاً ومعنى[2]. ونقلت النصوص، العلميّة والأدبيّة، ما كان لليونان من أثر ظاهر في تطوير المعجم اللغويّ العربيّ، إذ تسربت إلى الجزيرة العربية عن طريق بلاد الشام بعض الألفاظ مثل وال "البرجد paragaude _ والزمرد – والياقوت – والقيراط – والأوقية – والبلغم – والقولنج – واللوبيا" وصارت في أصل المنطوق العربي، من دون أن يشعر المرسل والمتلقي بغرابة المفردات، لأنّ اللغة العربيّة تتمتع بخاصيتي الاكتساب والتطويع، وبقابليتها لاحتواء المعارف، و استيعاب العلوم، وتدوينها.

احتضنت اللغة العربية حصاد الفكر العربيّ، الذي خضع، في خلال رحلة الفكر اللامحدود، إلى مؤثرات داخلية وخارجية، بدأت بالتفاعل التجاريّ والحضاريّ والاجتماعيّ مع شعوب غير عربية، فأمدتهم التجربة الإنسانية القائمة على الحوار، والتبادل، و التفاعل بمفردات لم تكن في أصل المنطوق العربيّ، ونقلوا، أيضاً، إلى الآخر مفردات دخلت، مع حركة الزمان، في أصل لغتهم، فأثبتت اللغة العربية قدرتها على التأثر والتأثير، وأكدت على سلامتها و أصالتها، بقبول الكثير من المفردات غير العربية، وحافظت على مقوماتها بالرغم من تعدد اللهجات، التي لم يُحفظ منها إلاّ ما يتوافق وطبيعتها، و لا يتناقض وجوهرها و خصائصها.

أورد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" عبارات ممسوخة استخدمت في لغة الحديث اليومي، نتيجة ارتباط النطق بالعوامل البيئية، كقول تجار من أهل خراسان" وكما تجي تكون" أي "نحن نبيعها على وجوهها"، ورأى أنّ هذه العبارات لا تستمر، وهي غير قابلة للحياة، لأنها غير خاضعة لمنطق التراكيب اللغوية والبلاغية. ولهذه الأسباب عينها لم يُسجل نطق أبي مسلم الخراساني صوتًا عربيًّا أصيلاً، فأبو مسلم الخراساني، كونه فارسيًّا، ولا يوجد في المنطوق الفارسي حرف القاف، لم يستطع النطق ب "القاف" فكان يقول"كمر"بدل" قمر". وكذلك كان الأمر مع من كان أصله آراميًا، و لا يميز بين الدال والذال، فلم يتأثر أصل اللفظ العربي باللكنة، على الرغم من كثرة المستعربين، ولكنّ اللغة، في الوقت عينه، قبلت ألفاظا أعجمية، وحوّلتها، بفعل نظامها الصوتي والصرفي، إلى منطوق عربيّ، صار بعضه أكثر استخداماً من اللفظ العربي الأصيل، فكلمة "خيار" صارت أصلاً وألغت استخدام كلمة "القثاء"[3].

لم يجد اللسان العربي حرجاً من التلفظ بالأحرف الأعجمية، ولم يتهيب النطق بكلماتها، ولقد أثبت ابن سينا في رسالته"في أسباب حدوث الحروف"[4] أن خمسة أحرف من الحروف الأعجمية كانت معروفة في بعض القبائل العربية، ورأى سيبويه أنهم لم يضطروا إلى تغيير حروف الكلمات المنقولة، وتركوها على استخدامها الأعجمي، إذا لم يتعارض نظام الألفاظ وخصائص اللغة ، فقال في الكتاب: "ربما تركوا الحرف على حاله لم يغيروه"[5]، وإذا رأوا ضرورة لتغيير بنية الكلمة لم يتحرجوا من ذلك و"ربما غيروا البناء من الكلام الفارسي إلى أبنية العرب"[6]

تظهر الدراسات اللغويّة المنطقية والموضوعية ديناميكية اللغة العربيّة التي أكسبتها حركية فيزيائية وخصائص كيمائية، ساعدت في حفظ بذور الفكر العالمي وتخصيبه في مختبرات الفكر الإسلاميّ الإنساني، وذلك من خلال الطاقة الحركية الاشتقاقية والتوليدية التي أسهمت في رعاية عملية تخصيب العلوم، والمعارف العالميّة، في مختبرات لغويّة عربيّة، خمّرت المواد المعرفية، وفق ما تفرضه شروط التجربة، وما تتطلبه من وسط لغويّ سليم قادر على استيعاب المكونات وتحفيزها، و إعادة إنتاجها وتدوينها إرثاً حضاريّاً إنسانيّا كونيّاً شارك في صنعه عباقرة عرب وغير عرب.

لم يشعر العلماء العرب، وغير العرب، بالحرج أو النقص عندما عرّبوا ألفاظاً غير عربية، وطبّقوا عليها قوانين اللغة العربية، وجعلوها أصلاً يشتق منه، فدخلت كلمة "المنطق" اليونانية في أصل المفردات العربية واشتقوا منها كلمات أخرى لها دلالات فرضتها ضرورة التواصل الاجتماعيّ، والتطور اللغويّ والعلميّ، وكذلك دخلت المفردات العربية إلى الثقافات الأجنبية، عندما نُقلت العلوم العربية إلى اللغات الأخرى، التي ما تزال محتفظة بالمفردات العربية المنطوقة بلسان غير عربيّ، (الحشاشين assassin – الجبر algebre–مخزن magazin – الخيمياء Alchimie – الزهر hasard – الحشيش haschich) فأسهمت هذه الألفاظ في إغناء معجم الآخر المختلف.

كرّس الفكر الإسلامي عملية التفاعل اللغوي، منطوقاً لفظيّاً ثابتاً ومتبدلاً، فهو ثابت، من حيث ارتباطه بأصل جوهريّ، ومغاير، من حيث الصوت أو

الاستخدام أو الدلالة، فألغى ألفاظاً غير مستحبة؛ لأنها كانت تعبّر عن التراث الجاهلي وتقاليده وأفكاره، ومعتقداته، ككلمة (المرباع)[7]، وكلمة (الفضول)[8]، وأكسب بعض الألفاظ دلالات جديدة فاستبدل كلمة "تيم اللات" بـ "تيم الله"؛ فتوافق اللفظ مع روحية البيئة الجديدة الهادفة إلى تعزيز إنسانية الإنسان ، وتحفيز قدراته الفكريّة، وقدح كمونه العقليّ، بغية خلق حركة ترتقي بالنفس البشرية عن الماديات، وتسعى إلى التطوير والتجديد، وإلى المغايرة المؤسسة على قيم جوهرية تحرّض على الحركة، وتبقى محافظة على خصوصيتها، كونها أشبه بالأنزيم المحرض على خلق عمليات حيوية لا حصر لها؛ ولكنّها لا تقبل التبعيض ولا الإلغاء.

اقترن التطور الفكريّ والحضاريّ والعلميّ بتطور لغويّ، مفردات، ومصطلحات، وتقنيات لغوية؛ لأنّ المعاني تتغير والألفاظ أوعية المعاني، والتقنيات الحضارية المتطورة تخلق ألفاظاً جديدة تعبر عن المنتج الحضاريّ، وتحتضن دلالاته العلمية والثقافية والاجتماعيّة بكلّ أبعادها، لأنّ" اللغة فعل اجتماعي، من حيث أنها استجابة لحاجة الاتصال بين بني البشر، ثم هي، في النهاية، حقيقة تاريخية لا مراء فيها"[9]، ولذلك ارتبطت قيمة التقنيات اللغوية بقدرتها على استيعاب النمو والتبدل في أشكال الحضارة الإنسانية، التي تفرض تغيراً حتمياً في معاني الألفاظ ودلالاتها.

يفرض تطور الحياة المتواصل وجود لغة حية قابلة للتطور الذي يتجلى في شكل تعالق الحروف، وفي نظامها الصوتيّ، وفي استخدام المفردات ودلالاتها، وفي تركيب الألفاظ وترتيبها، وفق ما تفرضه بلاغة الجملة

وقوانين تشكلها الصرفيّة و النحويّة، ولقد طرح الجرجاني هذه القضية وحاول الإجابة عنها بعرض منطقيّ فقال:" إذا كانت الألفاظ أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أولاً أن يكون في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، فإما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرًا في نظم الألفاظ، وأن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لا أن تجيء بالألفاظ على نسقها"[10].

ترتبط حركية اللغة، إذًا، بطبيعة المختبر اللغويّ، وبأشكال استجابته وتأثره بحركة التاريخ والعوامل المحيطة به، فهذه الحركة تسهم في إحياء اللغة وتجديد دلالاتها، التي لا تتناقض ومفاهيم الحضارة الجديدة ومعطياتها الفكرية، وبهذه البدهيات نعلل دور المفاهيم الدينية الحضارية الإسلامية في تطور اللغة العربية دلالة وإيحاء، استخداماً وتركيباً.

أكدت عملية الاستقراء اللغويّ على تأثر اللغة العربية بالمفاهيم الدينية الإسلامية، وبخاصة أنّ اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ولغة رسوله (ρ)، الذي ساهم في إغناء مستويات الدلالات التواصلية، فلقد أكسب (عليه الصلاة والسلام) اللفظ المجرد قيماً جديدة، وأغنى التراكيب بتعدد دلالي، فإذا حاول الناقد الحديث أن يستنطق قول الرسول في فرس ركبه : "إنا وجدناه لبحراً"[11]، لعثر على دلالات وإيحاءات ورموز أكثر حداثة وإبداعاً مما يُصنف، اليوم، حداثيًّا. وأستطرد هنا لأقول إنّ في بلاغة القرآن وبلاغة الرسول دعوة صريحة إلى العقل العربي، ليتحرر من جمودية اللفظ، ويمنح التعابير جدة لا تبلى، ولكن المثقف العربي أغفل أهمية تطوير اللفظ وغنى

دلالاته، فسجن الألفاظ في استخدامات معجمية لا يُسمح بتجاوزها، وأباح حرمة قوانين اللغة العاصمة عن الخطإ والضياع، فكان أشبه بمن يعطي القيمة للجسد أكثر من الروح.

أثبت الواقع اللغوي أنّ حركة التأثر والتأثير في المراحل التاريخية المتعاقبة، ظلت فاعلة في العصور الأموية والعباسية، ونتج عن عملية التفاعل اللغوي، في مختبر البيئة الجديدة دراسات وعلوم تحفظ البنية النحوية، وتحرّض على الولادة والتجديد في البنية اللغوية، فشهدت العلوم العربية، العلمية والألسنية، تغيراً ملموساً في استخدام الألفاظ، وصارت في الشعر أكثر رقة، وأبعد دلالة، وبخاصة في العصر العباسي الرابع، حيث أخرجت الحضارة الجديدة المنطوق العربي من مختبر التفاعل الفكري صوتًا رقيقًا، شفافًا، قابلاً للحياة في الزمن الآتي، ومن ثمّ ركّبته في صور مستمدة من الواقع الفلسفيّ والعلميّ المتطور، فجاءت الأجساد النصية المبدعة ناطقة بالمؤثرات الفكرية التي خمرت الموروث الثقافي، وأخرجته بحلة أكثر جدة وملاءمة مع سمات العصر، وهذا ما أكسب شعر المتنبي حياة وخلوداً وجدة دائمة، وأكسب صوره غنى فكرياً منطقياً، فتمايزت قصائده بالجدل العقلي البرغماتي، إذ يقدم الفرضية ثم يبرهن على صحة الأفكار والآراء التي يرغب في تبليغها.

عرفت عصور الانحطاط والنهضة تأثراً بطيئاً، وما تزال هذه التفاعلات مستمرة، يعززها التواصل الحضاريّ والاقتصاديّ والعلميّ والأدبيّ، ويسعى إلى تسجيل هذا النتاج علماء يرغبون في نقل الفكر العلميّ، و أدباء محدثون يرغبون في خلق حوار ثقافي مع الآخر، في محاولات تهدف إلى

الاستفادة من منطوقه اللفظيّ؛ وإغناء المعجم العربيّ بمفردات جديدة، شأن الآخر الذي لا يتحرج من أخذ اللفظة العربية، وإدراجها في معجمه اللغويّ المسموع والمكتوب.

تصطدم عملية التعريب أو التوليد اللفظي بصنمية الجمود اللغوي المتوارث، وبرفض استخدام ما لم تنطق به العرب، من دون الاقتداء بحرية فكر الأقدمين في مجال التعبير وتوليد الألفاظ المرتبطة بسيرورة الحياة وحركتها، لأنّ فطرتهم قادتهم إلى حتمية العلاقة بين تطور الفكر وتطور اللغة، فلحظوا " عندما ينمو الفكر ويتطور يأخذ بيد اللغة معه ويطورها لتكون هذه اللغة خليقة للتعبير المتطور دائما المتطلع إلى الكمال، وهذا الفكر يحتاج في رحلته هذه إلى لغة لتعبر عنه، إذن لا بد لهذه اللغة من السمو والتطور إلى الدرجة التي تلتقي فيها مع الفكر"[12]

ما أحوجنا، اليوم، ونحن نستقبل أشكال العولمة، شئنا أم أبينا، إلى عملية نقد ذاتي لواقعنا اللغوي، فنمتلك الجرأة على قبول تطعيم اللغة بألفاظ غير عربية بعد أن نخضعها لقوانين اكتساب جنسية اللفظ العربي، من دون أن يتملكنا الخوف من فقدان صفائها ونقائها؛ فهي لغة التنزيل الكريم، وقد خصّها الله بسمات متميزة راسخة في الثبات، وقابلة للأخذ والعطاء والتفاعل والتجديد، شريطة ألاّ تُفرغ من مقوماتها وقوانينها الذاتية.

ثالثاً: خصائص المختبر اللغوي ومظاهره الكيميائية

تخضع اللغة في عملية إنتاجها إلى شروط القابلية والفاعلية، المرتبطة بعوامل خارجية تفرضها الظروف المؤثرة في كيفية تركيب المعادلات

اللغوية، من جهة، وبخصائص ذاتية كامنة في ذات العنصر اللغوي القابل للتفاعل، من جهة ثانية، فإذا كانت المقومات الذاتية لا تتمتع بالطاقة التحويلية، حافظت على جمودها، وتقوقعت في مفردات لا تكفي للتعبير عن حاجات النفس البشرية المتبدلة والمتطورة.

تميزت اللغة العربية بمزايا ذاتية ساعدتها على الاستفادة من الجذور الأصلية والدخيلة، وبرهنت على ثقة أبنائها بمقوماتها الذاتية، وبرغبتهم في بعث الحياة المتجددة في بنيتها، من خلال تطعيمها بألفاظ غير عربية، فاستعانوا بعملية الاقتراض اللغوي، التي تفرضها علاقات التفاعل الثقافي والحضاري، أو التجاور الجغرافي، أو التقارب التاريخي، فاقترضوا ألفاظاً من الحبشة واليونان للتعبير عن أشياء لم تكن موجودة في بيئتهم اللغوية، وعمد القدماء إلى تلك الألفاظ فحوروا من بنيتها، وأكسبوها نسيج الكلمات العربية، فكلمة، الصراط، كلمة لاتينية "ستراتا" وردت في القرآن الكريم، وكلمة" زوج" يونانية الأصل، وهي مرادفة لكلمة "بعل" دخلت اللغة العربية، وطُوعت بالاستخدام، لتصير أصلاً، يشتق منه مفردات تغني المعجم اللفظي والدلالي مثل (زوج –تزويج – زواج – مزاوجة)[13] وكلمة" السبت" المستخدمة رمزاً عن أحد أيام الأسبوع هي سنسكريتية الأصل (سوبتاس soptas)، وكلمة فلسفة جاءت من أصل يوناني (فيلسوف philosoph) التي تعني حب الحكمة، ثم توسع العرب في استخدامها، فوردت في كتب اللغة والعلم بصيغ مختلفة، مثل تفلسف، فلاسفة، هذا بالإضافة إلى الكثير من الألفاظ التي لا يشعر العربي عند استخدامها بعجمتها أو غرابتها عن شكل المنطوق اللفظي العربي؛ لأن اللغة العربية قادرة على هضم الألفاظ الأجنبية ومنحها

خصائصها الصوتية والدلالية والاشتقاقية، ومن ثم تُخضع هذه الألفاظ إلى قوانينها الصرفية والنحوية، وتُكسبها مقومات، وقوانين التشكيل الداخلي لبنية المنطوق العربي، "فاللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال، بالرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحايين، فالأصوات والتراكيب، والعناصر النحوية، وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتطور"[14].

اتسمت اللغة العربية بقابليتها للتطور الصوتي، والتطور الدلالي، وقابلية التطور سمة ذاتية في طبيعة تكوينها، وفي منطق تراكيبها وخصائصها، فكان لها من هذه المقومات القدرة على الاكتساب والتطويع، فجسّدت المظهر الأسمى لروح الطبيعة التي تبقى محافظة على مقوماتها الثابتة، على الرغم من المظاهر التغييرية الثورية في عناصرها، وكانت الشكل الأكثر تجسيداً للظواهر الاجتماعية المتبدلة والمتغيرة وفق حاجات المجتمعات، فهي كأي لغة "عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها: أصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها وتطورها هذا لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات، أو وفقا لإرادة الأفراد، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة، مطردة النتائج، واضحة المعالم، محققة الآثار، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغييرها ما تؤدي إليه. فليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطور لغة ما، أو يجعلوها تجسد على وضع خاص، أو يسيروا بها في غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي: فمهما أجهدوا أنفسهم في وضع معجماتها، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها، وضبط أصواتها وقواعدها...فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال، وتفلت من هذه القيود، وتسير في السبيل التي تريدها"[15]، فإذا كان الإنسان قادراً على إيقاف حركة الطبيعة الحية، يستطيع

أن يحدّ اللغة في استخدامات مسبقة ، وبخاصة إذا كانت طبيعة تكوين اللغة حركية، متمايزة بقوانين تشرح وتفسر مقومات عناصرها الحية القابلة للتوليد.

إن اللغة العربية لغة حية، والحياة تشترط النمو والتغير الطبيعي في اللفظ والدلالة والصيغة، ولذلك لا يمكن لأيّ لغوي، مهما علا شأنه، أن يعطل عمل اللغة العربية، أو يعرقل مسيرتها الحتمية والطبيعية، فالتطور طاقة كامنة في جينات هذه اللغة، لما تختزل في طبيعتها من خصائص تفاعلية توليدية، تجعلها قادرة على مواكبة حركة المجتمعات الإنسانية، لتسجيل منتج الفكر والحضارة. ومن بعض هذه الخصائص الكيميائية:

1. التبديلات الصوتية:

درس العرب القدماء علاقة اللفظ بالصوت، ووضع الشيخ الرئيس "ابن سينا" كتابا في "أسباب حدوث الحروف"، وتكلّم الفارابي عن سبب حدوث الأصوات، وأظهر كيفية تأليف المفردات من الأصوات المركبة" فهذه الحروف إذا جعلوها علامات أولاً كانت محدودة العدد.لم تف بالدلالة على جميع ما اتفق أن يكون في ضمائرهم، فيضطرون إلى تركيب بعضها إلى بعض بموالاة حرف حرفاً فتحصل ألفاظ من حرفين أو حروف"[16]، ولما كانت مخارج الحروف ترتبط بعوامل بيولوجية وعوامل بيئية وعوامل تاريخية وحضارية وتقنية فالألفاظ الصادرة عن الجهاز البيولوجي، الاجتماعي،و النفسي الحياتي، لابدّ من أن يخضع للتبدل وفق ما تفرضه العوامل المتنوعة

المتحكمة به، وهذا التطور يحدث ببطء، وبشكل طوعي من دون تدخل مقصود، لأنه نفسه، خاضع لمعادلات جبرية اجتماعية إنسانية، فكل تغيّر في حد المختبر البيئي، يحدث تغييرا في الصوت المنطوق، ولذلك ظهر الإبدال، والإعلال، والإمالة في اللسان العربي، ليتوافق المنطوق مع المحيط المنتج للصورة اللفظية.و هذه التبديلات الصوتية لا تحدث اعتباطيا، بل ترتبط بالمنطق العقلي العربيّ. فعندما أحدث العرب الإمالة في ألفاظهم توخوا سهولة النطق، وهذا ما برهن عليه سيبويه بقوله " تمال الألف إذا كان بعدها حرف مكسور، وذلك قول : عابد، عالم، ومساجد، ومفاتيح... إنما أمالوها للكسرة التي بعدها أرادوا أن يقربوها منها"[17] فكل تطور صوتيّ في اللغة مرتبط بتسهيل النطق فالإمالة تعكس نطق الفتحة الطويلة بلفظ وسط بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة، وهذه ظاهرة من ظواهر المماثلة، أي جعل نطق الصوت المتأثر بصوت أخر يظهر بمظهر صوتي مماثل، ولقد علل سيبويه عدم إمكانية الإمالة مع الحروف التي تستعلي في نطقها فإذا جاءت قبل الألف منعتها من الإمالة لأن الإمالة تنتج عن تأثر النطق بالمحيط الصوتي فقال:"هذا باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات...فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الطاء، الصاد، والضاد، والظاء، والغين، والقاف، والخاء.إذا كان حرف منها قبل الألف تليه، ذاك قولك: قاعد، غائب، خامد، صاعد، طائف، ضامن، ظالم. إنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى، فإما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها الكسرة في مساجد." وهذه الخاصية تساعد على تحويل أشكال المنطوق الأعجمي إلى صورة صوتية

عربية، وتسهم في إخراج صوت المنطوق العربي جميلاً متناغما، بعيدا عن التكلف والتصنع.

إن التبديلات الصوتية الناتجة عن الإبدال والإدغام والإلحاق تتمتع بوظائف دلالية، تولد المعاني المغايرة، وتكسب اللفظ رموزاً تتنوع وتتبدل في الاستخدام المجرد، وفي وظيفة التراكيب السياقيّة، لأن الوسط السياقي يخصب فاعلية التبديل الصوتي، فتؤدي الألفاظ من خلال حركاتها المكتسبة من ماهية التراكيب، وظائف دلالية نحوية وإعرابية، تحدد قيمة العنصر ورتبته، و رأى الفارابي أن المجتمعات تتفق على معاني الألفاظ كونها الأثواب الظاهرة للمعاني، ولكن هذا الشكل الثابت لا يلبث أن يغير دلالاته من خلال عملية التواصل اللغوي، قال:" فإذا استقرت الألفاظ على المعاني التي جعلت علامات لها، فصار واحد واحد لواحد واحد... وصارت راتبة على التي جعلت دالة على ذواتها، صار الناس بعد ذلك إلى النسخ والتجوز في العبارة بالألفاظ، فعبر عن المعنى بغير اسمه الذي جعل له أولا، وجعل الاسم الذي كان لمعنى ما راتبًا له دالاً على ذاته, عبارة عن شيء آخر، متى كان له به تعلق ولو كان يسيراً...التوسع في العبارة بتكثير الألفاظ وتبديل بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها"[18]. والتبديل الصوتي تفرضه الأغراض المستجدة التي تحتاج إلى ألفاظ تعبر عنها، فرأى أن "كل حرف يتبدل لغرض يتبدل"[19]. فالتبدل الصوتي غناء في المعجم اللغوي، وإثراء للاستخدامات التكنولوجية المعاصرة، على أن يكون المنتج الجديد خاضعا لشروط القياس اللغوي في معادلة التوليد الجديدة، لأنّ "القياس هو الحكم

العام الذي اهتدى إليه القدماء عن طريق نصوص العرب، وطريقة تنفيذ هذا الحكم هو الاشتقاق"[20].

إن التمايز بين الألفاظ ناتج عن تغاير بين المعاني، وهذه التبديلات لم تحدث اعتباطاً، بل صدرت عن فكر لغوي منطقي يسعى إلى التوافق بين اللفظ ومعناه، وكان ذلك أساساً في العمليات الصرفية، سواء أكان ذلك في صيغ الأفعال المزيدة وما تؤديه من معان، أم في الاشتقاقات من الأسماء الجامدة، والأفعال المتصرفة.

2. التوليد الذاتي الاشتقاقي

تمتاز اللغة العربية بخاصية التخصيب الذاتي، فتتوالد الألفاظ بعضها من بعض لتستوعب أشكال التعبير عن مظاهر الحياة، والمجتمع، وأنواع العلوم والمعارف، فأغنى الاشتقاق مستويات الأداء التعبيري بألفاظ ساعدت على نماء اللغة وزيادة معانيها التي تقتضيها حركة المجتمع وثقافة الفرد المتأثرة بعوامل ذاتية وخارجية، تحرض على توليد الكلمات من جذور أصلية بزيادة رياضية منطقية على الأصل، وبتقديم وتأخير في ترتيب الحروف، وتغيير في هيئتها، بغية توليد المعاني، لأنّ كلّ تغير في البنية الصرفية يقدم معنى إضافيا في الأوساط اللغوية العلمية والألسنية، واللغة العربية لا تجمع بين معاني المشتقات، فلكل مشتق دلالته الخاصة، فالمعنى مرتبط بتغير الصيغة الصرفية. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى (القيام مصدر قام واسم الفاعل قائم–القوام مصدر قاوم ولها مصدر آخر مقاومة واسم الفاعل مقاوم).

لم تتوقف عملية الاشتقاق على الصيغ الصرفية المعروفة، بل تجاوزت القياس إلى الاقتباس الذي يفرضه التطور اللغوي، واستقرت كلمات لم تكن مستخدمة في المراحل اللغوية المتقدمة مثل: (التدويل–التركيز–التأميم–المظاهرة–التقاليد–الهيمنة–)[21]، ولقد أقرّت المجامع العلميّة اللغويّة بعض الألفاظ المستحدثة والموضوعة في الاستخدام اليومي، (مع تحفظي على إقرار بعض الأخطاء التي جاءت أصلاً في متون كتب العرب، وسمحت المجامع اللغوية بتجاوز الأصل، إن الأصل خميرة يستخدم لتخمير التجربة اللغوية المتطورة والدائمة وليس في إفسادها)، فالتجديد حتمي، واللغة ليست وقفا على ما سمع من العرب الأوائل، ولا بد أن تتأثر بالبيئة العربية المتغيرة والتي تنتج ألفاظا تقتضيها البيئة الجديدة، ولكن يجب عدم التخلي عن الأصالة اللغوية، وحماية اللغة تشويه في طبيعة جيناتها.

أغنى التوليد الاشتقاقي المعجم اللغويّ العربيّ، وجعل هذه اللغة قادرة على استيعاب العلوم وتدوينها، مما دفع بالمستشرقين إلى الاعتراف بعظمتها، فقال غوستاف لوبون: "العربية في الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغراض العلمية، فهي غنية بالأصول والمشتقات الناتجة عن هذه الأصول. والمشتقات فيها كثيرة وهي تتفق مع الأصل في اتصالها به من حيث المعنى وان تحور معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها"[22].

إن الجذور الأصلية للغة العربية أشبه بالعناصر الحية الوسيطة الحافزة في معادلات الإنتاج اللغوي، تحرض على التفاعل والتأثير من دون أن تنفعل أو تتأثر، أو تغير من جوهر مادتها؛ إنها الطاقة الكيميائية في جسد اللغة، الطاقة المشحونة بمقومات العنصر اللغوي وخصائصه، و التي

تساعد على إحداث التحولات الكيمائية اللغوية الضرورية في أنماط منتظمة سليمة، تتلاءم والواقع الإنساني المتطور، من دون أن تفقد ذاتيتها واستقلالها وهويتها.

3.حركية المنتج اللغوي الدلالي

تكتسب الألفاظ دلالة ذاتية مستقلة من الاستخدام اليومي، وفق حاجات المجتمع والعوامل الاجتماعية والسياسية، التي تفرز في كل مجتمع مفردات تتناقلها الألسن، لتصير في أصل مواد التخاطب اليومي. ولقد تغيرت دلالات الكثير من الألفاظ العربية القديمة، فكلمة "مؤمن" التي كانت تدل على "الأمان" أو "التصديق" اكتسبت في الإسلام دلالة دينية، ولفظة" العقيدة" جاءت من الفعل "عقد" وهو أن يربط الإنسان عقدة أو قطعة من النسيج، والعقيدة هي الشيء الثمين الذي يصر ويربط ويعقد عليه الرباط حتى لا يضيع، صار لها مفهوم ديني وسياسي، وكلمة جائزة جاءت من الفعل جاز، ولكنها اكتسبت بالتداول معنى آخر، وذلك عندما اجتاز أحدهم نهرا فنال مقابل عمله مكافأة، وصارت كلمة جاز مرتبطة بالمكافأة، واقترن معنى الكلمة بدلالة معجمية مكتسبة.ولذلك قال الجرجاني:" إن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وان الكلم تترتب في النطق؛ بسبب ترتب معانيها في النفس"[23] .فالتطور الحياتي يفرض استخدامات لغوية جديدة في معانيها ورموزها، كون اللغة أهم مقومات الوجود الاجتماعي الإنساني، وبها تحفظ ذاكرة الجماعة فتحيا الألفاظ الجديرة بالحياة، وتموت الألفاظ المشوهة.و خير دليل على ذلك ما يطلقه الشباب العربي المعاصر من مفردات تسيطر على

لسان المجموعة الاجتماعية الواحدة، ولكنّها لا تلبث أن تموت. ولقد أشار "زياد الرحباني" في مسرحياته إلى هذه اللغة الميتة، التي لم يبق منها اليوم أي أثر، على الرغم من قربها الزمنيّ؛ لأن الشبيبة، في رأيي، يتعاملون مع اللسان العربي تعاملهم مع الأزياء والصرعات.

يعتبر الوسط النسقي، في علم اللغة الدلالي، وسطاً كيميائياً محرضاً على تنوع الدلالات وتطورها، لما تتمتع به اللغة العربية من خصائص في صياغة المعادلات التركيبية اللغوية، والتي تسمح بالتقدير، والتقديم، والتأخير، والحذف، والزيادة، فتحفل المعاني بالإيحاءات، والتقديرات، والدلالات، من دون أن يأتي المسكوت عنه سافراً في التصريح والإبانة، فتتغير المعاني وتتعدد وفق طاقات المتلقي الروحية الإبداعية، لأنّ النص الإبداعي هو نفحة من ذات المبدع، التي يستدل بآثارها على وجود النفحة الروحية، والتي لا يمكن الإحاطة بها احاطة تامة، فالمبدع لا يكتب إلا بعد أن تكتمل في تفكيره العلميّ المنطقيّ تكوين الفكرة، التي يلبسها جسدًا نصيًّا مغايراً ومتمايزاً.وهذا ما عبّر عنه الجرجاني بقوله: (إنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[24].

أن تكون لغتنا العربية متميزة بهذه المقومات والخصائص حقيقة تدعو إلى الفخر والاعتزاز، ولكنّ وصمها بالعجز عن مواكبة التطورات العلميّة الحديثة أمر يدعو إلى القلق والخوف من فقدان الهوية، ولا أمل في تحريض

دورها وتحديث مناهجها إلاّ بإزالة المعوقات التي تضعف من حركتها وفاعليتها العلميّة.

رابعاً: معوقات تطور اللغة العربية

تواجه اللغة العربية معوقات داخلية وخارجية، وربما كانت المعوقات الداخلية أكثر خطراً من العوامل الخارجية، لأنّ الخطر الحقيقي يكمن في ضمير الشعوب العربية، وهو متجسد في عدم الثقة بالنفس، وفي ضعف الانتماء الوطني، أولاً، والقومي، ثانياً، و في شدة الإعجاب بكلّ دخيل، ولو كان مشوهاً، لأنّ الانبهار بما لدى الآخر، من دون ملامسة جوهره، ومعرفة شيء من حقيقته، سبب أساس في تشويه الفكر العربيّ، وتخليه عن هويته، وهذا من الأسباب التي تقود البعض إلى حالة من الانبطاح أمام أصحاب السلطة بأسلوب يتنافى وإنسانية الإنسان، وكرامة الفرد، مما ينذر بضياع أبسط مقومات الاعتزاز بالنفس، وبخسارة الاعتزاز بالانتماء الفكريّ، والتعويض عنه بانتماء نفعيّ إلى مجموعة لا تعترف بالقدرات، ليتحول إلى رقم في صناديق النفعية.

أحدث هذا الواقع هوة مخيفة بين المثقف العربي المقصى عن واجبه، وبين رجال السلطة الذين يرغبون في "أزلام" تبخر لأمجادهم وتسبح بحمدهم، علماً أن المجتمعات الإسلامية العربية، كرّمت أصحاب العقل، وقد جاء في التنزيل الكريم ﴿...**والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير**﴾. (سورة المجادلة 11) وإذا رغبنا في أن نكون أكثر دقة، نقول: إن محاربة رجال السلطة للمثقف، إذا لم يرض أن يكون بوقا من أبواقها، أضعف قدرات الإبداع، وخلق حالة تغريب عن جوهر العقل،

فبيعت الضمائر للشيطان، مقابل منافع آنية ومصالح ذاتية، تعطل خصائص الانتماء القومي، وتحوّل المثقف عن مختبرات التفاعل والإبداع إلى حالة من الضياع والقلق والبحث عن مستقر يحقق فيه شخصيته ووجوده، لأن الاستقرار وسيلة تساعد على تحقيق الذات.

إن غياب الفاعلية الثقافية في المجتمع العربي أدى إلى سيطرة إعلام ذي غاية تجارية بعيدة عن الإعداد النفسي والروحي، إعلام تخريبي يدمر مختبرات التفاعل اللغوية، ويغيّب الحاجة إلى التجديد والتوليد، فكان لوسائل الإعلام دور سلبي، أسهم في تدني مستوى التخاطب بين أفراد المجتمعات العربية، فإذا حاولنا رصد الأخطاء اللغوية التي ترتكبها وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، لعثرنا على أخطاء مبدئية في الصرف والنحو، وفي استيعاب الدلالة المنطقية، فلقد أوردت المحطات خبراً سياسياً يقول:(اعتذر الرئيس عن عدم تشكيل الحكومة) وفهمها الناس بعدم الموافقة على التشكيل، ولكن الدلالة المنطقية تشير إلى معنى ايجابي، فألغي من بنية التركيب اللغوي قانون رياضي منطقيّ يقول : إنّ نفي النفي = إيجاب (−) (−) = +، لأنّ شعار اللغويين العرب، اليوم، هو الاهتمام باللغة في حدود ما يجعلنا نتواصل ونتفاهم، وهذه فرضية يجب نقضها لأنها لا تؤثر على اللغة وحسب، بل تسيء إلى المختبر اللغوي العقلي.

لقد تخلى معظم المثقفين العرب عن دورهم في المحافظة على أصالة اللغة العربية وتنمية ألفاظها، وتحوّل الأستاذ الجامعي إلى بائع شهادات، من دون أن يخلق في نفس طلاّب اللغة العربية شعوراً بالفخر والاعتزاز، لدرجة يشعر معها بعض الشباب الراغبين في دراسة الأدب العربي بالخجل من

اختصاصهم نتيجة النظرة الدونية إليهم، ويلمسون عدم تشجيع الأساتذة الذين لا يتواصلون معهم بلغة فصيحة، بل بلغة يغلب عليها ما يسمى، اليوم في الإعلام، باللغة البيضاء، لذلك تشهد الأوساط التعليمية تضخما بالشهادات، ونقصًا في الكفاءات، لأنّ ما يلقّن لطلاب الجامعات علوم تنظير ية لا صلة لها بالممارسة و التفسيرات المنطقية.

ستفرض العولمة انتشار اللغة الإنكليزية، حتى بين الطبقات الشعبية، ولكن الخوف ليس من انتشار هذه اللغة بين الخاصة والعامة، وإنما المشكلة تكمن في ازدراء أبناء العربية للغتهم؛ لأنهم بذلك يعملون على موتها، وبموت اللغة القومية تتلاشى الهوية الوطنية، فكم من شعوب انقرضت بانقراض لغتهم، ولا أبالغ إذا قلت إن معظم الشعوب اليهودية لا تتخلى عن لغتها العبرية، التي تشكل الجامع المشترك لهم في أصقاع الأرض جميعها، والشعب الأرميني حافظ على خصائصه القومية باحترامه للغته القومية، واتخاذها أداة تواصل فكري، ووجداني وقوميّ؛ لأن اللغة توحّد المجموعات المتباعدة جغرافياً، وتشعر الفرد بانتمائه الفكري والوجداني إلى بني قومه وتعزز الروابط.

يشعر بعض الدارسين بضرورة إدخال ألفاظ من اللهجات المحلية في أصل اللغة العربية، كونها من ابتكارات الحاجة الاجتماعية الإنسانية، وهذا أمر طبيعيّ يفرضه نمو اللغة وتطور مفرداتها، فلماذا يكون الخوف من تعدد اللهجات المحلية؟وتعدد اللّهجات انتشر في أحضان العربية الأولى، التي وصلت إلينا منتقاة خالية من العيوب والشوائب، بعدما أسقطوا منها ما

ليس جديراً بالحياة، ولكن اللهجات لا تقدر على خلق تراث قومي، يعزّز ويقوّي الوحدة، التي تعمل على خلقها دول عالمية بغية المحافظة على كيان معنوي، فاللهجات تختلف بين الأقطار العربية وتختلف في البلد الواحد بين محافظة وأخرى، ولنكون أكثر دقة إنها تختلف بين أبناء المناطق المتجاورة، فعلى سبيل المثال يوجد في مدينة طرابلس نفسها تعددية في شكل المنطوق الصوتي، واستخدامه يؤدي إلى تغير في البنية الصرفية في المجتمع الضيق، وربما احتاج مستقبلا إلى مترجم، لذلك نحرص على تعليم اللغة العربية الفصيحة، وفهم قوانينها؛ لأنها لغة تخاطب وتفاهم بين العرب أنفسهم وغير العرب.

لم تتخل اللغة العربية عن مقوماتها وخصائصها على الرغم من المعوقات التي اعترضتها في ظروف تاريخية مختلفة، واستطاعت أن تحافظ على أصالتها وحيويتها، ولن تؤثر المعوقات الجديدة على مقومات اللغة العربية، شريطة أن تتضافر الجهود من أجل تعزيز هويتنا والمحافظة عليها، وهذا مرهون بقدرتنا على تجاوز العقبات، والعمل على تحسين مناهجنا التربوية بغية تطوير اللغة والمحافظة على تراثنا.

آمن بعض المثقفين العرب بضرورة تنمية ألفاظ اللغة، ولكن بعيداً عن الاعتباطية والعشوائية، بل يجب أن يتم ذلك بوعي مقرون بالمعرفة والحذر، ولقد كان الدكتور "إبراهيم أنيس" من المؤمنين بالعمل على تخصيب مفردات اللغة العربية شأن علماء اللغة الأوائل، فقال: "ندعو إلى التطور الموجه، أو تنمية الألفاظ في لغتنا مع الرقابة و الحذر, إنما نهدف مع ما هدف إليه القدماء إلى أن تنتظمنا الآن نحن أبناء العربية لغة واحدة أو موحدة

منسجمة, وبين أيدينا لغة جاهزة"[25]، ونجاح العمل، في رأيي، مرتبط بمعرفة دقيقة بأصول اللغة وقوانينها الصرفية والنحوية، كي يأتي العمل مؤسساً على قواعد ثابتة وأصيلة، لأنّ تحديث اللغة لا يكون إلاّ من ضمن خصائص اللغة.

خامساً : تحديث اللغة بتأصيل اللغة

كان العرب الأوائل واثقين بأنفسهم، ومعتزين بانتمائهم، فابتكروا المفردات والمصطلحات التي ساعدت على استيعاب منتج الفكر الإنساني، فابتكر الخليل بن أحمد أسماء البحور الشعرية، وقرن النحويون دراساتهم بالمنطق، واستمدوا تعريفاتهم من خصائص اللغة، وأعطوا تسميات واصطلاحات لم تكن متداولة، فوضع علماء الطب والفيزياء والرياضيات أسماء مازالت مستخدمة في اللغات العلمية، كون اللغة العلمية لغة أممية، مثل كلمة "الجبر والقرنية"، وأصحاب الحساب" اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم"[26] لأنهم كانوا واثقين بأنفسهم وبانتمائهم، فلم يتنكروا لوجود الألفاظ الأممية في لغتهم.

أما، اليوم، فالعرب يخافون من الاقتراض، ويخافون الارتجال اللغوي المشروط بوجود النخب المثقفة المتميزة بالمنطق الرياضي والمنهج العلمي، والمطلوب إعداد المثقف العربيّ الحر، الخارج على أشكال الاستزلام والمتسلح بميزات العالم؛ ليسهم في توليد ألفاظ جديدة أوكل الفارابي مهمة تطويرها إلى علماء الأمة والنخب المختارة، الذين قال عنهم: "هؤلاء هم فصحاء الأمة وبلغاؤهم، ويكونون هم حكماء تلك الأمة، أولا، ومدبروهم والمرجوع إليهم في لسان تلك الأمة، وهؤلاء

أيضا هم الذين يركبون لتلك الأمة ألفاظا كانت غير مركبة قبل ذلك... فهؤلاء هم الذين يتأملون ألفاظ هذه الأمة ويصلحون المختل منها... وينظرون إلى أصناف التركيبات الممكنة في ألفاظهم الترتيبات فيها، ويتأملون أيها أكمل دلالة على تركيب المعاني في النفس وترتيبها... فتكتمل عند ذلك لغتهم ولسانهم" [27].لأنّ الثقافة تغذي الطاقات الإبداعية الذاتية وتمكّن من ابتكار وتوليد ألفاظ جديدة لا تتناقض وطبيعة اللغة، ولقد عبر ابن جني عن ذلك بقوله:والفصيح إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته، تصرف وارتجل ما لم يسبقه إليه أحد قبله به"[28]،فكيف يدعو إلى تطوير اللغة وتنمية ألفاظها من لا يحترم خصوصيتها، ويحافظ على مقوماته؟

فرض العرب الأوائل اللغة العربية لغة علم ومعرفة، ووسيلة تخاطب عالمية، بفضل تحررهم من سلطة الموروث الثقافي، من جهة، وبفضل منهجهم العلمي، ومهاراتهم اللغوية، من جهة ثانية، والمثقف العربي مطالب، اليوم، بتحفيز طاقات المتلقي، وإكساب المتعلم مهارة استخدام قوانين النحو، وصون منطق التراكيب، و تعويده على فهم الدلالات اللغوية المتحولة، والمستبطنة، في طبيعة الجسد النصي الذي ينساب فيه اللفظ، فيعبر عما ارتسم في الفكر برموز لغوية سليمة من الشوائب، وهذا مشروط بإغناء الذاكرة اللغوية، وإتقان قوانين النحو والصرف، ومعرفة مقومات علوم اللغة، فتوظف المعارف اللغوية النظرية في عملية التعبير عما ينتجه العقل العربيّ من علوم لا حصر لها، ولقد نبّه ابن سينا إلى ذلك بقوله: "معنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلّما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه"[29]، فلا نخاف من الاقتراض ، ولا نرفض

المصطلحات العلمية،بل نخضع علوم الآخر إلى عملية التفاعل اللغوي في مختبراتنا الفكرية واللغوية، ومن ثم نطوع العلوم، ونمنحها من طبيعة لغتنا، وتخرجه منتجاً علميا عربيا، مفعِّلاً بميزات الذات العربية.

سادساً : نقطة على السطر

أثبتت اللغة العربية قدرتها على التأثر والتأثير، والتطويع والاكتساب. والمفكر العربيّ مطالب، اليوم، بإحياء خاصية إخصاب اللغة العربية، لتثبت، من جديد، فاعليتها ومرونتها، وقابليتها، فيستعيد الإنسان العربيّ ثقته بأدوات مختبره الفكريّ، ويسجل بأدوات اللغة العربية ما تفرزه العلوم من إنجازات، وما ينتجه العقل الكونيّ من نظريات و آراء وأفكار، وما يرسمه من تطلعات ورؤى، فيتجاوز العقل العربيّ حالة السكون، ويواكب الحركات الفكرية العالمية، التي تحاول العولمة تبنيها، والاستفادة من إبداعاتها.

بعث الخوف من العولمة، في الذات العربية المعاصرة، شعوراً بالإحباط، نتيجة تنحي المفكر العربي عن حلبة الصراع، وقبوله حالة التلقي، وتعليل عجزه باتهام اللغة بالقصور عن استيعاب ماهية العلوم المعاصرة، فتظهرنا العولمة، بخوفنا منها، عاجزين، ونبرر عجزنا العلميّ بقصور اللغة العربيّة عن استيعاب العلوم، و عن أنماط الثقافة الحضاريّة المعاصرة، ونجرد اللغة من قدرتها على تدوين المعارف، ومن سماتها التوليديّة التخصيبيّة، بسبب عدم ثقتنا بانتمائنا، ونصورها قاصرة عن استيعاب المنتج العلميّ والثقافي والحضاريّ.

إذا رغبنا في أن نتحول من حالة الانفعال إلى حالة الفعل، وجب علينا تفعيل مقومات اللغة العربية، وتحفيز طاقاتها وقدراتها الكيمائية التحويلية، ونحرص على تسجيل تجليات الفكر العربيّ بلغة عربية سليمة، مع المحافظة على بنية لغوية ذات خصائص تحويلية كيمائية؛ فتستعيد اللغة بذلك جينات التوليد والتخصيب.

الهوامش

1. الفارابي ، شرح العبارة، ص 27.
2. السيوطيّ، المزهر، تحقيق أحمد جاد وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1958 ج1، ص 219-294-302.
3. الجاحظ، البيان والتبيين ،ج 1،ص 20، ص 161،ج 2،ص 71.
4. ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدم له عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978.
5. سيبويه ، الكتاب،ج 4، ص 304.
6. أبو منصور الجواليقي، في المعرب، ص 6.
7. كلمة المرباع استخدمت في الجاهلية للدلالة على ربع الغنيمة التي كان يأخذها رئيس القبيلة في الجاهلية.
8. تعني كلمة، الفضول، ما تبقى من القسمة.
9. فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1950، ص 5.
10. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز،دار المعرفة،بيروت 1978، ص 43.
11. شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، ط 2.
12. د.حاتم صالح الضامن، علم اللغة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة بغداد، 1989، ص 145.
13. د.محمود السعراني، اللغة والمجتمع، القاهرة 1963، ص 14.
14. أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة د.كمال بشر،القاهرة 1962.ص 156.

15. د. علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، القاهرة، 1946.ص 91.
16. الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1970، ص 137.
17. سيبويه، الكتاب،ج 2، ص 259.
18. الفارابي، كتاب الحروف، ص 141.
19. م.ن.ص 139.
20. ابراهيم أنيس،طرق تنمية الألفاظ في اللغة،مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة،ص 41.
21.من كتاب د. مصطفى جواد في التراث اللغوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1998، المصطلحات العلمية الحديثة، ص 163 وما بعدها.
22. غوستاف لوبون،حضارة العرب،ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ص 141.
23. الجرجاني، دلائل الاعجاز،ص 45.
24. الجرجاني، دلائل الاعجاز،ص 44.
25. ابراهيم أنيس، طرق تنمية الألفاظ في اللغة،ص 12.
26. الجاحظ البيان والتبيين،ج 1، 139-140.
27. الفارابي، كتاب الحروف، ص 143-144.
28. ابن جني، الخصائص،ج 2، ص 25.
29. ابن سينا، الشفاء، تحقيق : محمود الخضيري، القاهرة، 1970، ص 4.

من نشاطات المجلس الأعلى للغة العربية

إعداد: أ. حسن بهلول

في إطار سلسلة الندوات الفكرية، وضمن برنامج الموسم الثقافي لسنة 2006 وعبر منبري: "حوار الأفكار" و"فرسان البيان" عقد المجلس الأعلى للغة العربية عدة موائد مستديرة ومحاضرات، وكذا تنصيب مجموعتي عمل متخصصتين لإعداد الأدلة والمحادثة الطبية وتكريم بعض الشخصيات الوطنية التي أسهمت في خدمة اللغة العربية نقتصر فيما يلي على ذكر البعض منها وذلك نظرا لكثافتها من جهة وورود أغلبها في كراسات المجلس التي أصدرها في إطار مشروعه للنشر للموسم الجاري 2006، وهي مرتبة ترتيبا زمنيا:

توطين المعرفة العلمية والتكنولوجية وأهمية نشرها بالعربية

استضاف المجلس في منبره "حوار الأفكار" بفندق الأوراسي يوم 2006/02/27 **(شخصية متميزة جمعت بين العلم والوطنية والتجربة في عدد من مواقع المسؤولية في الدولة الجزائرية الفتية)*** إنه الأستاذ محمد

---

* من كلمة رئيس المجلس معالي الدكتور محمد العربي ولد خليفة بهذه المناسبة، والجدير بالذكر أن هذه المحاضرة وردت في إحدى كراسات المجلس.

علي بوغازي المستشار حاليا لفخامة رئيس الجمهورية. والأستاذ محمد علي بوغازي حاصل على دكتوراه الدولة في الرياضيات من جامعة غرونوبل عام 1987، درس بجامعة قسنطينة لمدة تربوعن العشر سنوات.

انتخب سنة 1997 نائبا بالمجلس الشعبي الوطني ثم نائبا لرئيس لجنته للشؤون الخارجية ثم عين وزيرا للأشغال العمومية وتهيئة الإقليم والبيئة والعمران حتى عام 2000، ثم وزيرا منتدبا للبحث العلمي إلى سنة 2002 فأستاذا بالمدرسة العليا للأساتذة بالقبة، وقد عرض الأستاذ بوغازي في محاضرته الموسومة "توطين المعرفة العلمية والتكنولوجية وأهمية نشرها بالعربية" جملة من القضايا الهامة تتصل مباشرة بالفجوة المعرفية والرقمية التي تفصلنا علميا عن الثورات المتلاحقة في شتى مجالات العلم وتطبيقاته التكنولوجية التي قلصت مساحة المجهول، وأضحت المصدر الحقيقي للقوة والمناعة في عالم اليوم الذي نعيشه والذي نلاحظ فيه احتكار القوى المهيمنة على علوم المقدمة، وفي هذه المحاضرة حاول الأستاذ المستشار بوغازي الإجابة على عدد من الأسئلة الرئيسية: ما هي العوائق التي تحول دون توظيف المعرفة وصولا إلى التجديد والابتكار في بلادنا بوجه خاص والعالم العربي الإسلامي بوجه عام؟ هل وضعنا استراتيجية توصل إلى الحداثة والتجديد؟ أم سيتواصل استيراد العلم والتكنولوجيا وتحويل موارد الثروة النفطية إلى بنوك دول أخرى غنية أصلا، ولعل أخطر الموضوعات التي هي مثار جدل يدور في حلقة مفرغة تتمثل في التساؤل عن قدرة اللغة العربية على توصيل المعرفة العلمية والتعبير بكيفية مقبولة وجيدة عن

منجزات التكنولوجيا، وهل أن العيب في اللغة العربية أم في مستعمليها وفي أنظمة التعليم والتكوين والبحث العلمى؟

هذه أهم محاور المحاضرة التي تناولها الأستاذ محمد علي بوغازي في منبر "حوار الأفكار" المخصص للحوار مع واقعنا المعرفي ومدى انسجام منظومةالتكوين التكنولوجي ومردودها في شتى مجالات التنمية والتجديد للتطلع إلى مستقبل متميز في عالم تجتاحه عولمة فوقية وهجومية.

اللغة والهوية والتعددية اللسانية*

المشاركون : معالي السيد إسماعيل حمداني (رئيس حكومة سابق)
معالي السيد سليمان الشيخ (وزير سابق)
الدكتور مختار نويوات (جامعي)
الدكتور أمين الزاوي (مدير عام المكتبة الوطنية)
الدكتور عبد القادر فضيل (استاذ)
الدكتور عبد المجيد حنون (جامعي)

نظم المجلس الأعلى للغة العربية مائدة مستديرة بفندق الأوراسي يوم 13 مارس 2006 ضمت كلا من الآساتذة المشار إليهم –أعلاه–، تنشيط الدكتور عبد المجيد حنون، وذلك حول موضوع يشغل بال شعبنا ألا وهو اللغة والهوية والتعددية اللسانية، وقد تناول الدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية في مستهل كلمته الافتتاحية للجلسة أهمية الموضوع وتناوله بالدراسة العلمية، ومنبها إلى ضرورة مجابهة

* لمزيد من الاطلاع يرجى العودة إلى كراسة المجلس المخصصة لهذه المائدة.

الأفكار الساعية لجعل بلادنا ساحة لصراعات مناطق النفوذ الجيو-ثقافي وما يتيحه من احتكار للأسواق والعقول والأذواق، كيف تكون العربية لغتنا المحورية السائدة والسيدة من الأسرة إلى المدرسة إلى المجتمع وتسعى لتعامل متكافئ مع اللغات الأخرى بلا عقد ولا مزايدات.

والجدير بالذكر أن موضوع هذه المائدة تسهيلا للنقاش قسم إلى خمسة محاور هي:

- من التنوع إلى التمازج والتجانس
- التلازم بين اللسان ومضامينه
- الذاكرة الجريحة والمدرسة المشبوهة
- التعددية اللسانية ومستويات الخطاب
- اللغة ملكية المجتمع

وبعد تدخل السادة المشاركين في المائدة والنقاش المستفيض الذي سادها توصل الحاضرون إلى تسجيل الآتي:

- إن العربية بمضامينها المستجدة ومخزونها في الذاكرة الجماعية هي البيت الذي نسكن فيه ويسكن فينا، ووجود لغات أو لهجات أخرى إلى جوارها ليس خطرا إذا تم تحديد وظائف كل لغة في الخريطة التعددية اللسانية، بحيث تكون العربية هي المحور الذي تدور حوله اللغات الأخرى وخاصة الفرنسية التي يجب نقل وضعها السابق من لغة مفروضة إلى لغة أداتية أي مجرد نافذة وليست بابا وأفضل شراكة معها هي استخدامها مع غيرها تمثل وتوظيف المعرفة والتكنولوجيا.

– لا يمكن شطب أربعة عشر قرنا من التعايش تحت راية الإسلام الحنيف وحضارته وتعويضها بقرن ونيف من الاحتلال والاستعلاء والاستئصال العرقي والثقافي والاهتمام الحالي في المخابر الفرنسية التي تستفيد من الفراغ وعمى الألوان للتسلل عير منافذ إلى ما تعتبره فردوسها المفقود.

الأمسية الشعرية للشاعر الموهوب إبراهيم صديقي بمناسبة إحياء اليوم العالمي للشعر*

بمناسبة اليوم العالمي للشعر استضاف المجلس الأعلى للغة العربية ضمن منبره "فرسان البيان" الشاعر الموهوب إبراهيم صديقي بمقره يوم 21 مارس 2006 وألقي بعض قصائده الرائعة.

وإبراهيم صديقي مدير الأخبار بالمؤسسة الوطنية للتلفزيون يعد من أبرز الأصوات الشعرية في الجزائر والوطن العربي وهو من مواليد 1972 بالعاصمة تخرج من معهد الأدب العربي بجامعة الجزائر فالتحق مباشرة بالتلفزة الوطنية ونظرا لذكائه واستيعابه لمهمته رقي إلى منصب مدير الأخبار في زمن قياسي.

ورغم عمله الذي يأخذ كل وقته لم يبخل على الساحة الثقافية بمشاركاته على الصعيدين المحلي والعربي فهو عضو قيادي في اتحاد الكتاب الجزائريين صدر له ديوان واحد "الممرات" ومن المنتظر إصدار ديوانه الثاني في غضون الأيام المقبلة.

---

* تم تخصيص كراسة لهذه الأمسية الشعرية.

مثل الجزائر في عدد من المنابر الشعرية في أقطار الوطن العربي وفي فرنسا وأبدع في كل هذه المنابر أيما إبداع ولعل ما تعلق بذهن مثقفينا المناظرة الشعرية التي جمعته بالقاهرة مع شاعر من سوريا واستطاع إبراهيم التفوق عليه.

انطباعات حول الشاعر

الشاعران بوزيد حرز الله وعادل صياد

"إبراهيم صديقي ظاهرة شعرية جزائرية فرضت نفسها في مشهد شعري جزائري ارتمى في أحضان النص الحداثي، بحثا عن هوية إبداعية لدى رموز هذه التجربة ورافعا لشعار القطيعة مع النص الشعري العربي التقليدي بحجة أن الزمن قد تجاوزه.

لكن إبراهيم صديقي الذي ينتمي إلى جيل منتصف التسعينات قد أربك قناعات رافعي شعار القطيعة في الجزائر وفي الوطن العربي وتمكن بحسه اللغوي الرفيع، وتمكنه من أسرار وفلسفة العربية أن يبعث الروح والحياة في القصيدة العمودية ويحين جمالياتها مع الراهن ويفتحها على المستقبل وهو إلى جانب كل ذلك صاحب بداهة وفطنة منقطعتي النظير وصاحب نكتة وخفة روح جعلته محبوبا لدى كل الناس.

الشاعر عز الدين ميهوبي

لقد برهن الشاعر إبراهيم صديقي في مناسبات سابقة بأنه شاعر موهوب ويملك القدرة في تطويع اللغة، يستخدم لغة بسيطة لكنها قوية وعميقة، مثل –السهل

الممتنع– يؤكد التفوق الذي يحققه إبراهيم دائما في نصوصه ففي كل مرة يقدم تجربة جديدة وناجحة وهذا يسعدنا جميعا.

الشاعر محمد أبو القاسم خمار

إبراهيم صديقي شاعر عبقري فحل، متفرد في لحنه وغنائه، في لغته وأسلوبه، في مواضيعه ومعانيه، وكان حريا بعائلته /الجزائر/ أن تنصب له الزينات، وتقيم الأعراس عند مولده مع أول /قصيدة/ محمومة، قالها ... فرحا بمقدمه، واعتزازا بسطوع نجمه على صفحة سمائنا الزرقاء، الرائعة الفاتنة.

إبراهيم صديقي – موهبة نادرة واكتساب جاد، وذكاء ذكي خارق يدعمه إحساس مرهف حاد، وذوق أنيق ناقد، وتلقائية سهلة ممتنعة، ونفسية بسيطة مركبة، وأحلام متوترة متداخلة مع الواقع والخيال، .. ومع الحب والكبرياء، ومع نوازع العصبية الجاهلية، وحمية القرن الواحد والعشرين.

إبراهيم صديقي...إذا لم تلتهمه مطامح مع ما بعد الرغيف ومسارح الوظيف، ومراجع الرصيف، ومطارح الشللية والتصنيف...إذا لم يستطع أحد القبض عليه، واستطاع هو القبض على نفسه القبض على جمر الشعر وسيولة النهر، وأشواك التواضع والصبر، وحافظ على ديمومة براءته، وإنسانية قلبه الفنان الطفل..إذا استطاع ذلك فقد يكون له حظ راسخ من نبوءة المتنبي..ويكون له موعد أبدي مع انسياب الزمان– وأوابد المكان.

عرفته منذ زمن ليس بالطويل، وهو في عمر أوسط أولادي، وعندما استمعت إليه، ينشد شعره، أحسست أنني أمام شاعر عجن العمر، وحلب

الدهر، وعرك البحر، وامتلك أجمل ما في كنوز اللغة، والفكر، وفاز بأجمل ما في الحياة...الشعر..

بالأمس قمت بنزهة ممتعة، بين /الممرات/الساحرة التي شيدها إبراهيم صديقي كما شيد "هومروس" إلياذته وقد فتنتني بجل ما فيها من رؤى، وأضواء، وألوان، وخلجات نابضة، .. من أول منطلق فيها مع أبي الطيب المتنبي إلى آخر منعرجها مع أبي نواس.

رأيته مع المتنبي، مرآة سحرية صافية، تعكس صورا حية خلابة، قدمت الشاعر الفذ في حالات قديمة جديدة كشفت بعض أسراره وخفاياه، ومطامحه وأمانيه، ضمن لوحات تشكيلية رائعة، ذات منحنيات سريالية رمزية، ربما لم يتعود حتى "المتنبي" مشاهدتها والنشوة في النفس، وتلك هي روعة الإبداع...:

لأنك المتنبي لم تزل ألما   تصيح في لجة الدنيا مواجعه
إن لم يسعك من الأعمار ضيقها   فقد كفاك من التاريخ واسعه

قرأت مجموعة /الممرات/ أكثر من مرة وتوقفت مرات ومرات عند قصيدة /الممرات/ورغم قصرها، فقد كدت أضيع بين زواياها المفعمة بالمفاجآت، وإغراءات الجنيات الراقصات المنشدات ولم يبق أمامي إلى الهرب من الشعر إلى الشعر، فرددت مع إبراهيم :

ويا أنا يتمادى التيه في قدمي   حتى تضيق بدنياي الممرات
يا دارمية ضاعت في المدى سقي   وضاع لي أمل فيه وغايات

قد قامت الساعة الكبرى بأوردتي   وما ارتعاش يدي إلا العلامات

مجموعة الممرات، تضم (17) قصيدة، منها ثلاث قصائد فقط من الشعر الحر، – لم تهزني كما كدت أرقص مع العموديات الأكثرية الأخرى، وهي ما أجاد الشاعر فيها، وأبدع وأفحم.

ولم يكن / الوعد/ ليسمح لي أن أسجل انطباعي عن كل قصيدة بمفردها... فقد تفاهمت مع الصديق الأديب/حسن بهلول/ أن لا تتجاوز (شهادتي) صفحتين، وكان هذا بطلب مني، وأعترف أنني ندمت إذ قيدت نفسي.. لأن الحديث عن الصديق الشاعر إبراهيم صديقي/يريح القلب وينعش الروح، ويمتع الفكر وعسى أن أتورط فيه مرة أخرى إن شاء الله.

الدكتور عثمان بدري

شعر إبراهيم صديقي في الحقيقة من بين التجارب الشعرية المتصدرة في أعلى السقف، ولكن السؤال الذي يرد هو زهد إبراهيم نفسه في حضور شعره في الفضاءات الشعرية العربية وحتى غير العربية الكثيرة، أنا أتابع القصائد الشعرية بكثرة ويحز في نفسي أن أجد صوتا شبيها بصوت إبراهيم، ومن اللافت في شعر إبراهيم أنه من القلائل الذين يتميزون بصنع المفارقة الشعرية ولكن بتلقائية، فالشعراء الكبار هم شعراء المفارقات، وهنا يأتي سؤال آخر ربما سيجيب عنه إبراهيم، وهو أن شعره يبرهن على القاعدة التي تقول بأن الشعر العظيم لا يولد إلا من رحم شعر أعظم، ألا تلاحظون هنا

حضور المتنبي، خليل مطران، حضور الشعر الجاهلي، هذا الحضور المعاد إنتاجه بتوقيع جديد تماما.

الدكتور صالح بلعيد

تعود معرفتي بالشاعر إبراهيم صديقي إلى سنة 1997 في المربد الشعري الحادي عشر بالعراق، عندما وقف منتصبا في المنصة يردد شعرا رائعا عذبا مفعما بالحيوية يصف المشهد الدموي الذي كانت تعيشه الجزائر آنذاك وأذكر أن أيادي الحضور لم تتوقف عن التصفيق وطلب الإعادة.

هذا مشهد عظيم لاعتبارين:

1. الصورة الشعرية التي وصف بها أحداث الجزائر.
2. الإلقاء وحسن الإجادة والمزج بين اللغة والتعبير في كلمات دافئة رفعت رؤوس الجزائريين.

وبذا فإن إبراهيم صديقي يملك شعرية أصيلة معاصرة؟ تجمع بين الأصالة والحداثة، فهو يمتلك آليات الشعر الموزون، ويربط ذلك بالشعر الحر ذي القافية المعبرة وموسيقى الشعر، فأنعم به من شاعر.

وفيما يلي ندرج أبياتا من قصيدة "**شرب المكان**" لإبراهيم صديقي:

شـرب المكـان دنـا إلـى وتمـتم	**سـرا وسـره جـل ألا يكتمـا**
شـق الزمـان ودس فـي أيامـه	**عيني واخترق الرواق المظلما**
وبـدت لـه ظلمـات وجهـي جمـة	**ومضي يبعثر في جبيني الأنجما**
ومضـى يعلمنـي القـراءة وحيـه	**ففهمت كيف الداء يغدو بلسما**
وفهمـت كيـف الله يحيـي	**عرسه لما يجب وكيف يحيي المأتما**
يـا واهـب الرمـان بعـض خـدودها	**يـا خـالق النيـران مـن مهـد اللمـا**
يـا منشـئ الملكـوت فـي حركاتهـا	**يا مبدعا من مقلتيها الموسما**
كبـرت باسـم الشـيح فـي الأرض التـي	**قطـرت مـدارتها علـى قلبـي دمـا**
وأتيت عرش الماء مذبوح الخطى	**كـي أسـمع القطـرات لا كـي أفهمـا**

التسيب الإداري في الجزائر –أسبابه ونتائجه–

نظم المجلس الأعلى للغة العربية مائدة مستديرة يوم 09 افريل 2006 بمقر المجلس شارك فيها الآساتذة: د. سعيد مقدم الأمين العام لمجلس الشورى المغاربي، عبد المجيد شيخي المدير العام للأرشيف الوطني، خير الدين شريف والي سابق حول كتاب ظاهرة التسيب الإداري في الجزائر لمؤلفه الأستاذ سمارة نصير الذي نال به جائزة اللغة العربية السنوية للمجلس لعام 2005 في مجال العلوم الإدارية والإعلام.

تناول الأستاذ سمارة نصير في هذا الكتاب الذي نشره المجلس ظاهرة التسيب الإداري في الجزائر التي استشرت في الإدارة الجزائرية ولم يتطرق إليها الدارسون بالتحليل والدراسة، وقد قسم المؤلف دراسته هذه إلى خمسة فصول :

الفصل الأول: استعرض فيه التعريف النظري والإجرائي لظاهرة التسيب موردا فيه مختلف المؤشرات التي تدل عليه.

الفصل الثاني: تعرض لمختلف الأسباب البيئية لظاهرة التسيب التي يعتبرها المؤلف أسبابا سوسيوثقافية واقتصادية وإدارية.

الفصل الثالث: تعرض لدوافع العمل كمحددات للسلوك البيروقراطي مع تعريف للدوافع ومختلف النظريات المتعلقة بها في المنظومة الإدارية، وكذا علاقة التسيب البيروقراطي بمختلف نظريات الدوافع.

الفصل الرابع: حاول ربط نظرية ماسلو بالدافع الجزائري

أ. افتراضات النظرية (نظرية ماسلو في الحاجات)

ب. التسيب الإداري بين النظرية والتطبيق في علاقة هذه النظرية بالواقع.

الفصل الخامس: التكاليف الباهظة للتسيب مع تقديم بعض الاقتراحات التي يمكن من خلالها معالجة النتائج السلبية لهذه الظاهرة.

وقد تبعت عملية تقديم هذا الكتاب مناقشة واسعة وثرية حيث انصبت على ستة أفكار منها ما هي إشادة بالعمل، ومنها ما هي هنات تسجل على المؤلف لتلافيها في المستقبل وهي:

- الاختيار الموفق والصائب للموضوع مع الجرأة في تناوله.
- اعتبار الدراسة بمثابة مقدمة لموضوع حساس وحيوي جدا في حاضر ومستقبل الإدارة الجزائرية.

– عدم التمييز الدقيق بين مفهوم البيروقراطية كنموذج علمي في التسيير والتنظيم والتوجيه وظاهرة البيروقراطية التي تتناول بالدراسة الآفات الإدارية كالروتين والتسيب.

– الإطار الزمني للدراسة (1992–2002) غير موفق ولا يعطي النتائج المتوخاة من البحث، حيث أن هذه الفترة التي مرت بها الجزائر امتازت بانعدام الأمن والاستقرار.

– عدم التوفيق في العنوان نظرا إلى أنه لا يعكس مضمون الدراسة بصورة شاملة ودقيقة.

– اقتصار الدراسة على الجانب النظري البحت دون اعتمادها على الواقع.

وعموما فإن الحضور قد أثنوا على هذه الدراسة الأكاديمية وتنموا للباحث مواصلة الجهد في هذا السبيل.

الإصلاح عند الشيخ محمد عبده والإمام عبد الحميد بن باديس*

بمناسبة يوم العلم نظم المجلس مائدة مستديرة بفندق الأوراسي يوم 19 أفريل 2006 شارك فيها الدكتور عمار طالبي والدكتور كريستيان فون نيسبان وتنشيط الدكتور سعيد شيبان وهذا قصد التعرف على الإصلاح عند كل من الإمام عبد الحميد بن باديس ومحمد عبده.

وقد تصدى للحديث عن الإمام محمد عبده الدكتور الراهب والعالم الفيلسوف كريستيان فون نيسان المختص في الدراسات الإسلامية والعربية المتحصل على الدكتوراه في تفسير المنار، يعيش في القاهرة منذ ما يقارب 40 سنة.

* ولمزيد من المعلومات يرجى العودة إلى كراسة المجلس الصادرة مؤخرا حول هذه المائدة.

أما الحديث عن الإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس فقد قام به الدكتور عمار طالبي أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر الذي يعد بحق رائد الدراسات الباديسية في الجزائر.

وقد سلطت هاتان المداخلتان الضوء على حياة وكفاح هاتين الشخصيتين في سبيل إعلاء صوت الحق ونبذ البدع والخرافات والطرق التقليدية المتسمة بالشعودة في طرق التدريس والتربية مما جعلهما رائدين بحق واستطاعا أن يؤثرا كثيرا في حياة ومسار الأجيال التي أتت بعدهما.

تقديم كتاب الكهرومغناطيسية

بعد صدور الجزأين المتعلقين بكتاب الكهرومغناطيسية للأستاذ رضا محمد أوهايبية والذي فاز به بجائزة اللغة العربية لعام 2001، ارتأى المجلس أن يقدم الأجزاء الثلاثة من هذا العمل العلمي الهام عن طريق المعني بحضور ممثلين مختصين عن وزارات العمل والتكوين المهني والتربية، وجمع غفير من الأساتذة المهتمين بالثقافة وذلك بمركز التكوين المهني بالأبيار يوم 09 ماي 2006.

هذا ونشير إلى أن الجزء الأول الكهروسطاتيك والكهروسينيتيك والجزء الثاني الدارات الكهربائية، والجزء الثالث الكهرومغناطسية موضوع ومحل التقديم، قد اعتمد المؤلف فيه على المقرر الرسمي للمرحلة الثانوية والمرحلة الجامعية يضم 13 فصلا ويقع في 240 صفحة من الحجم المتوسط.

وقد أعقب هذا التقديم مناقشة عامة شارك فيها ممثلون عن الوزارات المشار إليها آنفا وانصبت بالخصوص على الجانبين المصطلحي والشكلي.

وفي نهاية النقاش اعترف الحضور للمؤلف بالمجهود الذي بذله واستحسنوا هذا العمل الذي يعتبر لبنة ستثري المكتبة العلمية العربية.

تعليم اللغة العربية في المهجر "الفرص والعوائق"*

عقد المجلس مائدة مستديرة بفندق الأوراسي يوم 15 ماي 2006 ضمت السادة/معالي الأستاذ محمد الطاهر زرهوني (كاتب الدولة للتعليم الثانوي والتقني سابقا) والدكتور مولود عويمر أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر، الصحفي والكاتب المعروف سعدي بزيان، حضرها جمهور غفير من المفكرين والمثقفين.

وقد جاء انعقاد هذه المائدة لتسليط الضوء على تعليم اللغة العربية لأبنائنا وبناتنا في المهجر للنظر في الفرص المتاحة لهم وكذلك تشخيص المشاكل والعوائق التي تعيق هذه العملية الوطنية والحيوية التي أولتها الدولة الجزائرية عناية ملحوظة وهذا نظرا لعوامل عدة منها تواجد جالية جزائرية كبيرة بالمهجر والعمل على ربطها بالوطن الأم، ولا شك أن اللغة والدين أهم عاملين للمحافظة على الهوية والشخصية الوطنية وكما قال الدكتور محمد العربي ولد خليفة في كلمته الافتتاحية لهذه المائدة "إن علاقة الجزائريين بوطنهم ليست مجرد عاطفة عابرة بله هي رابطة ترتكز على العقيدة الإسلامية السمحة واللسان العربي، التاريخ والتراث".

وقد تناول المتدخلون الموضوع بجدية مركزين على الجانب القانوني للتعليم بالمهجر وكذلك واقعه وعمليات التنظيم والتأطير التي قامت بها

* لمزيد من الاطلاع يرجى العودة إلى كراسة المجلس حول هذا الموضوع.

الدولة الجزائرية، وأجمعوا على أن الجهود المبذولة والمسخرة لم ترق إلى مستوى الطموحات والأهداف المسطرة، مما يستوجب مراجعة النقائص المسجلة حتى لا تهدر الجهود والأموال وتذهب سدى

أمسية شعرية للشعراء الشباب إحياء لليوم الوطني للطالب*

ضمن منبر "فرسان البيان" نظم المجلس الأعلى للغة العربية أمسية شعرية إحياء لليوم الوطني للطالب الذي يصادف 19 ماي من كل سنة، وذلك بثانوية حسيبة بن بوعلي يوم 22 ماي 2006 شارك فيها كوكبة من الشعراء الشباب تتقدمهم الظابطة المجدة سميرة قبلي، هيثم سعد زيان وعبد العالي مزعيش وتنشيط شاعرنا الموهوب الأستاذ ابراهيم صديقي حضرها عدد كبير من الوجوه الثقافية والبرلمانية وطلبة المدرسة العليا للشرطة وطلبة المدرسة التطبيقية لعين بنيان.

وبعد كلمة الترحيب والتنويه لكلا الشاعرين عز الدين ميهوبي وإبراهيم صديقي قدمت الضابطة سميرة قبلي قصيدة جعلت الحاضرين يصفقون لها مطولا إعجابا بها كما قدم الشاعران عبد العالي وهيثم قصائد نالت استحسان الجمهور الحاضر الذي لم يبخل بتصفيقاته للشعر الجيد.

وقد عقب على هذه الأمسية كل من الأساتذة د. نور الدين السد (جامعي) د. محي الدين عميمور (وزير سابق)، بلقاسم أيت حمو (موظف سام)، عبد المجيد لغريب، وأحمد بناسي مبدين إعجابهم بهؤلاء الشعراء وشاكرين المجلس على جهوده في سبيل تعميم وترقية العربية ببلادنا.

---

* وردت وقائع هذه الأمسية في كراسة المجلس الصادرة مؤخرا.

وفيما يلي نماذج من القصائد الملقاة:

الضابطة : سميرة قبلي

قصيدة "قدري"

كلاهما قدري... واحد في غلفة، الآخر بنبض بالحبر..
فتورق صفحاتي بالسحر والآخر لامرد له..
وبالشعر.. كلاهما في كفي جمر
ولامراد لسري.. إثناهما لم يخلقا لغيري
ما أروعه جمري.. أجابني بحرقة
فواحد إن أنا حرضته.. أجانبي بطلقة..
والآخر المركون لو حرضته.. عليك يا قلبي بالصبر..
وثالثهما هذا الخالق في صدري

الشاعر : هيثم سعد زيان

أبيات من قصيدة "للحسن ألوان"

وعيونك الهيفاء أحيت شاعري وغدت سهاما تستفز مشاعري
وأنا المسافر في الجمال جوازه خلجات قلب وانتفاضة شاعر
ونطارد الدنيا ونزحف نحوها ما قيمة الدنيا بعين مسافر
قد صغت قبلك في العيون قصائدا وملأت بالوصف الثمين دفاتري
فمدحت "هندا" واشتهيت "بثينة" وبسطت في "ليلي" حدود مآثري
حيرت "قيسا" و"الجميل" نفيته و "بليغ عبس" كبلته حوافري
سددت تسعا واحتميت بعاشر

أمـا عيونـك كالسـهام تطـالني — جربـت لكـن كنـت أول خاسـر

هـي كـالجوارح لا أجيـد نزالهـا — حتـى وإن زيـدت لعجـل "السـامرى"

كـل الجـوارح لا تضـاهي سـحرها — والليـل.. يشـفق عـن عيـون الساهر

من نظرة يهوي الفِؤاد صبابـة

الشاعر : عبد العالي مزغيش

أبيات من قصيدة "النائلية"

في أي قلب سكبت النور فاندفقا — وجدت بالحسن من عينيك والالقا

ولاح وجهـك كالقنـديل مسـتترا — خلـف الوشـاح يشـيح الليـل والغسـقا

وراح شـعرك يرخـي مـن ظفـائره — حتى استبان بلوح الظهر فانطلقا

ريفية المقل النجلاء، ناهدة سمراء — فـي فمهـا سـحر الهـوى نطقـا

تختـال مثـل غـزال الـريم كاعبـة — كأنهـا الحـور مـن فردوسـه سـرقا

أرنـو إليهـا كـأن لـم أرن لامـرأة — من قبل وأن هذا القلب ما عشقا

قـد كـدت مـن فـرط مـا أشـتاق رؤيتهـــــــــــــا — أظـن أن فـؤادي نحوهـا سـبقا

يا طفلـة فـي صـميم القلـب ماثلـة — وفتنـة تمـلأ الأكـوان والأفقـا

ماذا صنعت بأهل الحرف كلهم — إذ طلقوا بعدك الأقـلام والورقا

انطباعات الأستاذ الفاضل محمد الصالح الصديق حول المناسبة: *

اعتاد الأخ العزيز الدكتور محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، أن يدعوني –مشكورا – لحضور مناسبات، تُكرم فيها

* وردت في أسبوعية البصائر الغراء أواخر جوان 2006.

شخصية لامعة، أو تدرس فيها قضية هامة، أو ينفض فيها غبار عن صورة من صور التاريخ الماضي، أو يرفع فيها ستار عن واحة من واحات الفكر والجمال والفن!

ولكنه هذه المرة دعاني لحضور أمسية شعرية، يستضيف لها المجلس الأعلى للغة العربية بمناسبة الاحتفاء بيوم الطالب نخبة من الشعراء الشباب، الذين انتظموا في سلك (فرسان البيان) انتظام اللآلئ في السمط الذهبي!

ورغم ما أكنه للأخ العزيز من التقدير البالغ لا لعلمه وفكره فحسب، ولكن لأخلاقه العالية أيضا، التي يمتلك بها المشاعر، ويسرق بها القلوب فإنني لم أتحمس لحضور هذه الأمسية، ورأيت أن قضاء وقتها في عمل فكري بمكتبي أجدى وأفيد من قضائه في استماع محاولات شعرية، قد تكون ألوانا للورود وليست وردا أو حمرة للشفق وليست شفقا، أو خلجات خاشعة قد تشجي وتطرب، ولكنها لا تلبث أن تختفي ويبتلعها النسيان، دون أن يبقى لها أثر أو صدى في الوجدان!

ولكن عندما حان الوقت ترجح عندي الحضور، وتصورت أن في تلبية الدعوة تقديرا للداعي، وإكراما للمناسبة، وتشجيعا للشعراء الشباب على المضي في الطريق، وإراحة للفكر من عنائه اليوم.

وعندما أخذ الشعراء –ومعهم غزالة تعيش مع الأسود– يتعاقبون على المنصة، ويتنافسون في نثر الدرر والجواهر، ومناجاة الأرواح بلغة الأرواح ومناغاة المشاعر والأحاسيس بإيحاءات قلبية، وإلهامات من وراء المادة.

عندئذ حمدت الله على توفيقه لي للحضور، إذ رأيت في هؤلاء الشباب طاقة شعرية تثير النخوة، وتدعو إلى الاعتزاز، وتعد بمستقبل باسم يتنفس شعرا، ويتموج بيانا وسحرا!

وقد استطاعت عبقرية بعضهم في وصف العيون النجل، والشفاه الحمر، والخدود الأسيلة الوردية، والنهود المتمردة أن يهز المشاعر، ويطلق الألسن، بعبارات الإعجاب، ويذكر بقول الشاعر الفيلسوف صدقي الزهاوي:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقا أن يقال له شعر

ولعل من حسن حظ هؤلاء الشعراء الشباب، أن يكون في القاعة من رهف حسه، وسمو ذوقه..كالأخ الدكتور محمد العربي ولد خليفة، والأستاذ محمد العربي دماغ العتروس، والمجاهد الأستاذ محمد الصالح بوسلامة، فسكروا بخمرة الشعر، وعاشوا ساعة في الحلم، وحلموا في اليقظة!

أما من كان قطعة من جماد، أو حفنة من تراب، فأطول الأوقات عليهم تلك الساعة!

وإذا كان لي من كلمة اهمس بها في أذان (فرسان البيان) فهي أن يرتقوا بطاقاتهم الشعرية إلى التغني بجمال الجزائر الساحرة، ومفاتنها الخلابة، ففي ذلك الجهاد الأكبر، والشهادة الصادقة على الوفاء وحسن الانتماء!

تقديم الدليل الوظيفي في إدارة الموارد البشرية

نظم المجلس الأعلى للغة العربية مائدة مستديرة يوم 2006/05/09 بمقره بمناسبة صدور كتابه الموسوم "الدليل الوظيفي للموارد البشرية" شارك

فيها الأساتذة د.سعيد مقدم، الأستاذ خير الدين شريف وعبد المجيد شيخي، علما بأن هذا الدليل جاء نتيجة لمختلف العمليات التي قام بها المجلس ومنها:

- عقد عدة لقاءات وطنية مع شتى القطاعات الوزارية للوقوف على مدى تقدم عملية تعميم استعمال اللغة العربية بها خلال سنوات 2000-2002، ومن ضمنها ملتقيات وطنية لنفس الغرض

- عقد جلسات استماع وتشاور مع اثني عشر (12) قطاعا وطنيا التي لها امتداد وانتشار واسع والتي لها علاقة مباشرة مع المواطنين خلال عامي 2003-2004 حيث طالب ممثلو هذه القطاعات من المجلس ضرورة تمكين أعوان الإدارة من الوسائل التي تمكنهم من تعميم استعمال اللغة العربية بصورة فعالة، وفي مقدمتها إنجاز أدلة ولا سيما في مجال الموارد البشرية-المالية والمحاسبة المكتبية والوسائل العامة.

جدير بالذكر الإشارة إلى أن الدليل الوظيفي في التسيير المالي والمحاسبة، والدليل الوظيفي في إدارة الوسائل العامة بوجدان تحت الطبع.

ومن المنتظر أن تستكمل مجموعة العمل المشكلة لهذا العرض أشغالها والتي تضم أساتذة متمرسين في الإدارة ولسانيين في اللغة العربية واللغات الحية برئاسة الدكتور سعيد مقدم رئيس مجلس الشورى المغاربي.

- وقد قامت المجموعة بوضع مسرد عام شامل لأهم الوثائق المتداولة في مختلف الإدارات والمؤسسات العمومية.

– الاعتماد وطنيا على ما هو متداول من مصطلحات فكرية في واقعنا الوطني.

– الاستئناس بالمصطلحات المتداولة باللغة العربية في محيطنا المجهول المغاربي والعربي من خلال المعاجم الموحدة الصادرة عن المؤسسات المتخصصة وكذا المعاجم العلمية المتخصصة باللغة الفرنسية

– انتقاء المصطلحات ذات العلاقة بالموضوع.

– التركيز على المدلول المحين المعبر عن المصطلح

كما وضعت المجموعة مسردا للمقابلات العربية مرتبة ترتيبا ألف ربائيا يمكن المستعمل من الاهتداء بيسر إلى مقابله الفرنسي.

– إيراد كافة النماذج النمطية للوثائق المتداولة في مجال الإدارة، وهذا الدليل من الحجم الكبير احتوى على 212 صفحة، مقدمة عامة (09 صفحات)

معجم فرنسي–عربي (53 صفحة)، المسرد باللغة العربية (41 صفحة)

– نماذج للمراسلات الإدارية وأنواعها وردت في 08 صفحات تتضمن الألفاظ والصيغ والمصطلحات المعبرة عن اللغة المميزة للإدارة وتسهيلا لاستعمال النماذج النمطية المعتمدة في التسيير الإداري (الموارد البشرية) قامت المجموعة، بتضمين الدليل بـ 89 نموذجا نمطيا من قرارات ومقررات تشمل المسار المهني للموظف.

هذا والجدير بالذكر أن الحضور قد استحسن هذا العمل كما أن عدة وزارات ومؤسسات عمومية قد طلبت من المجلس تمكينها من هذا الدليل.

حفل تسليم جائزة اللغة العربية

بعد الإعلان عن نتائج مسابقة جائزة اللغة العربية لسنة 2005 والموسومة بجائزة "محمد بن أبي شنب" من طرف اللجنة المشكلة لهذا لغرض برئاسة الدكتور صالح بلعيد نظم المجلس الأعلى للغة العربية حفلا بهذه المناسبة بفندق الأوراسي في 20 جوان 2006 حضرته شخصيات ثقافية وفكرية مهمة تم خلاله توزيع الجوائز على الفائزين بالجائزة التي شملت ثلاثة مجالات هي:

الأول: علوم اللغة العربية،

الثاني: العلوم والتكنولوجيا والطب والصيدلة،

الثالث: الترجمة إلى العربية.

فاز بالجائزة الأولى في المجال الأول السيد مصطفى مرزوقي عن تحقيقه لكتاب أنوار التحلي، وحجبت الجائزة الثانية.

والأستاذ مرزوقي من مواليد 1930 بباتنة درس بمعهد بن باديس والزيتونة ودمشق والمخطوط يقع في ألف ومائتي صفحة ونيف.

أما الجائزة الأولى في المجال الثاني ففاز بها السيد يحي بن لعلى المولود بباتنة هو كذلك في 1953، حاز على الباكالوريا في 1973 والدكتوراه في الطب بقسنطينة سنة 1980 تخصص طب باطني وعنوان مؤلفه: الخبرة في الطب الشرعي.

وفاز بالجائزة الثانية الأستاذ أحمد حافظ القاسمي الحسني المولود ببوسعادة في 1961 خريج جامعة سطيف له ديبلوم الدراسات العليا في

الكيماء الحيوية ودراسة الأحياء الدقيقة منذ 1985، ماجستير علوم إسلامية تخصص أصول الفقه من جامعة الخروبة سنة 2000، وعنوان مؤلفه: علاقات الحياة والممات بين الفقه والطب.

وفاز بالجائزة الأولى في الترجمة إلى العربية الأستاذ المترجم المعروف مولود طياب المولود عام 1922 ببجاية، درس بجامع الزيتونة (1937) وتحصل على شهادة التحصيل سنة 1942 ثم رحل إلى مصر للدراسة بالأزهر سنة 1947، متقاعد حاليا وقد كان مترجما في القسم العربي بالأمم المتحدة. الموضوع : وطن (مدينة) إيزيس –تاريخ العرب الصحيح لبيير روسي.

وفاز بالجائزة الثانية الأستاذ نذير طيار من مواليد قسنطينة في 1967 عن موضوع : البعد اللامرئي –التحدي الزمني والإعلامي– للوزير بروتون، أستاذ مكلف بالدروس بجامعة منتوري، (قسنطينة) حاز على الباكالوريا سنة 1986 شهادة الدراسات العليا في الرياضيات سنة 1990 ودراسات عليا في القانون الدولي 1991 وشهادة ماجستير في الرياضيات من جامعة باتنة 1996.

الطاهر بوساحية : فاز بالجائزة الثانية كذلك وهو من مواليد 1966/01/02 بتسبة. شهادة اللسانس في الحقوق جامعة الجزائر سنة 1989 دراسات عليا في القانون الدولي سنة 1991، ليسانس ترجمة من جامعة الجزائر 1993، دراسات عليا في الترجمة 1994، ليسانس في اللغة الألمانية 1997 فدراسات عليا في نفس المادة 2001. موظف مترجم بالتلفزة الجزائرية.

الموضوع المترجم: الثورة التكنولوجية العالمية تأليف فيليبس أنطوان ريتشارد سلبرغنت جيمس شنايدر.

حفل تكريم بعض من خدموا الثقافة الوطنية*

وفي نفس مناسبة توزيع جائزة اللغة العربية تم تكريم بعض الشخصيات الثقافية الوطنية ممن خدموا اللغة العربية يتقدمهم العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فالأساتذة والأستاذة الدكتورة فضيلة بوعمران، العميد الهاشمي هجرس، الدكتور جمال قنان، الفنان عثمان بالي، ولحسن مرموري.

وقد تميز هذا التكريم بالكلمة القيمة للأستاذ عبد الرحمن شيبان التي ألقاها بهذه المناسبة رأينا من المناسب إدراجها ضمن هذا الخبر :

"يطيب لي، ويسعدني أن أستعرض في هذه السانحة بعض الخواطر التي جالت بذهني، وغمرت وجداني، بالعرفان والسرور، بمناسبة تكريمي من طرف المجلس الأعلى للغة العربية، في حفل زاهر بهيج، أقيم مساء يوم الثلاثاء 24 جمادى الأول 1427 هـ الموافق لـ 20 جوان 2006 م، بفندق الأوراسي، وحضره عدد من الوزراء، ممثلي البرلمان، ومسؤولي المنظمات المدنية وضباط سامين من متقاعدي الجيش، ونخبة من المثقفين والشعراء، والأكاديميين، بل أكاد أقول إن المجتمع الجزائري كان حاضرا بقواه الحية، وتوجهاته الثقافية، ولأهمية هذا النشاط الثقافي، رأيت أن أشرك القراء في ما راودني من الخواطر والمشاعر المبثوثة في هذه السانحة.

---

* تم تخصيص كراسة لوقائع حفلي تسليم جائزة اللغة العربية وتكريم بعض من خدموا الثقافة الوطنية.

يبدو لي أن السادة الأفاضل في المجلس الأعلى للغة العربية، وفي مقدمتهم معالي الدكتور الابن محمد العربي ولد خليفة، قد أرادوا من خلال تكريمي، تكريم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي قيضها الله تبارك وتعالى للشعب الجزائري في أحلك لحظات تاريخه المعاصر: ظلامية، وبؤسا، وقهرا، وتشتتا، ليستمد من منهجها الإصلاحي، ودعوتها النهضوية ما يصلح به أمر دينه، ويوقظ وعيه، ويمتن نسيج وحدته الوطنية ويقوي إرادته في التحرر والانعتاق.

وأعتقد أن هذا المقصد لم يكن غائبا في أذهان المكرمين، وإن كانوا قد سجلوا في الكراسة التعريفية بمسار المكرمين فيما يخصني هذه العبارات: "عبد الرحمن شيبان، من مواليد 23 فيفري 1918 ببلدية الشرفة ولاية البويرة، شخصية متعددة المهام والمواهب: إنه المعلم، والمربي، والموجه، والمفتش، والمستشار، والكاتب الصحفي، ورجل الدين، والإمام الفقيه، والخطيب الجليل، والوزير..." وأكتفي بهذه العبارات البرقية المأخوذة من النص المخصص للتعريف بمساري الشخصي منذ التحاقي بجامع الزيتونة في سنة 1938، وعمري آنذاك 20 سنة.

كما أعتقد أيضا أن حرص المجلس الأعلى للغة العربية على إشراك ثلاث هيئات محترمة، أكن لها كل التقدير – في تكريمي: وهي وزارة المجاهدين بواسطة وزيرها، المجاهد المثقف معالي السيد محمد الشريف عباس، التلميذ الأبر لمعهد عبد الحميد بن باديس، وبما تمثله هذه الوزارة من بعد رمزي لمجد الجهاد الجزائري وعنوان الأسرة الثورية، وكذلك الغرفة العليا للبرلمان بواسطة نائب رئيس مجلس الأمة المجاهد الكاتب معالي الأخ

عبد الرزاق بوحارة، زميلي في الحكومة الجزائرية، وما يمثله مجلس الأمة من رمز لسلطة الإدارة الشعبية، وكذلك التنسيقية الوطنية للجان المساندة لبرنامج فخامة رئيس الجمهورية بواسطة رئيسها المجاهد الأخ بلقسام عبد اللاوي، زميلي في جبهة التحرير الوطني، وما تمثله هذه التنسيقية من رمز لتوجه الأغلبية الشعبية، المساندة لفخامة رئيس الجمهورية، كل هذا يمثل تكريما وإعادة الاعتبار لتلاحم التيار الوطني والتيار الإسلامي اللذين ساهما بصفة كبيرة، بل وحاسمة في تحرير الجزائر، وبناء نهضتها الوطنية والتنموية.

وربما يعرف الجميع أنني كنت دائما من دعاة التعاون والتفاهم بين هذين التيارين، اللذين أجد منبعهما في الدين الإسلامي، الذي لايفرق فيما ينفع الناس في كل مجالاتهم الدينية والسياسية، كما تجسدا في مقاومة الأمير عبد القادر رمز الوطنية الإسلامية، ورائد المقاومة الجزائرية، ثم تدعما في جبهة وجيش التحرير الوطني لتحرير البلاد والعباد.

وأود أن أختم هذه السانحة التي هي عبارة عن خواطر ذاتية بكلمة معالي الدكتور محمد العربي ولد خليفة إذ يقول: "..يكرم المجلس صفوة من أهل الفكر والذكر، الذين خدموا الوطن بإخلاص ووفاء، وساهموا من مواقع مختلفة في إثراء ثقافتنا، ورفعوا لواء العربية عاليا، قولا، وموقفا، وعملا، فعزت بهم وعزوا بها... في مسارهم الجهادي والعلمي والإصلاحي والتعليمي من الفضائل والمكرمات ما يغني عن التعريف والتنويه...".

إن هذا التكريم سادتي سيداتي، هو مبعث سعادتي، وشعوري بالفخر والاعتزاز.

ثم هو يعود أيضا، إلى أن مبادرة التكريم هذه؛ أكدت لي بأن الجهود التي بذلناها، منذ فتح باب التعددية السياسية والثقافية، لأجل ابتعاث جمعية العلماء والعودة بها إلى النشاط بعد توقفها عنه لأسباب تاريخية -أولا- واستعادة جريدة "البصائر" لسان حالها بعد تعطيل طويل- ثانيا-، واسترجاع نادي الترقي الذي هو الرحم الذي ولدت منه الجمعية، والذي كان بحق قلعة من قلاع النهضة الجزائرية بعد انغلاق مديد -ثالثا- قد أثمرت ولله المنة والشكر.

ويطيب لي أن أقدم أصدق التهاني لجميع الذين أجيزوا في هذا الحفل الكريم على جهودهم الكبيرة في كل مجالات الثقافة والإبداع لخدمة ذاتيتنا الحضارية، فأصالة عن نفسي ونيابة عنهم أشكر معالي الأستاذ الدكتور محمد العربي ولد خليفة والمجلس الأعلى للغة العربية على ما أولونا به من عناية وتكريم.

وإنني أرفع هذا التكريم الرمزي الذي خصصت به، إلى روح الرواد الأوائل الذين أسسوا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أم الجمعيات الوطنية، وإلى جميع الشهداء الأبرار، والمجاهدين الأحرار، الذين لولا جهادهم الصادق، ما كان ليكون هذا التكرين، فلهم جميعا أسأل الله تعالى؛ الرحمة والرضوان، وإياه أسأل؛ أن يوفق أجيالنا الحاضرة الآتية، إلى السير بالجمعية وجريدتها "البصائر" وناديها: نادي الترقي نحو الأفضل والأمثل، وتمكينها من مواصلة رسالتها لخير الوطن، واستقراره ومجده، ورفع مكانته في العالمين.

وجزى الله كل خير المجلس الأعلى للغةالعربية، وأمده بالتوفيق والتأبيد لتحقيق ما يصبو إليه من الخير للبلاد، بخدمة ثقافتها الأصيلة، ولغتنها العربية الرسمية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

في مجال النشر

- مجلة اللغة العربية العددين (15-16)
- مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية (طبعة ثانية)
- الدليل الوظيفي للموارد البشرية
- الدليل الوظيفي للمصطلحات في التسيير المالي والمحاسبة
- دليل المحادثة الطبية
- كراسات المجلس وعددها (6)
- الكهرباء الساكنة والكهرباء المتحركة للأستاذ محمد رضا أوهايبية
- الدارة الكهروبائية للأستاذ محمد رضا أوهايبية
- إعادة طباعة خمسة كتب تابعة للمجلس من طرف محافظة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 وهي:

1. مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ط 3.
2. المبرق ط 2
3. اللغة العربية في تكنولوجيا المعلوميات ط 2

4. الترجمة وشروط إحيائها ط 2

5. العدد الممتاز من مجلة اللغة العربية "العربية من محنة الكولونيالية إلى إشراقة الثورة التحريرية" ط 2

- طبع الأعمال الستة الفائزة بجائزة اللغة العربية لسنة 2006 وهي:

1. أنوار التحلي 1200 صفحة تحقيق الأستاذ مصطفى مرزوقي.

2. الخبرة في الطب الشرعي للأستاذ يحي بن لعلى.

3. علاقات الحياة والممات بين الفقه والطب للأستاذ أحمد حافظ القاسمي الحسني.

4. وطن إزيس لبيير روسي ترجمة الأستاذ مولود طياب

5. البعد اللامرئي –التحدي الزمني والإعلامي– للوزير بروتون ترجمة الأستاذ نذير طيار.

6. الثورة التكنولوجية العالمية لمؤلفيه فيليبس أنطوان ريتشارد سلبرغنت جيمس شنايدر، ترجمة الأستاذ الطاهر بوساحية.

إعلان عن جائزة اللغة العربية

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم "جائزة اللغة العربية لسنة 2007/2006" وتهدف الجائزة على وجه الخصوص إلى تشجيع أعمال الباحثين والمبدعين وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية والمساهمة في نشرها وترقيتها، سواء كانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية أم مترجمة إليها،

1. تتمثل شروط الترشح للجائزة فيما يلي :

- أن يقدم العمل باللغة العربية
- أن يتوفر العمل على قواعد المنهجية العلمية
- أن يكون البحث موثقا وأصيلا، ولم يسبق نشره، وفي مجال الترجمة ترفق صورة للنص بلغته الأصلية
- أن لا يكون قد نال به صاحبه جائزة أو شهادة علمية.
- أن يندرج البحث في أحد المجالات المذكورة أدناه.

2. حدد مبلغ الجائزة بـ 800.000 دج، يوزع بمقدار 200.000 دج لكل مجال من المجالات الأربعة التالية :

- جائزة اللغة العربية في علوم اللغة العربية.

- جائزة اللغة العربية في علوم الطب والصيدلة.
- جائزة اللغة العربية في الترجمة إلى العربية في مباحث اللسانيات.
- جائزة اللغة العربية في العلوم الإقتصادية.

حدد مبلغ الجائزة للفائز الأول بـ : 130.000 دج، ومبلغ الفائز الثاني بـ 70.000 دج في كل مجال من المجالات الأربعة المذكورة أعلاه.

يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة، وتصبح ملكا له، إلا أنه يمكن للفائز بالجائزة استعادة حقوقه حسب دفتر الشروط، وبعد انقضاء مدة ثلاث سنوات –على الأقل– من نشر العمل.

تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم، مكونة من ذوي الاختصاص، الذين لا يسمح لهم بالمشاركة في الجائزة،

- قرارات لجنة التحكيم نهائية وغير قابلة للطعن،ولا ترد الأعمال إلى أصحابها، سواء فازت أم لم تفز.

3. يتكون طلب الترشح من الوثائق الآتية :

- طلب خطي
- السيرة العلمية للمشارك في الجائزة
- نسختين من البحث المقدم لنيل الجائزة : النسخة الأولى مسجلة على قرص . والنسخة الثانية توجه عن طريق البريد المسجل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهدا على ذلك.

4. يفتح باب الترشح للجائزة ابتداء من نشر هذا الإعلان في وسائل الإعلام إلى غاية 30 جوان 2007.

5. يوجه ملف الترشح إلى العنوان الأتي :

"**جائزة اللغة العربية**"

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية،

شارع فرانكلين روزفلت، الجزائر العاصمة.

أو

ص.ب : 575، شارع ديدوش مراد، الجزائر العاصمة.

الأعداد الصادرة
من مجلّة اللغة العربية



المجلس الأعلى للغة العربية

06 شارع فرنكلين روزفلت ، الجزائر

الهاتف : 24/25 07 23 21 213 الفاكس : 07 07 23 21 213

ص ب 575 الجزائر، ديدوش مراد

www.csla.dz